
التراب الجائع



اسم الكتاب : التراب الجائع
اسم المؤلف : علي عيسى
النوع : رواية
الطبعة : الأولي
الغلاف : آلاء محمد
تصحيح لغوي : أشرف ضمر
رقم الإيداع : 2016/20994
الترقيم الدولى : 978-977-6464-55-1

نور للثقافة والفنون والنشر والتوزيع

المدير المسؤول : ناظم نور الدين
مدير النشر : ياسمين أبو المجد
ت : 01092288017 - 01227862203
EMAIL: NOUR.FONOON@GMAIL.COM
العنوان : ٦ ش حسين حجازي متفرع من ش القصر العيمي أمام مصلحة الضرائب العامة - الدور الثاني شقة ٤

التراب الجائع

رواية

علي عيسى

2016

إلى صديق وصديقة اختطفا من حياتي نسيم الفرحة..

أهديكما معًا أول أعمالي الأدبية.

عندما يتخلى الإنسان عن دينه ومبادئه وقيمه وأخلاقه وتقاليد المجتمع من أجل أن يسد الرمق، فإنه يرتد إلى أصله، إلى التراب، حتى وإن بقي حيًا فإنه لا ينتمي إلى الإنسانية- آنذاك- إلا بالجسد فقط.

على سبيل التقديم

عندما يختلط الدم بالتراب بالخيانة، فإننا نرى البشر على هيأتهم الأولى، لا يزيدون عن كونهم ترابًا جائعًا لا يغنيه من الأرض شيء، حتى يتحولون هم أنفسهم إلى طعام لدود الأرض.

علي عيسى،،

الفصل الأول

صياح الديوك وأصوات المارة في الشارع أيقظاه رغم أنفه، إلا أنه أفاق من نومه مبتسمًا، وبدأ يتلو أذكار الصباح قبل أن ينهض من فراشه ويتجه إلى حيث يتوضأ ويصلي ركعتين- كعادته كل صباح- لكنه قبل أن يتوضأ، نظر إلى مرآة تعلو الحوض الرخامي الأنيق داخل حمام شقته، التي لم يكن يبيت بها إلا أيامًا معدودات من كل عام، ثم صلى ركعتين وانطلق غير مبالٍ بشيء مما حدث بالأمس، أو في ما مضى من عمرٍ ترك آثاره على قسماتٍ وجهه المجعد، وأخيرًا يستوي على مقعد وثير في سيارته الفارهة، وينطلق مسرعًا بعد أن انقطع التواصل بينه وبين زوجته، التي يعتصر القلق فؤادها خوفًا عليه، فلم تكن عادته أن يسافر دون أن يخبرها إلى أي وجهة تأخذه الخطى.

مجدي مصطفى بسيوني، أحد أشهر معلمي اللغة الإنجليزية بمحافظة الجيزة، انطلق مجدي بسيارته غير عابئ بما حوله من زحام وصخب، وبإشارة منه يعلو صوت داخل السيارة، يتهادى رقيقًا بأغنية تحمل في نفسه ذكرى خاصة جدًا: "اخترتك م البداية وهنبتدي الحكاية - عمرو دياب".

مجدي يبتسم ويصدر صوتًا مع الموسيقى يعبر عن حالة مزاجية رائعة يشعر بها ذلك الرجل الذي جاوز الخامسة والأربعين بشهور قلائل، سرعة السيارة تتزايد ومجدي يصدر صوتًا بإصبعين من أصابع يسراه، ثم يضغط دواسة البنزين- بقوة- متجها إلى شارع الهرم، ومنه إلى شارع العريش حيث مسكن أسرته الصغيرة زوجته وطفليه ياسر وهيام البالغة من العمر ثلاث سنوات، والتي يزيد عمر أخيها عن عمرها عامين، وكان لا يدرك معنى

للحياة إلا معهما، رغم احترامه الشديد لشريكة حياته دار في عقل مجدي وهو في سيارته ما يواجهه في عمله من صراعات مع الزملاء في مجال التدريس، لكنه في هذا اليوم لم يكن رغم كل هذا- يشغله تلك الصغائر أنه يوم الإثنين التاسع عشر من يناير تحامل على نفسه كثيرًا وهو يصعد السلم حتى وصل إلى الطابق الرابع، جرح القلب الدامي لا يزال ينزف رغم توالي السنين والأحداث، قوة غريبة من أعماقه تسحبه إلى داخل نفسه، لا يزال حتى الآن يئن من الداخل كلما لاحت لعينيه أشباح تلك الذكرى الخبيثة إلا أنه يفاجأ بما يسري عنه ويخرجه من الماضي رغم أنفه

فما هي إلا لحظات تفصله عن زهرتي العمر، طفلاه اللذان يصرخان في مرح طفولي رائع وابتسامة عذبة تغمر الوجوه بالنور:

- بابا كنت فين؟ كنا قلقانين عليك.

يحتضن الأب طفليه مواريًا آلامه حتى لا تكدر صفو أيامه بعد أن كاد كدرُها يذهب عنه طعم الحياة ذاتها، زوجته تتوارى خلف طفليها مبتسمة في دلال وبصوت هامس كخرير الماء:

- وبعدين معاك؟ ولا حتى تليفون؟

ثم تبتسم وحاجباها ينعقدان في مكر صبياني:

- على فكرة بقي يا مجدي بالشكل ده أنا زعلانة منك-

مجدي يبتسم في حنان:

- روح قلبي أنا كنت مسافر سامحينى.- أخبارك إيه؟ وأخبار الولاد؟

لم يجد منها تعقيبًا، فبادرها بكلمات رقيقة حتى يتجنب ما يكدر الصفو:

- ربنا يخليك لينا يا قمر.

وما إن أغلق باب الشقة حتى طبع قبلة- كعادته بعد كل غياب مهمًا طال- على جبين زوجته، وقضى بضع دقائق تناول فيها لقيمات قليلة، ثم التقط مفاتيح السيارة وأشار بيده مودعًا وهو يقول:

- امتحانات طبعًا، أكيد حبيبتي مقدرة ظروفي، سامحيني.

وألقت إليه زوجته معطفه الرمادي كما اعتاد أن يلتقطه من الهواء:

- خد بالك من نفسك وطمنِّي عليك.

ثم أعقبت جملتها الأخيرة بابتسامة:

- يالا باي في حفظ الله.

نظر إليها مبتسمًا وهو يقذف قبله في الهواء ثم أسرع مغادرًا شقته، وما هي إلا دقائق حتى أصبح لا يسمع سوى صوت محرك السيارة، وقد أغلق حتى نوافذ السيارة الزجاجية، فانعزل عن كل ما حوله وعاد بذكرياته إلى الإثنين 19 يناير الذي مضت عليه سنوات قبل أن تحين ذكراه، وكان أصعب يوم في حياة مجدي كإنسان، أن لم يكن هوالأغرب على الإطلاق، لقد مضى على ذلك اليوم أكثر من عشرة أعوام، إلا أنه لا يزال يذكر كل تفاصيله، التي تشبه شريط سينما يمر أمام عينيه بما فيه من ذكريات أليمة، وأخرى كان قلبه يكاد يغادر ضلوعه فرحًا كلما تذكرها، ما كاد ينسى تلك اللحظة، الساعة العاشرة وثماني وأربعون دقيقة صباحا،

الغيوم تملأ السماء، ولم تكن الأرض قد جفت بعد من آثار الأمطار الغزيرة التي هطلت قبل تلك الساعة بعدة أيام، ريهام سمير الشناوي، إنها لحظة اللقاء الأولى مع تلك الفتاة التي لم تكن تربطه بها سوى علاقة صامتة، تكونت خلف شاشة بيضاء من خلال التواصل الاجتماعي عبر "فيس بوك"، الآن- وفي تلك الساعة- يلتقيان لأول مرة على أرض الواقع، مجدي مازحًا:

- يا لهوي يا أمه أنا فين؟

ريهام في مرح طفولي وهي تصدق عينيها:

- إنت في إسكندرية يا نور العين-

تضحك- بقوة- فتعانق ضحكاتها عنان السماء، ويرفرف القلب فرحًا بقدوم من جاء ليراها بعد أن تردد كثيرًا وطويلا قبل أن يأخذ فقط القرار، وبدعم معنوي من صديقه مدحت حمدي، ليلتقي بها على الطبيعة لأول مرة وجها لوجه، وحانت تلك اللحظة التاريخية من عمر الزمان، والتي تردد الفتى قبلها طويلا، كانت ريهام سمراء البشرة عميقة العينين ذات أنف مدبب ووجه مستطيل، وقد بدت عليها دلائل التقدم بالعمر، ما أوضحته ابتسامتها من تجاعيد بالوجه قدم الزمان بها إنذارًا، إنها لم تهرول خلف قطار الحياة المسرع، فإنه سوف يغادر محطته الأخيرة تاركًا إياها على رصيف العوانس!

الباحثات عن من يعطيهن كوبًا من الماء عندما لا تقوى الساقان على حمل الجسد بعد أن خارت قواه ووهنت مقاومته لما يفعله الدهر بالبشر عندما يكون نذيرًا من الله باقتراب النهاية، وكانت عيناها العميقتان تشعان بريقًا يخطف القلوب، وابتسامتها تبعث السكينة والأمان والاطمئنان كانت تبدو نقية القلب طيبة المعشر حسنة الخلق رغم تواضع جمالها إلى حد كبير، إلا أن مجدي يفاجئها باتصال هاتفي من صديق ويخبرها بأن صديقه مدحت حمدي يريد أن يطمئن أن مجدي بخير، ويدور حديث قصير في وجود مجدي ومن خلال هاتفه الشخصي وبعدها- بثوانٍ قليلة- ينعزل مجدي تاركًا ريهام ثم يهمس إلى مدحت:

- البنت طيبة وعينيها كلها براءة.- كنت هاخسر كتير أوي يا مدحت لو ضيعت الفرصة دي.

وهنا فقط تنفس مدحت الصعداء وحمد الله في نفسه أن ما يتمناه قد بدأت بشائره تلوح في الأفق، إلا أنه لم يعلن لأحد- على وجه الأرض- ما يدور في نفسه حيال هذه التجربة، التي لم تمر هادئة كما يحدث عندما يتقدم أي شاب ليخطب أي فتاة، ولم يتذكر مجدي خلال حديثه مع صديقه إلا جملة واحده حين قال في غزل كان له مبرره آنذاك، رغم مشقة الأمر بالنسبة له:

- عيون ريهام أعمق من البحر المتوسط .- فعلا تستحق المشوار-

مدحت:

- شوفت بقى يا عم عشان تبقى تثق في كلامي لما أقول لك مش راح تندم-

عاد مجدي إلى القاهرة وهو لا ينسى تلك اللحظة الحاسمة في عمره، والتي تردد كثيرًا قبل أن يشرع في السعي إليها لتتحول مئات الرسائل على صفحة فيس بوك إلى واقع يتجسد أمامه- لحمًا ودمًا- ينبض بالحياة، لا ينسى تلك الضغوط التي دفعته لاقتحام المجهول بحثًا عن عروس بعد أن جاوز الثلاثين، مدفوعًا بحماس لا مثيل له ليقي نفسه شرورًا وآثامًا كثيرة تحيط به وتهب عليه من كل حدب وصوب وليتفادى إلحاح الجميع: "إتجوز يا مجدي عايزين نشوف ولادك ونفرح بيك"-

الأهل والأقارب والجيران وزملاء العمل، بل والأصدقاء الذين كانوا لا يمضون يومًا دون الحديث في هذا الأمر، وآخرهم مدحت نفسه، ولم تكن ريهام في عيون مجدي سوى أرض ظامئة تاقت إلى كل معاني الحياة والحرية والاحتواء، والبحث عن من يروي ظمًا القلب ويطفئ لهيبًا مستعرًا، منذ ما يربو على عشرين عامًا من الجوع والحرمان، لكن ذهبت صيحات قلبها في

واد لا يسمع فيه للصوت إلا صدى، لم تكن سوى فتاة قست عليها الأيام كغيرها من بنات جيلها وهن كثيرات من اللاتي ينتظرن أمام رصيف الأمل، حتى يمر آخر قطار يهبهن فرصة الزواج والأمومة، حتى وإن تشبثن بآخر عربة استطعن اللحاق بها قبل ضياع الفرصة، وباتت الفتاه ليلتها في سعادة لم تر مثلها منذ أن جاءت إلى الدنيا، فبعد أن انحسر الأمل عادت أمواج الحياة في عنفوانها تهبها طوفانًا جديدًا من الأمل، بعد موجة مد عاتية حملها مجدي بين يديه، ولمحت ريهام فيها بارقة الأمل فقالت تودعه وقلبها يتمنى له سلامًا:

- أشوفك على خير يا نوة عمري اللي جاي.- وعوضي من ربنا عن عمري اللي راح.

لم تكن ريهام نفسها تنسى تلك الليلة التي شعرت فيها بأن مجدي يهيم بها حبًا، وأنه يريد أن يسمع منها كلمة "أحبك"، وظل معها على الهاتف حتى الصباح، وعندما نطقت بها ظلت حروف الكلمة متقطعة، ينتزعها من بين شفتيها في خجل وتردد، حرفًا حرفًا، وما إن نطقت بها حتى شعرت بأن قلبها يتمزق، وكأنما مزقت الكلمة بكارة قلب لم يعرف طعم الحب، فبدًا بعد تلك الكلمة ينزف دماء الندم على فعل لم يكن هو الأثيم لكنه كان جديدًا أن يدق باب قلبها الحب بعد حرمان دام ثلاثين عامًا وأكثر، وانقضت سنوات العمر بلا رجل ولا غزل، بل وبلا قلب، كادت روحها تتلاشى وتسقط في بئر الحرمان قبل أن يدق باب ذلك القلب الظامئ من يرفق به، يحنو عليه ويشعره بالأمان، كان مجدي قد تنهد وهو يعود من تلك الرحلة، بعد أن طمأن الأم والأخت الصغرى التي تزوجت قبل خمسة أعوام وأنجبت طفلين، أحدهمًا كان أول من تعلق في عنق مجدي عندما دخل بيت ريهام لأول مرة بعد أربعة

أيام فقط من اللقاء الأول، ليتعرف بالأسرة التي قرر في نفسه أن يكون أحد أفرادها، في ثوان معدودة كان مجدي قد أوقف سيارته وأطفًا محركها قبل أن يتوجه إلى قاعة المحاضرات، والتي يلقي فيها دروس المراجعة النهائية، ويتهلل وجهه بعد لقاء تلاميذه تاركًا الماضي خلف ظهره- ولو لساعات قلائل- ليهب حياته بعضًا من اهتمامه، قضى مجدي يومًا عاديًا في عمله قبل أن يعود إلى بيته فيفاجًا بزوجته تصرخ في وجهه وإن لم تفارقها الابتسامة رغم قسوة ملامحها:

- ابنك ده جنني.- تصور يقول للميس في الحضانة أنا مش مذاكر وكده كده ناجح لأن بابا شاطر ومش بيذاكر اشمعنى أنا يعني؟!

ثم تنظرعبير إلى طفلها وهي تكاد تلتهمه بعينيها قائلة:

- آه يا انا من شقاوتك.- جننتنى!

ثم تكمل في عتاب تواريه غضبة مصطنعة:

- هتبقي إنت وأبوك؟ كفاية على شغلي إرحموني بقى.

ابتسامة غامضة تثير في نفسه حنينًا جارفًا إلى لحظات خاصة جمعتهمًا قبل أن تعصف بهمًا الدنيا وأعباء الأسرة، فيبتسم الرجل ساخرًا وعيناه على الفتى:

- وبعدين بقي يا ياسر؟ كده تخلي ماما تغضب علينا؟

ثم يرفع حاجبيه في مكر رغم ابتسامته:

- ماما غضبها صعب أوي وأنا عارف، اسألني أنا-

قال جملته الأخيرة وهو يحمل الفتي بين يديه ويتوجه بعينيه إلى عبير حتى كاد يرتطم بالكرسي المقابل، إلا أن عبير تشير إليه:

- حاسب يا مجدي، ركز وإلا هتقع-

يكاد مجدي يسقط على الأرض تطمئنه زوجته:

- المسألة مش كبيرة أوي يا مجدي، ثم تسأله في دهشة: مالك؟

- لا أبدًا، مشاغل وظروف الشغل والترقية اللي أنا كنت رافضها أصلا، آهو كله شغل، ثم يحك ذقنه بأنامله مواريًا شيئًا ما يحتل فكره: أكيد مسيرها تتعدل، ثم يعود إلى أسرته فيقول فجأة: ماله ياسر؟

وهنًا تنفجر عبير غضبًا، رغم أن ابتسامتها لم تفارقها، إلا أنها تتصنع غضبة تضفي على قسماتها جمالا خاصًا، ثم تلوح بيديها معبرة عن استسلام ويأس:

- تخيل ياسر يقول للميس في الحضانة أنا مش مذاكر لأن بابا شاطر لوحده، وأشارت إلى الطفل وعيناها تكاد تفترس وجهه البريء، والفتى ينظر إلى الأرض وينتفض رعبًا، مجدي يتنهد في عمق ويشير إلى الفتي قائلا: حبيبي إنت وعدت بابا تبقى شاطر ليه تزعل ماما؟ ثم يستطرد في مكر وبابتسامة ذات مغزى: كده هتنكد على أنا، ذاكر علشاني أنا يا أخي، ثم قبل الفتى ونهض واقفًا-

عبير في دهشة:

- لا كده مش هينفع شد عالواد شوية، بطريقتك دي الواد له حق يعمل أكتر من كده-

ويستمر النقاش بين الزوجين وفصول المسرحية الهزلية تتوالى، والطفل لا يفقه شيئًا ولكن الاب يتدارك الأمر بحكمة، ويدخل إلى فراشه لينام، إلا أنه بقي صامتًا لساعات طوال، ولا تدرى زوجته في ما يفكر؟ وقضى فترة

طويلة وانطلق إلى خارج الحجرة وأشعل سيجارة نفث دخانها في الهواء وهو ينظر إلى السماء في تلك الليلة، وعقله في شرود تام.

فريد في شقته حتى التاسعة لا يزال في فراشه يبدأ يومًا عاديًا، وكعادته كل صباح رشفة من فنجان من القهوة، وقبلة على خد الرضيعة ريم، ثم ينهض ليبدأ عمله، ونحنحة مقتضبة وهو يضرب على صدره بيديه منتشيًا، ثم يطلب من زوجته الشاي سحر من أعماق الشقة حيث المطبخ تنبهه إلى ما يفعل:

- إنت خلصت القهوة؟

فريد في دهشة:

- يابووي يخرب بيت مخي تصدقي كنت ناسي-

هاتف فريد يثير ضجيجًا، فريد لا يكاد يسمعه إلا أنه ينتبه بعد فتره فينادي: -

- ردي يا سحر أنا مش فاضى!

فجأه تنادي:

- مجدي عايزك عالتليفون-

- ثواني حاضر أغسل سناني بس وهكلمه-

فريد يتصل بمجدي وصوت مجدي يفاجئه:

- صباح الخير فيه واحد من جيرانك قتل مراته.- اسمه راغب مختار تسمع عنه؟

فريد في دهشة: أستاذ راغب؟ معقول ده؟ إيه حصل في الدنيا بس؟ ثم يبلغ مجدي عبر الهاتف: ثواني وهاكون معاك سلام حبيبى-

مقهى عريق في وسط العاصمة، زحام على جانبي الطريق، أصوات المارة والسيارات، رائحة الدخان واحتراق التبغ تخلق إطارًا من دخان كثيف، مجدي يلقي بسلسلة مفاتيحه على طاولة تفصل بينه وبين فريد، ثم يقول في غضب:

- شفت اللي حصل؟

فريد مندهشًا، وقد انعقد حاجباه الكثيفان:

- ده اللي خلاك تجيبني هنا من أحلاها نومه؟ وفيها إيه يعني لما حد يقتل مراته؟ أنا بس اللي مستغربُه ليه عمل كده أستاذ راغب ده كان راجل طيب جدًا أنا أعرفه شخصيًا إزاي يقتل؟

مجدي وقد اشتد وجهه الأسمر سوادًا وتصبب جبينه عرقًا بصورة مفاجئة:

- غيره حاول يقتل، وبرضه كانت مراته لأنه شك في سلوكها، وفي النهاية مصيره إيه؟

ثم يتنهد في مرارة من خسر كل شيء، فريد في دهشة وعيناه لا تخليان من إشفاق يمتزج بغضب عارم:

- مجدي أرجوك بلاش تفتكر القديم، بيتك وأولادك ومستقبلك أهم-

مجدي في غضب: وهو اللي فات يتنسى يا فريد؟! فيه حاجات في حياتنًا ولا حتى الزمن يمحيها يا صاحبي-

فريد في هدوء:

- ربك عالم باللي كان يا مجدي وحقك عند ربنا ومش هيضيع-

مجدي:

- حقي؟ ونعم بالله أنا حاسس إني أجرمت في حق نفسي أكتر من غيرى لما وثقت في حد مش أهل ثقة، لكن حقي فين بعد كل اللي شفته وراجع إمتى؟ يوم القيامة؟!

أمضى الصديقان بضع دقائق ثم انصرفا، وبعد دقائق من وصوله إلى بيته شعر مجدي بإعياء شديد، فاتصل هاتفيًا بمدير المدرسة التي يعمل بها، وأبلغه برغبته في الحصول إجازه اعتياديه لمدة أسبوع، وبعد نقاش لم يطل وافق المدير، ثم استأذن زوجته في أن تتركه بمفرده متعللا بحاجته إلى قسط من الراحة، وأنه يريد أن يخلو إلى نفسه قليلا، ثم استلقي على الفراش مستسلمًا للنوم الذي أبي أن يزوره في تلك الساعة، وفجأه يغادر غرفته وفي هدوء يهمس في أذن عبير:

- قريب جدًا هاجاوب كل الأسئلة اللي شايفها جوه عينيكي.- بلاش توتري نفسك أنا بخير والله-

ثم عاد إلى حجرته بعد أن رمقها بنظرة الزوج الذي يؤرقه رؤية القلق في عيني زوجته لكنه لا يملك شيئًا، وتمضي ساعات ومجدي يحاول أن ينام ثم ينهض من فراشه فيشعل سيجارة تلو الأخرى ولا أحد يعلم ما يسيطر على تفكيره ويشغل قلبه الآن، قلبه الذي يكاد يتمزق ولا أحد يعلم شيئًا سوى الله، وفي الصباح- بعد عناء- يستيقظ مجدي متثاقلا لا يريد أن يغادر فراشه، لكنه يلتقط هاتفه من أحد الأدراج القريبة، وفي سرعة يرد على المتصل بصوت يخالطه السعال، ونحنحة مقتضبة:

- أيوه مين معايا؟

خالد ساخرًا:

- إيه يا إبني فينك؟ إوعى تكون نسيت صوتي؟

- يخرب بيت الندالة.- شهر كامل ومافيش منك حتى ألو؟

- ده كلام يا عم؟

- هي كانت معرفة أتوبيس؟

حوار هادئ بينهما، ثم يلتقيان على مقهى قريب، وينزل مجدي سيرًا على الأقدام لم يكن يعتاد ذلك، فقد أصبح من أصحاب الوزن الزائد، وإذ به يفاجأ بامرأة تنفعل في مكالمة تليفونية وألفاظ حادة، ونبرات غاضبة وضجيج مفاجئ، مجدي يتأفف فجأة وهو ينظر إلى ساقيها وتصعد عيناه إلى أعلى، وإذ بخالد يتأبط ذراعه فجأة وهو يضحك بقوة قائلا:

- يموت الزمار.

يبتسم كلا الصديقين قبل أن تتصافح أيديهما في الهواء ثم يحمل، كل منهمًا كرسيًا وعندما يستقر بهمًا المجلس يهمس خالد بصوت خفيض:

- مالك؟ أحوالك مش عاجباني اليومين دول-

مجدي كأنمًا لدغه عقرب فجأة بعد أن ارتفع صوته ملفتًا أنظار الجميع:

- ماله حالي يا خالد؟

ثم تنبه فجأة فهدأت نبراته، ثم يكرر:

- ماله حالي يا خالد؟ ما أنا زي الفل أهو، والدنيًا تمام، بيت وزوجه وأولاد يعني مش ناقصني حاجه الحمد لله-

ثم ابتسامة مكسورة تخرج من قلب يئن منذ سنوات:

- الحمد لله على كل حال.

ثم يحني مجدي رأسه إلى الأرض هاربًا بعينيه من ملاقاة نظرة خالد له، فيبادره خالد:

- الحمد لله يا مجدي، بس أنا واثق إنك مش سعيد، وإن في حاجة تاعباك من جوة، مالك يا أخي؟ إحنا مش إخوات يا ابني؟ فيك إيه بس؟ طمني.

مجدي وعيناه تدوران في محجريهما:

- نفسي ربنا يرحمني وأخرج من الدنيا دي، خالد كل اللي تاعبني بس مصير ولادي مخليني شايل حمل صعب تتحمله الجبال يا أخي والله.

فيصمت خالد فجأة وينظر إلى الأرض:

- يا أخي ملعون أبو أي حد وأي شيء يكسرك بقية عمرك كده، معقول بعد العمر ده كله ومش قادر تنسى جرحك؟ ثم يكمل وهو يهم بمغادرة المكان: يا أخي حرام عليك نفسك، والله أنا تعبت معاك، إحنًا بتعيش الحياة كام مرة؟

مجدي يصرخ في وجه خالد:

- إحنًا هنا عشان نطمئن على بعض، مش نصحي جراح ونتتريق على بعض،

ولا إيه يا خالد؟ أرجوكم سيبوني شوية وقت عشان أرجع لنفسي:

قبل أن يسأله:

- قدرت تنسى أمك يا خالد؟ لو قدرت تنسى أمك بعد ما ماتت ليه سَمِّيت بنتك على اسمها؟ إذا كنت ما قدرتش تنسى أمك اللي ماتت من سنين وده مستحيل، عايزني أنا أنسى إنسانة لسة عايشة في دمي بعد كل السنين دي؟!

خالد في ذهول:

- يخرب بيتك يا مجدي طيب ومراتك وعيالك؟

تجاهل كلام صديقه مستطردًا:

- واللي كانت أكتر إنسانة أخلصت لي في الدنيا وماكنش فيه قوة في الأرض تقدر تبعدني عنها لولا الغدر والخيانة؟

خالد يشيح بوجهه، وهو لا يكاد يصدق ما يرى، ثم يصرخ:

- يا أخي أبوس إيدك إنسى اللي فات وركز في اللي جاي من عمرك، ولادك أولى باهتمامك من واحد خانك، أو واحدة باعتك ببلاش، خلي أفقك ونظرتك للحياة أشمل من الكابوس اللي انت معيش نفسك فيه ده؟

مجدي وهو يكاد يبكي:

- هو بقي فيه حاجة جاية أصلا؟ ولا فيه أمل؟ في أي جديد؟ أديك شايف يا خالد حالنا عامل إزاي الناس ماشية بتكلم نفسها من الضغوط اللي مش راحمة حد كله ماشي بمنطق اخطف واجري-

خالد والدهشة تعتصره من الداخل:

- للدرجة دي بقيت سوداوي في رؤيتك للحياة؟! حرام عليك نفسك كل ده بسبب موقف؟!

مجدي يرمق صاحبه بنظرة حادة ثم ينفجر غضبًا:

- يا أخي هو ده موقف؟ ولا دي حاجه عابرة؟ هل بيحصل كتير أنه حد يضحي بعشرة عمر 23 سنة بيقاسمك فيها فرحتك ودمعتك وعيشك وملحك ونومتك وفرشتك يا أخي حتى الشاي والسجاير كنا بنتقاسم فيهم، وبعد كل ده يا خالد تقول لي حاجة عادية وموقف عابر، حرام عليك يا خالد والله.

ثم يرفع عينيه للسماء قبل أن يتمتم في حسرة: هو ده العدل؟!

ويكررفي مرارة: هوده العدل؟!

لم تمض إلا ثوان وبعدها انطلق مجدي بعد أن صافح خالد مودعًا، وما إن انطلق بسيارته حتى تناسى تمامًا ما يشغل تفكيره في تلك اللحظة، فثبت يديه على عجله القيادة وتناسى آلامه مع صوت الموسيقى الهادئة التي أخذته إلى عالم بعيد، وفي تلك اللحظة، لاحت لعينيه صورة ريهام ليلة خطبتها إليه وهي تتزين في أبهى صورة بفستان تايبست الفيروزي، وما كادت الأيام- رغم تباعدها- تنسيه أو تمحو من قلبه وعقله تلك السمراء مستطيلة الوجه ذات العينين الواسعتين العميقتين، وبشرتها البراقة، وأنفها المدبب، والتي رغم تواضع جمالها استطاعت- بطيبتها ورقتها وجاذبيتها- أن تأسر قلبه طوال فترة خطبتهما، التي كانت تعج بمشكلات لا حصر لها، ما كان يعلم لها سببًا حتى حدثت الفاجعة الكبرى والتي لم تكن فقط قد فرقت بينه وبين خطيبته، لكنها أحرقت في قلبه طعم السعادة، عاد مجدي إلى وعيه بعد قليل، بعد أن كان قد وصل إلى بيته، فغادر سيارته متوجها إلى شقته، بعد أن دار بعقله ما شهدته البلاد في تلك الفترة-

الفصل الثاني

عبير تترقب وصول مجدي والقلق يستبد بقلبها، وما إن رأته حتى صرخت في وجهه:

- مالك الأيام دي؟ فيه إيه في حياتك بتداريه ومش عايز تعرفه لأي حد؟ خصوصًا مراتك أم أولادك؟ أنا تفكيرى خلاص وقف-

ثم واصلت بعصبية:

- قربت أتجنن بجد من تصرفاتك وغموضك-

لم يجد أمامه مفرًا من مصارحة زوجته، بدأ يقص عليها ما أخفاه طوال سنوات مضت، فمًا كان من عبير إلا أن كظمت غيظها، لكنها ما لبثت أن قالت في هدوء:

- إنت عايز تهدم حياتنًا عشان مومس باعتك وخاين لعب بيك؟ حرام عليك لوحشره زي دي لسه في قلبك اتجوزتني ليه؟ ولسه بعد كل السنين دي فاكرها بعد غدرها بيك؟

وهنًا أطرق مجدي ينظر إلى الأرض وهو لا ينفوه بكلمة واحدة، ثم نهض ونظر إلى عينيها:

- سامحيني يا عبير إنتي اللي ضغطتي على جرح قديم كان خلاص مات من سنين، أنا حقيقي آسف على إني سمحت لنفسي أفتكر اللي عشته مع

غيرك وأنًا معاكي بالله عليكي تسامحيني، وأوعدك أنه مافيش حاجة في الدنيا تقدر تاخدني منك لحد ما أموت-

ثم استأذن زوجته في أن يخلو إلى نفسه قليلا وبدًا يسمع آيات من القرآن، مجدي ينفرد بنفسه في غرفة شبه مظلمة، يجتر في تلك اللحظة القاسية ذكريات الأيام البائدة التي جمعته بخطيبته السابقة، في أول عيد فطر يلتقيان فيه، حين أعلنت له قبلها بأيام إنها لن تحب سواه في الوجود، وقضيا معًا ليالي رمضان في مكالمات هاتفية لا تخلو من رائحة الحب وعطره وأحلام الفراش الوثير الذي تحلم به فتاة صار حلم حياتها الوحيد حضنًا دافئًا، حتى جاء يوم العيد وجمعهمًا المصعد الكهربائي، واحتضن مجدي ريهام وانهال على شفتيها تقبيلا وإذًا بها تبادله قبلات جائعة، وغاصت أصابع مجدي في أنحاء جسدها تجوب ذلك الجسد الجائع بأصابع مرتعشة باردة تبحث في صحراء جسدها عن ينبوع لذة يطفئ هجير الحرمان في سنوات عمر طالت حتى امتدت إلى عقود قضاها جائعًا يبحث عن الحب والسعادة بلا جدوى، فغمرت قبلاته الجائعة وجنتيها وجبينها ورقبتها وانزلق بفمه وشفتيه إلى أسفل حتى أصبح كطفل في حضن أمه في الشهور الأولى يكاد يغيب عن العالم، ملتصقًا بأمه التي تروي ظمأه حبًا وحنانًا، تلك اللحظة التي تصبب العرق فيها من جبين كليهما، لم تنته إلا في الطابق الرابع عندما حملها مجدي بين ذراعيه، وكاد يعتصر جسدها رغم أنهما كانا في كامل ثيابهما، تنهد مجدي بعمق وهو يلعن تلك اللحظة التي ما تركت في نفسه إلا لهيبًا زاده الحرمان والجوع توهجًا واشتعالًا في تلك الساعة ولم ينس حديث ريهام:

- إنت محروم أوي يا مجدي، لأنك مش شايف نفسك وإنت في حضني

كان إحساسك بيًا شكله إيه.

وكانت صورتها تتراقص في عينيه وهي تهمس إليه:

- أوعَ تتخلى عني!

ثم مضت دقائق صعبه غاب مجدي في تلك اللحظة عن الوجود بين أحضان ريهام حتى استطاعت ريهام- في صعوبة بالغة- أن تلتقط أنفاسها قبل أن تهمس في هدوء النشوة التي أخذتها إلى الهاوية حين تسللت يده إلى ثمار أنوثتها في ارتعاشة تنم عن الحذر والترقب وهي تقول في همس قبل أن يحيط خصرها بيديه ثم يحملها كأب يحمل طفله المدلل:

- كفاية يا مجدي.

وفي عينيها بريق ينم عن سعادة من ظفر بطعام شهي بعد جوع سنوات، لم ينسَ مجدي تلك الجونله الزرقاء وغطاء الرأس المزركش، ولم ينسَ جملتها في وداعه في تلك الليلة حين قالت له وابتسامتها تغمر الدنيا من حولها سرورًا:

- مافيش راجل بعدك هيملي عيني أنا مستعدة أروح معاك أستراليا مش الجيزة.

رنين الهاتف يوقظ مجدي من غفوته لصلاة الفجر، وإذ به يمسح وجهه بكلتا يديه ويقول بصوت هامس: استغفر الله العظيم لا إله إلا الله-

فجأة يحدث نفسه هامسًا دون أن تتحرك شفتاه: هنقابل ربنا إزاي بس بعد جبال الذنوب اللي إحنا شايلينها دي؟!

ثم اتجه إلى الصلاة، وعاد بعد دقائق ليقرأ آيات من القرآن كما اعتاد في الآونة الأخيرة وفي تلك اللحظة، كان قلبه يرتجف خوفًا من شيء مجهول لم

يدركه، إلا أنه نحى أحزانه وذكرياته جانبًا ليحيا كما ينبغي، وعندما غادر مجدي إلى عمله كان قد دار بعقله هاجس غريب، فكر فيه طويلا دون جدوى، لماذا اشترى أرضًا في قريته في الريف؟ رغم قسوة أبيه عليه في الصغر، حتى أنه طرده من بيته ذات ليلة في الشتاء القارس، وجعله يبيت ليلته في الشارع، إلى أن رق قلب أحد الجيران لحاله وأخذه إلى بيته وأكرمه كأنه أحد أبنائه حتى الصباح، ولماذا تحولت فتاة عشقها في سن متأخرة بعد أن مضى به قطار العمر إلى ما يشبه الكلأ المستباح، يرعى فيه كل صاحب ناقة وجمل، خطيبته الأولى ريهام لماذا سلمت له جسدها ليعبث به؟ سؤال حائر يبحث عن إجابة، ويتجه مجدي إلى عمله ولكن أعباء العمل التي زادت بعد ترقيته ووصوله إلى منصب مديرمدرسة، ما استطاعت تلك الأعباء- الملقاة على كاهله- أن تنسيه يومًا تقلبات الأيام، والتي اعتصرت فؤاده قبل زواجه من رفيقة حياته عندما تزوج عبير فتحي بهنسي، ابنة طبيب النساء، والذي أجرى جراحة- ذات يوم- لإحدى فتيات العائلة، وجاءت إليه ابنته بعد تلك الجراحة، وكان سبب زواجهمًا سؤال مجدي الوحيد لها:

- هي الجراحة خلصت ولا لسه يا آنسة؟

وبعد التعارف تصبح عبير زوجه وتجمعه بها أيام وليالٍ وسنوات، ولكنها بعد كل تلك السنوات لم تستطع أن تسبر أغوار نفس زوجٍها، وما يجيش به صدره من ذكريات ماضٍ أليم، لم يكن يعلم أدق تفاصيله سوى خالد سالم فرج، والدكتور فريد، صديقا الدراسة ورفيقا الصبا والشباب، لم تفرقهم الأيام إلا في فترة سابقة شهدت تحولات كبرى، وغيرت وجه الحياة في مصر بأكملها وليس فقط حياة شخص أو مجموعة، وقبل أن يغادر مجدي عمله تلتقي فرقة المرح بالمدرسة في حجرة المدرسين وفرقة المرح، تلك لم تكن إلا

معلم اللغة العربية وطارق الإخصائي الاجتماعي الذي ابتدع حوارًا كان يقصد به استفزاز مجدي ليكسر حدة الملل، والتي تنتاب المدرسين بصفة عامة في نهاية اليوم الدراسي، وفي لحظة خاطفة يقول طارق وملامحه الصارمة لم تتغير، كأنما يؤدي مشهدًا دراميًا على المسرح:

- تخيلوا النهارده هاعيش لوحدي ولمدة يومين؟

مصطفى: ليه ياعم كده؟ زعلان مع جماعتك ولا إيه؟

طارق: لا يا درش ربنا ما يجيب زعل يا عم.- سيبك إنت من كل ده مين هيعزمني النهارده؟ المدام مسافرة وأنا هاتشرد، عربيتي عطلانة ومش قادر أسافر عشان ظروف الامتحانات-

مجدي: أخوك تحت أمرك يا حبيبي.- ولا إيه رأيك؟

يقاطعه مصطفى فجأة:

- مشكلة طارق محلولة، أنا في اللغز اللي مش قادر يفارقني وهو إجابة السؤال ده؟ مين اللي ورطني في ملاحظة الإعدادية في مدرسه قريبة من الحدود؟

طارق في دعابة: مجدي إنت كده هتودينا ورا الشمس؟

ثم ضحك بقوة وهو يسأله: خلينا بس الأول نشوف هناكل ايه النهارده يا معلم، الأكل الأسكندراني هيوحشني النهارده-

مد مجدي يده إليه وتعانقت الأيدي وانطلق كل معلم إلى حياته قبل أن يسأل مجدي:

- هتروح ورا الشمس ليه؟ خايف تتدبس في عزومه وتكسل تردها يعني؟ مسامحك يا سيدي.

وكان مجدي في عيون الزملاء كغيره من أبناء الريف مهاجرًا، فرارًا من شيء ما، رغم أنه يمتلك سيارة ويبدو ميسور الحال، إلا أن بداخل نفسه حفرة عميقة مؤلمة، لم يكن يعلمها إلا الله ثم صديقاه المخلصان رفيقًا الدراسة والحياة، ولم ينس أحدهما حتى الآن ما تركته آثار تجربته الأولى على حياته من بصمات، لن تمحوها الأيام ولا السنين مهما طالت، حين جمعته تلك الحشود البشرية المتلاصقة في أحد الميادين الكبرى في مصر بفتى صغير أرشده إلى عالم فيس بوك، وفي تلك اللحظة مجدي يفاجأ بما يعيده إلى الشارع فورًا، وهو في واد سحيق يسبح فيه متصارعًا مع ذكريات مريرة، الزحام الخانق يحول دون مرور السيارات والحركة تسير في بطء قاتل، أخيرًا نزع رباط العنق متأففًا، ونظر حوله يبحث عن سجائره ليشعل سيجاره وينفث دخانها فيتصاعد غضبه مع دخان سيجارته المتصاعد في حلقات فضية ثم يدور بعينيه يمينًا ويسارًا ويبتسم في هدوء محدثًا نفسه: أخيرًا؟ ملهاش حل غيرك دلوقتي جريدة الأهرام العدد الأسبوعي بعد مرور أيام على صدوره، مجدي يتصفح الجريدة يبحث عن مقالات كبار الكتاب، وبعدها يتجول بلا اكتراث بين صفحات الجريدة يلتفت إلى عنوان في صفحة الحوادث: "مقتل سيده في منتصف الثلاثينات بعد أقل من عام على زواجها.- شبح الخيانة الزوجية وراء الحادث"، مجدي يلقي بالجريدة خارج السيارة في عصبيه ثم يقول في غضب عارم وبصوت مسموع:

- كلكم ولاد ستين كلب إلا من رحم ربي-

فجأه الطريق يتحرك، يده تمتد إلى عجلة القيادة وقدمه تضغط دواسة البنزين، وينطلق مسرعًا دقائق على الطريق قبل أن يفاجئه رنين الهاتف:

- مجدي .- إنت فين؟ قلقتني عليك.- إنت مش جاي عالعشا ولا؟

وقبل أن تكمل عبارتها يفاجئ مجدي زوجته:

- أنا راجع البلد دلوقتي، معلش طمنيني عالولاد بالتليفون، سلام عشان سايق-

زوجته في عصبية:

أعمل أنا إيه في تصرفاتك المفاجئة دي؟ أنا تعبت-

مجدي في هدوء:

- عبير أنا آسف رايح ازور قبر أمي وأبويا.- معلش محتاج الزيارة دي-

أنهي مكالمته وانطلق متجاوزًا حدود السرعة كأنما يريد أن يتخلص من حياته، وعيناه تنظران إلى أطياف تتراقص أمامه تكاد تحجب عنه رؤية الطريق، إلا أنه يتذكر زوجته، لم تكن عبير في حياته- رغم إخلاصه لبيته- أكثر من زوجه فرضتها الأقدار وطبيعة الحياة، أما القلب فقد كان في عالم آخر، لم يكن يتخيل لحظة أن تهدم الأقدار قصرًا بناه عاشقان لتبقى أنقاضه فوق رأس مجدي ربما إلى الأبد، ورغم كل هذا كان مجدي يحاول جاهدًا أن يكون عادلا مع زوجته، ولكن هيهات له أن يفعل هذا وفي قلبه خنجر مغروس منذ سنوات، كان مجدي يرى نفسه وحيدًا رغم أنه محاط بعائلة وزوجة وزملاء وأصدقاء، إلا أنه كان يعلم أن سر عذاب ذلك القلب الذي يئن بين ضلوعه، أنه عرف معنى الوفاء وأخلص لمن لا تستحق، لقد تركته المرأه التي توغلت في عروقه ومست سويداء القلب، يحترق بالحرمان منها حتى صار رمادًا تذروه الرياح في يوم عاصف، ولم يبق من هذا القلب سوى جدران سوداء لا يسمع فيها من الصوت إلا صدى، مجدي يرتشف عصيرًا مثلجًا على الطريق ويتذكر، فؤاد محمد راضي، ابن خالته، وأول الرفاق في أصعب أيام حياته، ثم يبتسم ويتنهد في عمق: آاااه فين أيامك يا فؤاد؟

ثم يهز رأسه في أسى وهو يقول محدثًا نفسه وابتسامة مريرة ترتسم على وجهه: الله يرحم أيام الطيلمانة والوضع في الصومال، ثم يسترخي في مقعد السياره ويهدئ من سرعتها ويستخرج أوراقًا خاصة بالسيارة حين اقترب من إحدى النقاط المرورية على الطريق، وفي عجالة يقدم الأوراق لأحد رجال الشرطة، ثم ينطلق في هدوء، ولم يكن يشغله سوى ذكرى يوم 31 يناير والسيارة فيات 128 الحمراء، سيارة فؤاد القديمة حين استقل مجدي وفؤاد وثالثهما الصديق القديم مدحت حمدي صادق، تذكر مجدي تلك الرحلة التي أمضوا فيها ساعات طوال، حين قرر مجدي أن يتقدم لخطبة ريهام بعد أول لقاء يجمعه بها دون أن يعطي نفسه الفرصة ليتدبر الأمر، ويتذكر مجدي كيف كان فؤاد يعاني من القيادة رغم توجعه من الألم بسبب الانزلاق الغضروفي الذي لم يكن قد شفي منه تمامًا، وجبينه المتصبب عرقًا، ورأسه الذي يعكس ضوء الشمس، والوجه المستدير الممتلئ، وكان فؤاد من أصحاب الخلق الطيب، إلا أنه كان ذا فكر مختلف بعض الشيء، خصوصًا عند مواجهة أمرًا يرتبط بأخلاقيات أهل الصعيد وأبناء الريف، لأنه كان يعترض على منهج الريفيين في التفكير عمومًا، إلا أنه في ذلك اليوم كان سببًا في حالة من المرح والفكاهة خففت على الرفاق متاعب السفر، وكلما نظر إلى مجدي قال ساخرًا:

- هي البنات خلصت لما رايح إسكندريه تتجوز؟! أنا مش عارف إنت جايب دماغك دي منين؟

مدحت: أنا مش عارف إذا كانت الدماغ دي إستيراد ولا مصري؟

وتتعالي أصوات الضحك في جو من المرح والفكاهة، الكل يشارك مجدي فرحته في يوم خطبته لفتاة احتوت قلبه دون جهد منها، وظل

الأصدقاء معًا يمرحون ويتندرون حتى على قائدي السيارات، خصوصًا ذلك الرجل الذي كان يلتهم حزمة من الخس كأنما لم ير الطعام منذ جاء إلى الدنيا، وتبادل مدحت ومجدي حوارًا حول ذكرياتهما وذكريات المرحلة الثانوية، و"جتا (هـ) تسااااوي"، ثم تتعالى ضحكاتهم مجلجلة وفؤاد مندهش ولا يفقه شيء مما يدور، إلا أنه سعيد فقط لما يرى من الفرحة التي تتراقص في عيون مجدي، ولما يشعر به مما يرى في عينيه من سعادة يرقص القلب لها وتكاد الروح بها أن تطلق زغرودة تعلن للدنيا أن مجدي الذي ظلمته الأيام كثيرًا وقست عليه دهرًا طويلا، لن يشقى بعد اليوم، وسيقضي أجمل الأيام مع من اختارها القلب، ريهام.

نظر مجدي إلى مدحت بصمت، وعينين تشعان بالفرحة، كأنه يُعبر لمدحت في- صمت- عن شكره وامتنانه لما يبذله لإسعاده، بعد أن استعان به عوضًا عن شقيق اختطفه الموت في ريعان الشباب، لم يكن مجدي ينظر إلى مدحت كزميل أو صديق دراسة جمعتهما ظروف التقارب المكاني والزماني فحسب، ولكن كان يراه أكثر من ذلك، فقد نشأ كلاهما معًا متشابهان في نفس الظروف المادية والاجتماعية تقريبًا وعاشا معًا أيامًا وليالي وشهورًا وسنوات، بكل ما كان فيها من الإعدادي إلى الثانوي إلى الجامعة، وما بعدها، ربما كانت الحياة أكثر عنفًا على مدحت بعد انفصال أبيه عن أمه في سن مبكرة من حياة مدحت بسبب حدة طباع الأم، وعانى ذلك الفتى الذي نشأ في بيئة متهالكة، فاضطر إلى العمل في مرحلة الصبا، ثم عمل في مرحلة الدراسة الجامعية مع أحد المقاولين ثم مساعدًا لأحد الحرفيين في مجال البناء أيضًا، عندما استقر به المقام في شارع ناهيا بمنطقة بولاق الدكتور بعض الوقت وقبل أن ينتقل إلى شارع الملك فيصل بحي الهرم بالجيزة وبعدها

قضى الفتى فترة من الضياع الناتج عن التفكك الأسرى الذي نشأ فيه، فأدمن بعض المواد المخدرة، وعندما أنهى الدراسة الجامعية سافر إلى بلد عربي، وكان على تواصل مع مجدي في ذلك الوقت، ثم عاد بعد سنوات حين خابت مساعيه في أن يحقق ما يصبو إليه من كسب مادي، ولم يفترق الصديقان حتى ولو بالتواصل الهاتفي، وكان مجدي يتجاوز عن إساءات والدة مدحت إليه احترامًا لما بينهما، فكان أقرب الأصدقاء إليه بعد أن انشغل فريد بأسرته وزوجته وأولاده ومشروعاته في القطاع الطبيأ وسافر خالد إلى القاهرةأ وأقام بهاأ وأخذته الحياة وباعدت بينه وبين مجديأ فلم يبق له سوى مدحت الذي تعثرت خطاه كثيرًا حين بدأ يبحث عن العمل والزواج، حتى أنه رفض العمل بالتدريس حتى يتفادى الإقامة مع الأم التي لم تكن تهب إبنها الأكبر أي قدر من الاستقلال، بل وكانت تسيء إليه أمام الجميع كما كان يفعل والد مجدي معه قبل وفاته، ولا ينسى مجدي- ذات يوم- أن مدحت كان على خلاف حاد مع أمه بصورة شبه يومية، وعندما كانت تضيق الدنيا بمدحت لم يكن يحتويه في تلك الظروف العصيبة سوى صديقه الوحيد في ذلك الوقت مجدي، ولم يغب عن فكر مجدي ذلك اليوم الأسود التي بكت فيه تلميذة كان مدحت يشرح لها أحد الدروس تأثرًا بما شاهدت معلمها فيه من مأساة عندما نهرته الأم وتجاوزت معه حدود التعامل اللائق مع شاب قد تجاوز الثلاثين من عمره في ذلك الوقت، وقد كان مجدي يواجه واقعًا أشد ضراوة حين ضيَّق عليه الأب الخناق فلم يهبه الفرصه حتى ليحلم، وكان الصديقان يلتقيان ليخفف بعضهما عن الآخر ما قست به الأيام من غلظة وجفاف على قلب وعقل كل منهما معًا، يجمعهما فراش واحد وطعام واحد ووسادة واحدة، حتى إنهما كانا يتقاسمان كوبًا من الشاي أو سيجارة واحدة في تلك القرية البعيدة من ريف الجيزة، وبقيا هكذا تأخذهما الدنيا وتغدو

بهما وتروح، لا يفترقان أبدًا، حتى فرقتهما إمراة، كان الصديقان- مدحت ومجدي- قد صارا روحين في جسد واحد، ثم جاء دور الشيطان ليكون لكليهما رفيقًا، فلم يجمعهما بعد ذلك طريق، تحالف الشيطان مع امرأة لم يكن أحدهما يتخيل أن تكون سببًا في ما حدث، لكنها إرادة الله أن ينكشف ما أخفت القلوب التي عمَت، فجأة سيارة فؤاد تتعطل على الطريق الزراعي، وفؤاد يغادر السيارة مذعورًا، مجدي ومدحت بالسيارة وفؤاد يبحث عن ورشة صيانة سيارات حتى يتمكن من إصلاح العطل الذي أصاب سيارته، ليزيد الأمر صعوبة، فقال مجدي متأففًا في غيظ:

- مدحت.- هل فيه بنت تستحق مشوار زي ده لمجرد إنها عروسة مناسبة؟!

مدحت وهو شارد الذهن وكأنما استيقظ عقله فجأة:

نعم؟ بتقول إيه يا مجدي أنا لو مكانك أروح عشانها ليبيا.

فيضحك مجدي في براءة معهودة:

- الله يطمنك-

مدحت: فؤاد بيلطم دلوقتي أكيد كان لازم ياخد طريق زراعي في يوم زي ده؟ وعربيته كمان تعبانه وعندها برد.

ثم يضحك الصديقان ويتصافحان في الهواء فيكمل مدحت أحاديث السخرية الممتدة:

- عربية فؤاد مش عايزه ميكانيكي دي عايزة حد يشممها بصلة.

وهنًا يغيب مجدي في ضحكة طويلة دمعت بعدها عيناه فيقول كما اعتاد المصريون: اللهم اجعله خير يارب.

وبعد كفاح تتحرك السياره وفؤاد ينظر في دهشة إلى مجدي ومدحت الغارقين في نوبة ضحك هستيرية متواصلة، ويتجاهل فؤاد ما يدور حوله، ويدير المحرك ليتوجه إلى بيت ريهام عروس العمر في يوم اعتبره فؤاد يساوي حقًا تعب العمر كله، ويغيب مجدي بالذاكرة قليلا في عالمه الخاص، بينما يغلق مدحت درج المعالق، ينام قليلا من الوقت كما كان يردد دائمًا حيث كان يعشق النوم كلما أصابه الملل أو تسرب اليأس إلى نفسه، وينظر فؤاد إلى الصمت المخيم على السياره ثم يحوقل وبعدها يتمتم قائلا:

- الله يسامحك يا ابن خالتي، ويستطرد قائلا، كله يهون عشان خالتي الله يرحمها وينظر إلى مجدي فيراه شاردًا ثم يتحول ببصره إلى مدحت فيراه نائمًا وإذًا به يضرب كفًا بكف ويهمس محدثًا نفسه: والله إنتو الاتنين في الطيلمانة-

يعود مجدي بالذاكره إلى الماضي قليلا فلم يكن يتذكر تمامًا متى بدأت علاقته بريهام، لكنه يذكر أول تعليق لها على منشور خاص به على فيس بوك، سبب لقائهما الأول حين استأذن الرفاق بعد حديث طويل معللا ذلك بأنه سوف يذهب ليتناول عشاءه وإذ به يفاجأ بريهام تطرح عليه سؤالا:

- هتتعشي ايه؟

في عجالة وبلا تفكير:

- زي كل يوم.- شيبسي أو بسبوسة.

ثم انطلق مودعًا الأصدقاء، وما هي إلا أيام، وفي ليلة باردة يلقي مجدي سلامًا على صفحة ريهام الخاصة، ويحسم لقاءه بها على فيس بوك، مصير الأمر قبل أن تحسمه الأقدار حين تطور الحديث بينهما ليسأل مجدي ريهام سؤالا فيكون الرد سؤالًا مماثلا حين قال مجدي: إنتي خريجة سنة كام؟

فترد ريهام:

- أنا من إسكندرية يا ترى لسه عايز تعرف أنا خريجة سنة كام؟

ثم تكرر بإصرار: يا ترى لسه عايز تعرف أنا خريجة سنة كام بعد ما عرفت إني من إسكندرية؟

مجدي في حماس: طبعًا عايز أعرف إنتي بتخوفيني بكلامك عن مكانك ولا إيه؟ وهنا يتطور الأمر إلى مكالمات هاتفيه وتتوطد علاقة مجدي بريهام إلى حد بعيد، ويقرر مجدي أن يلتقي بريهام ويجمعهما لقاء خاص في التاسع عشر من يناير، بعد أن تأكد مجدي من أن ريهام لن تتخلى عنه إذا ما ضحى من أجلها واختارها زوجة وها هو يضحي ويحتمل ما لا يحتمله بشر، مجدي الآن على مشارف قريته الصغيرة الواقعة عند غرب الجيزة يجرى اتصالات هاتفية بأبناء عمومته وبأصدقائه من القرية كما اعتاد في كل زيارة، لكنه يتجه على الفور إلى المقابر، ويزور قبر أمه وأبيه، ويقف صامتًا لا يفكر في شيء من أمر الدنيا على الإطلاق، ولا يسال عن شيء إلا المغفرة والرحمة لأب كان عليه قاسيًا إلى الحد الذي جعله يهجر بلدته وأهله، لكن الأب الآن أصبح بين يدي خالقه، لا يذكر الابن له إلا الخير، ولا ينبغي له إلا طلب المغفرة والترحم عليه وقضى مجدي ليلته وقد حسم أمره أن يبني بيتًا بالقرية التي كان لا يريد حتى أن تخطر له- ذات يوم- بخاطر، قرار مفاجئ ولم يكن له مبرر واضح إلا أن مجدي فاجأ به الجميع، والأكثر غرابة وإثارة للدهشة إصراره على بيع نصيبه من الأرض الزراعية التي تركها أبيه رغم ما قوبلت به رغبته تلك من هجوم عنيف إلا أنه كان عنيفًا على غير العادة وعندما قال له زوج الأخت الكبرى:

- مجدي حبيبي طول عمرى باعتبرك أخويا الصغير وعندي لك سؤال.- إنت ليه مستكتر نفسك علينا؟ إحنا قصرنا معاك في شيء؟

مجدي في حزم: ضيعتم حياتي بتعاملكم معايا وكأني طفل قاصر

- حرام عليكم ربنا ينتقم من الظالم-

وهنا فقط انتهى اللقاء بعد أن خسر مجدي من كان يسانده في كثير من المواقف الصعبة في حياته، لكنه الآن يحسم أمره بعد أن أصبحت حياته مجرد روتين يشبه إلى حد بعيد، مسرحية هزلية ركيكة الأداء، ولكنه استطاع أخيرًا إقناع الدنيا بأسرها والمتمثلة في عينيه في من تبقى من الأهل، أنه لا حياة له في أرض المنشأ إلى الأبد، وما هي إلا ساعات حتى غادر القرية عائدًا إلى العاصمة، حيث زوجته وطفليه، فلم يكن في العادة يحب المبيت في القرية بشكل عام، وعندما تحرك بسيارته أطلق لخياله العنان، فعاد إلى مرحلة التعارف الأولى مع ريهام،علامة الاستفهام الكبرى في حياته، لم يكن قد استطاع أن ينسى رغم كل تلك السنوات أول حوار مع ريهام وخصوصًا عندما طلب منها التعرف على اسمها وقبل أن تنطق به سألها فجأة: هل اسمك يبدأ بحرف الألف؟

فردت بكلمات مكتوبة: لا إتطمن أنا اسمي ريهام، وليا أخت واحدة أصغر مني ومتجوزة وعندها طفلين، وجوزها شغال محاسب في الحكومة، وليا أخ كمان بيشتغل في إدارة محلات تجارية مشهورة جدًا عندنا في إسكندرية-

وبعد فترة يتواصل مجدي وريهام من خلال الهاتف، وكانت انطباعات ريهام الأولى عن مجدي قد جذبتها إليه، لأنه كان في مخيلتها ريفي، جريء، بسيط، طيب القلب، ويتسم بالوضوح المفرط، وها هو يمنح قلبه الفرصة ليتنسم عبير الحرية، وليحيا بالأمل الذي غاب سنوات حتى بدأ يلتمس عبق

الحب ويخفق القلب من جديد ليحيا في ظلال الحب حالمًا بالبحث عن ارتواء من ظمأ طال أمده سنوات، لكنه لم يدرك وقتها أنه تعلق بالمجهول الذي تخيّله بعد قسوة الدنيا عليه حبا، جاء لتخضر به صحراء أيامه ويلتقط معه أنفاسه مستظلا به من متاعب الحياة، ولكن أول صدمة تلقاها كانت صدمة مكان عمل وإقامة ريهام، والتي ما إن وقعت عيناه عليها حتى تسمر طويلا في مكانه، وظل يحملق فيها، ثم اتخذ من فوره قرارًا جاء وبالا عليه فيما بعد، ولم يكن يدرك عواقب أو مغبة ذلك الفعل، وذلك عندما قرر أن يعرض على صديقه مدحت أن يرتبط بريهام لكنه يفاجأ بالرد الصادم الذي يجعله يشعر بخيبة الأمل حين قال مدحت:

- يا مجدي حرام عليك دي بنت ظروفها صعبة، وشكلها منتهي الصلاحية، وكمان هنسافر لها إسكندرية ليه يا عم؟ البنات خلصت؟! وبعدين سنها معدي جامد وأنا ظروف شغلي مش مستقرة، والسكن زي ما إنت شايف غير آدمي بالمرة، يبقي ازاي بس؟

وهنا شعر مجدي أن أيامه بدأت تسومه سوء العذاب وتضعه في محنة حقيقية، فجأة نقطة تفتيش على الطريق السريع ومجدي يعود إلى واقعه:

- رخص با بيه!

جندي يستوقف السيارة ومجدي بعد دقائق يستكمل المسيرة إلى الجيزة، ولم يكن يتذكر سوى موقف واحد عالق بفكره حتى الآن، حين كان يجرى اتصالا هاتفيًا مع ريهام قبل لقائه الأول بها، تذكر أنه رشح لها صديق عمره مدحت حمدي، ولكنها ردت بعنف مستنكرة ما يقول، وجف صوتها ونضب المرح من نبراتها ،وهي تقول:

- إنت شايفني بيعة ولا شروة؟ هو أنا رخيصة أوي في عينك كده؟

مجدي في هدوء وهو يحاول الاعتذار برفق:

- لا والله يا ريهام أنا شايفك ست البنات.

وقد اتضح له فيما بعد ما جعله يلعن نفسه حتى الآن، إذ أنها لم تكن تساوي بعد كل ما حدث أكثر من حفنة من تراب، وبعد أن مضت الأيام وتوالت السنين لم يتبق لمجدي من آثار تلك المرحلة إلا تجاعيد تملأ وجهه الأسمر، وسلوكيات مضطربة لم يظهر منها لكل من يتعامل مع مجدي عن قرب إلا الشراهة في تدخين السجائر،

كان مجدي فتى شديد السمرة، قصير القامة، مجعد الشعر، ضخم الأنف، خاليا من السمات المظهرية لشاب نشأ في ريف مصر، كان من أولئك الصبية الذين تربوا بين الحقل والمنزل، فلم يعتد العمل صغيرًا، ولم يتواصل مع الناس أو يخالطهم بصورة طبيعية، تربى على حب العزلة والبعد عن الناس رغم أنه كان يتسم بالهدوء، إلا أنه كان عنيفًا من الداخل، وكان من أولئك الصابرين على أذى الأيام التي ألقت على كاهله عبئًا ثقيلا بعد وفاة أخيه وأبيه وأمه، وبعد وفاة الأب غادر قريته وترك بيته مرتعًا وملاذًا للقطط والأشباح، ثم لعبت الأقدار لعبتها مع مجدي، فتعذر أمر الزواج لفترة طويلة ربما لأسباب قدرية قبل لقائه مع ريهام التي لقنته درسًا في فن التعامل مع الحياة ربما يبقى في عقله وقلبه للأبد-

قرر مجدي أن يزور بيت خالته- بصورة مفاجئة- فإنحرف بسيارته يسارًا واستمر في طريقه حتى وصل في ساعة متأخرة من الليل، وعندما غادر السيارة ودخل إلى بيت خالته فجأة ينقطع التيار الكهربائي، مجدي يصيح في مرح:

- كده شيكوزال عالآخر، ليلتنا مالهاش ملامح يا رجالة.

ثم ينظر إلى كفيه ويقول في مرح:

- أنا مش شايف صوابعي.

لحظات وتضيء فتاة صغيرة عدة شموع وهي تقول:

- إهدي يا عمو إحنا هنا متعودين على كده بيعملها كتير معانا يعني.

ويكتفي مجدي بالتواصل مع العالم من هاتفه الخاص، ويقضي ليلته حتى الصباح، ويبدأ يومه باتصال بزوجته، ويلتقي بأبناء العمومة وبعض أقاربه ليحسم أمرًا ظل يؤرقه سنوات، ويقض عليه مضجعه حتى في ساعات نومه، لقد أخبر الجميع- بشكل مفاجئ- أنه سوف يبيع كل ما لديه لإقامة مشروع تجاري أو محطة لتموين السيارات بالوقود، وأنه يخطط لأن تكون الخطوة القادمة في حياته الترشح لعضوية البرلمان عن دائرة حي الهرم بالجيزة، وفي مقابلة الضجيج الذي أثاره قرار مجدي بالتخلي عن جذوره نهائيًا يتشبث مجدي برأيه بصورة لا رجعة فيها، ولم تمض ثوان ويفاجئ إبن العمة الجميع برفضه وجهة نظر مجدي، فيقاطعه مجدي في صرامة لم يشهدها عليه أحد من قبل:

- حاج رفعت لوسمحت.- إنت ابن عمتي الكبير وفي مكانه أخويا وماقدرشي أنكر ده، إنما تعارضني في قرار مصيرى زي ده، ياريت تحتفظ برأيك لنفسك، لأن مافيش حاجه اسمها خليك مع أهلك، ما فيش حد ودانا في ستين داهية غير حكاية الأهل دي.

قال جملته الأخيرة وهو يرمي إلى تحويل مسار الحديث إلى اتجاه آخر، وكان يقصد تردي الأحوال عمومًا على مستوى الدولة بسبب الصراعات الداخلية التي شهدتها مصر في تلك الفترة، وأشار في الحديث إلى ما عانت البلاد من مصائب في تلك الفترة، لكنه أراد من حديثه أن يقول أنا مش

هاعيش لا بفكر حد ولا برأي وقرار من حد، لأن مافيش حد هيتحاسب عني قدام ربنا، ولم يكن قد نسى الجرح الذي لم يندمل بعد، حين سيطرعلى أهله الخوف عليه من المجهول، فحالت الدنيا بينه وبين من أحبها إلى حد الجنون، وفجأة تتدخل ابنة عمة مجدي في الحديث:

- يا مجدي إسمع الكلام وفكر فيه

مجدي في صرامة:

- يا حاجة صفية ده قراري الأخير ولن أتراجع فيه أبدًا-

طلب مجدي طعامًا لأنه كان قد قرر العودة للقاهرة ليلا، ولم يكن مجدي يعلم بوصول فريد إلى القرية، فقرر تأجيل السفر إلى الصباح ليتسنى له لقاء فريد، وفي صباح اليوم التالي- وبعد الإفطار- فوجئ مجدي باتصال هاتفي من رقم جديد، رد في عجالة وقد ساوره القلق، فقال في عصبية:

- ألو مين؟

فريد: إيه يا عم مجدي أنا فريد حامد مهدي، ثم يستطرد في مرح: إنت بقى مين؟

ويتبادل الصديقان الضحك ويتفقان على موعد بلقاء، وفجأة فريد كعادته في سخريته المعتادة:

- مجدي قابلني بعد العصر عند الجامع القبلي.

ضحك مجدي بقوة وهو يقول: يااه إنت لسة فاكرُه يا عم؟ ده زمانه بقي تابع لهيئة الآثار دلوقتي.

ولم يستمر الحديث طويلا، فانطلق مجدي إلى بيت أخته الصغرى فريدة، وقضى هناك وقتًا ليس بالقصير، كان يداعب الأطفال ويمرح معهم، حتى

أنه استلقى على الأرض وظل يضحك ويمرح في صحبة الأطفال لساعات متواصلة، ولا أحد يعلم لماذا يفعل هذا، وعندما حان وقت لقائهم قرر فريد أن تجمعهما نزهة خلوية إلى حقل قريب كعادتهم في أيام الدراسة بالثانوية العامة، يحاول مجدي- بقوة- تجاوز الماضي كله فينظر إلى فريد وفي عينيه ابتسامة ذات مغزى:

- أخبار شغلك إيه؟ بنتك أخبارها إيه؟

يهرب بعينيه من فريد:

- تصدق البنت دي وحشتني؟

فريد: مين فيهم؟

مجدي: أكيد رنا طبعًا إنت عارف إني مش بتعامل مع هبة من أصله، لكن رنا دي ربنا يخليها ليك تحس إنها ورايا في كل حتة ثم يبتسم في مرارة وهو ينظر إلى الأرض-

فريد يدرك ما يدور بعقل صديقه لكنه لا يريد أن ينكأ جراح الماضي، مجدي يأبى أن يطوي صفحة الماضي فيقول فجأة:

- فاكر زمان لما جينا هنا في أيام الثانوية وكان معانا مدحت حمدي وإيهاب مراد وف اليوم ده فكرنا نصلي المغرب وإنت رفضت تكون إمام في الصلاة وأنا اللي صليت بيكم؟

فريد في دهشة: لسة فاكر يا مجدي؟ ثم يتنهد في مرارة قائلا: فاكر والله.

وفجأه مجدي يسأله: أخباره إيه الواد ده دلوقتي؟

فريد: مين فيهم ؟

مجدي ساخرًا: مين فيهم؟ أنا عارف إن إيهاب مسافر السعودية، أنا باتكلم عن ...

ثم صمت قليلا وهو يتنهد في مرارة: أقصد الـ...؟ البني آدم التاني، وفجأة غضب عارم يغشى وجه فريد ثم يضغط على أسنانه: أرجوك يا أخي عشان خاطر ربنا إنسى بقى وعيش حياتك وبص لمصلحتك-

مجدي وعيناه تلمع بغضب: ياراااجل أنسى بني ادم كسرني قدام نفسي؟! ثم يقول في إصرار: فريد أرجوك قل لي هو في أي مصيبه دلوقتي؟

فريد في استسلام واضح : يا أخي والله العظيم- ثم يصمت قليلا ويقول في غضب شديد: طيب عليَّ الطلاق ودي أول مره في عمرى أحلف فيها بالطلاق إني ما أعرف عنه حاجة من ساعة الموقف الزبالة ده، أنا بس نفسي أفهم إنت كل فتره تفكر نفسك بالأيام السودا والناس الرمم دي ليه؟

مجدي وهو ينفث عن غضبه بإشعال سيجارة:

- لأنه عمل معايا اللي لا شفته ولا سمعت عنه، تخيل كان بيسجل مكالماتي لما أفضفض معاه أيام خطوبتي لريهام مراته دي؟ ولما كنت أقول له إن طريقتها معايا في التعامل مش مريحة، لأنها بتحب تفرض شخصيتها ورأيها عليَّ، كان يروح يبلغ أهلها الكلام ده عشان تكرهني، بعد ما كانت بتقول حتى له هو شخصيا أنا مستعدة أعيش خدامة تراب رجليه؟ هو فيه حد كده؟

وهنا صمت فريد قليلا ونظر إلى الأرض وقال في حزم:

- أيوة يا مجدي بس الدنيا كلها مش مدحت وريهام، حرام عليك نفسك، عندك زوجة وأولاد ومستقبل أولى باهتمامك، مش معقول تعيش عمرك كله عشان مجرد ذكرى وقحة لناس...- ثم بتر حديثه فجأة وهو يبتسم في صعوبة

محاولا الهروب من تلك المنطقة السوداء في حياة صاحبه قبل أن يسال في مرح: قل لي بقى يا برنس الليالي يا رمانة الميزان اللي رماك عالبلد دي النهارده؟

- يعني.- قلت أنزل أغير جو مش أكتر، العيال تعبوني أوي يا أخي-

فريد يبتسم: ياسيدي كل الأطفال كده في السن ده، وأكتر، ربنا يبارك لك فيهم، لكن برضه أنا لسه مش عارف إنت جيت ليه البلد؟

مجدي بصورة مفاجئة: جيت أصفي ميراثي وكل اللي ليا هنا وآخد القرشين أعمل بيهم مشروع يأمن مستقبلنا في البلد دي، وآديك شايف أنا بافكر في كام حاجه كده..

فيقاطعه فريد: ناوي على إيه بالظبط يا فنان؟

مجدي مندهشًا: فنان؟ ده كان أيام الجامعة لما كنا لسة مراهقين بقى، نكتب أدب وروايات وقصص، لكن دلوقتي خلاص بقى البيت والمسئولية وآديك شايف-

فريد: أيوة بس برضه لسه أنا ماعرفتش إنت ناوي على إيه-

- أنا بافكر في محل ملابس أو سوبر ماركت أو بنزينة، وآهو تبقى حاجه للزمن يعني- مجدي ينظر إلى نفسه من أسفل إلى أعلى في جلبابه الأبيض: رغم كل الصراعات اللي عشناها والأيام اللي بهدلتنا وغربتنا ماحدش فينا قدر ينسى أصله، لأن الدنيا دي أصلها مواقف ثابته ومبادئ مش الناس ولاد الكلب اللي بيبعوا أصلهم ومبادئهم وضميرهم عشان شوية فلوس-

فريد: بص بقى خلينا في اللي جاي-

مجدي: وأنا معاك-

فريد في مرح: هنا؟ ولا فين يعني؟

مجدي: في أي حتة يا عم الحج-

فريد يعود إلى الصرامة فجأة: بفكر في مركز طبي هنا في البلد

مجدي وقد اتسعت عيناه دهشة: أي بلد؟

فريد: قريتنا يا ابني البلد دي نفسها، وعلى الأقل خالص نوفر على الناس السفر للمدينة عشان يتعالجوًا خصوصًا في حالات الطوارئ.

ورحب مجدي بالفكرة، إلا أنه أبدى تحفظًا واحدًا عندما سأل فريد:

- إزاي نقد ر ندير مشروع في الأرياف هنا وأنًا مقيم في الهرم ؟

- يعني هل كل رجال الأعمال أصحاب المشروعات اللي في شرم الشيخ والأقصر والساحل الشمالي مثلا مقيمين هناك؟ فيه ايه يا مجدي؟

نجح فريد- خلال الحوار- أن يستقطب فكر مجدي ويعزله عما يشغل ذهنه خلال زيارته للقرية، اذ كان يعلم أن للفراغ تأثيرًا بالغًا على الحالة النفسية له، حيث لا يجد أمامه مفرًا من العودة بفكره إلى الماضي، ثم تجاذب الصديقان أطراف الحديث حتى حانت صلاة العصر، وارتفع الآذان، وبعد الصلاة غادر مجدي القرية، بعد أن وعد فريد بالتفكير في ما انتهى إليه حديثهما، وانطلق مجدي بسيارته بعد دقائق لا يشغله سوى زوجته وأولاده، لكنه- وبصورة تلقائية كعادته في تلك الفترة من عمره- يعود إلى أيامه التي انقضت، وفيها صورة أبيه الذي حال بينه وبين الزواج من ابنة الجيران طالبة الثانوي في ذلك الوقت، ووقف الأب بالمرصاد لتلك الزيجة، لاعتراضه على والدة الفتاة، حيث كانت إمرأة لعوبًا، ورفض والد مجدي زواجه من هذه الفتاة، مجدي يثبت عينيه على زجاج السيارة، لا يتذكر الآن شيئًا، أخيرًا

يشفى من آلام الماضي وتباريحه إلا قليلا، مجدي ينقر بأصابعه على عجلة القيادة يترنم بلا صوت بأغنية قديمه تسيطر على عقله منذ الصباح: "حبك عامل سيطرة على قلبي وعلي إحساسي" زحام شديد على الطريق، مجدي يحدث نفسه: أستر يارب حادثة ولا إيه؟ يهدئ من سرعته قليلا، إنها سيارة إنحرفت عن مسارها، وسقطت حمولتها، ثم ينظر خلفه وهو يهز رأسه في أسى، وقبل أن تعود سيارته إلى سرعتها، يباغته مشهد لم يره منذ فتره طويلة، كلب على يمين الطريق ينهش جثة حيوانٍ متعفنة، رائحة كريهة تملأ المكان، شعور بالغثيان ينتاب مجدي، يخرج منديلاً ويضعه على فمه وينظر إلى الكلب من مرآة السيارة، وهو يتنفس في صعوبة ثم يعاود المسير، بعد أن يتردد في أعماقه صوت يقول مش أول مره ولا هتكون الأخيرة-

الفصل الثالث

لقطة قدرية غير مرتبة ولم يتم إعدادها، لكنها أثرت في نفس مجدي كثيرًا، لقد شهد بعينيه في الماضي ما رأى الآن، وبصوره مختلفة إلى حد كبير، أخرج مجدي من سيارته معطر هواء وأمطر السيارة بوابل كثيف، ثم توقف فجأة ولم يكن يعلم لماذا توقف، إلا أنه مسح وجهه وعينيه بيديه، وتنهد طويلا قبل أن يشعل سيجارة ويعاود الانطلاق حتى يستكمل طريقه، ولم تمض لحظات حتى يغيب مع صوت المبتهل نصر الدين طوبار: "مجيب التائبين حملت ذنبي وسرت على الطريق"، يهز مجدي رأسه كأنما يثير صوت المبتهل شجونه، ويغوص بعينيه في طريق تتسارع أمتاره متباعدة مع سرعة إطارات السيارة المنطلقة على الطريق.

وصلت أخيرًا سيارة فؤاد محمد راضي وبصحبته مدحت ومجدي إلى بيت ريهام، وكان مجدي قد طلب من فؤاد ومدحت أن يرافقاه إلى بيت ريهام ليتقدم لخطبتها، فكان مدحت في حياته ليس فقط صديقًا، له بل أخًا ولدته الأيام من رحم الحياة، قبل تظهره الأيام بعد ذلك خنزيرًا يفتش في كومة من القمامة باحثًا عن جسد ميت، فيغوص فيه بفمه ينهشه بعد أن تعفنٍ اللحم وجف الدم، فلا يرى منه من ينظر إليه إلا لعابًا يسيل من فمه مختلطًا بدم الجسد الذي ينهش لحمه، وهو يحاول- جاهدًا- تبرير فعلته الشنعاء التي عكست ما علمه الغراب الذي أرسله الله إلى أخ قتل أخاه ليعلمه كيف

يوارى سوأة أخيه، بدلا من أن يقتله وينهش لحمه، بعد أن مزق جسده إربًا كما فعل مدحت فيما بعد، ثم حاول- مئات المرات- أن يبرر فعلته، لكن الجميع لا يصدقون إلا أنه يوم الزيارة الأولى لبيت ريهام، كان له وجه آخر، فعندما غادر فؤاد سيارته بعد قيادة دامت لأكثر من خمس ساعات كاد الإعياء الشديد يصل به إلى حد الغيبوبة وفقدان الوعي إلا أنه تحامل، ليظهر عكس ما يخفيه من ألم، وصعد الجميع إلى الطابق الثامن في ذلك المنزل الذي لم يكن قد مضى على بنائه إلا أعوام قلائل، واجتمع شمل الأسرة والفرحة تغمر الجميع، فؤاد يحتفظ بخاتم من الذهب قرر مجدي أن يكون هدية لريهام فور إعلان الخطبة بعد دقائق من بداية اللقاء، وفجأة يتدخل والد الفتاة بما يقلب الأمر رأسًا على عقب، فيقول لمجدي:

- طبعًا إنت وعدتني يا مجدي إنك تنقل شغلك إسكندرية بعد الجواز بسنتين، ولا إيه؟

مجدي يحملق في ذهول بعد أن انتفض كمن لدغته أفعى: أنا يا عمي قلت كده؟!

ويصمم والد الفتاة على موقفه:

- أيوه يا ابني إنت قلت إني مقيم في القاهرة وهتجوز هناك، ولو تيسر ليّ الأمر هانقل شغلي هنا بعد سنتين-

مجدي يرد: أنا قلت يا عمي لو أراد ربنا، ولكن إذا تيسر أمرى في القاهرة يبقي إيه الدافع لنقل شغلي هنا، وتحمل مشقة السفر وبهدلته؟

الأب: يا إبني ده كلامك معايا في أول لقاء ليَّ معاك هنا، وما دمت خلفت كلامك يبقى كده مافيش نصيب بيني وبينك-

نطق الرجل تلك الجملة، وفجأه أظلمت الدنيا في عيون الجميع، ريهام تفقد وعيها جزئيًا وتبقى في ذهول كأنما لا ترى ولا تسمع شيئًا، مجدي يشعر أن سيفًا يشطر جسده إلى قسمين، الذهول يعتري الجميع والأب يتشبث بالثبات على موقفه، ولا يُعِر مشاعر إبنته اهتمامًا على الإطلاق، وفشلت كل المساعي التي بذلت حتى لاَ تنكسر فرحة الفتاة ولا يتحطم قلبها في ليلة تنتظرها كل فتاة على نار وجمر، بعد أن قهرها الحرمان الذي عانت منه أربعة وثلاثين عامًا قبل تلك الليلة، وانطفًا فجأة نور القلب الخافق، وماتت الفرحة، ملأت الدموع عيونًا تراقصت فيها الفرحة قبل ثوان، ولم تمض إلا دقائق حتى حاول مدحت إقناع الأب بصواب رأي مجدي، كان لا يريد وقتها أن تضيع محاولاته في التقريب بين صديقيه هباءً، ربما لأنه رأى من الفتاة نقاء وطيبة قلب وبساطة لم يعهدها في كثيرات ممن جمعته بهن الأقدار سابقًا، وربما لأنه كان يريد أن يبقي عليها قريبة منه- ولو كانت لغيره- لحاجة في نفسه لم يفصح عنها، وفشلت كل المساعي والمحاولات المستميتة، وقبل أن ينصرف الضيوف قام فؤاد محاولا أن يعبر عن إعتذاره للفتاة ولأهلها فعرض، أن يقدم لها خاتم الخطوبة تعويضًا عما حدث، فكان رد الخال حسان- الذي ترك عمله رغم انشغاله- حاسما: إنت بتدفع تمن ضيافتنا ليكم يا أستاذ؟ عيب يا ابن الأصول.

وانصرف الرفاق وكل منهم يلوم نفسه ولا يصدق ما حدث، والرفيقان مدحت وفؤاد يحاولان تهدئة مجدي الذي غامت الدنيا في عينيه، إلا أن فؤاد بذل جهودًا خارقه لتهدئة مجدي، وقال مدحت في محاولة منه لتخفيف وقع الصدمة على نفس صديق عمره:

- مسير ربنا يهدي النفوس وترجع للناس دي يا مجدي والبنت دي بإذن الله تكون من نصيبك.- معلش أزمة وتزول.

وبعد ساعات، يصل الرفاق ومجدي يتذكر مكالماته الهاتفية مع ريهام حرفًا حرفًا، وتنهيدة تنهيدة، وحتى الضحكات والنكات والفكاهة والمرح، لم ينس شيئًا، إلا أنه في تلك الليلة لم يستطع أن يبادرها بالاتصال الإطلاق، والتزمت ريهام الصمت التام، فلم يبق معها سوى طفل في الخامسة من عمره هو منذر ابن أختها أميمة، والتي ذهبت إلى بيت زوجها تاركة منذر مع خالته لعله يسري عنها ما يحرق قلبها من آلام سببها فقدان الأمل في اللحاق بآخر سفينة رست على شاطئ الحياة، ورحل معها آخر شروق لشمس الأمل، كما كانت تشعر في تلك اللحظة، فقد أظلمت الدنيا وربما لا تضيء ثانية، قلبها الذي تحول إلى جمرة يشعر بذلك، تباريح الألم جعلتها لا تستطيع النوم ولا تستطيع الوقوف على قدميها، لا تتحدث وقلبها لا يصمت أبدًا يريد أن يصرخ، ويأبى اللسان أن يستجيب، العينان تملؤهما الدموع لكن صلابة الأثنى التي لا تنكسر أبدًا تقاوم دمعًا يحرق مقلتيها ونزيف القلب لا يهدأ، القلب يئن والعقل في شبه غيبوبة، ساعات مريرة لحظاتها سنوات لا تريد أن تمضي، عقارب ساعة الزمن تكاد تصاب بالشلل، لا يريد الفجر أن ينبلج فيدفن تلك اللحظات المرة القاتلة، إنها ساعات تشبه في ثوانيها البطيئة سيفًا يمزق القلب ولا يزهق الروح:

- آاااااااااااااااااه إلهي اللهم برحمتك هون عليَّ ما أنا فيه.

قلب ريهام يصرخ بهذا قبل شفتيها، عينا ريهام تدوران في أرجاء حجرتها لا تكاد ترى شيئًا، رغم يقظتها التامة، لا تكاد تصدق أن كل شيء قد انتهى، وأن مجدي الذي أتى ومعه قارب النجاة الأخير من الحرمان

واليأس قد رحل بلا عودة، القلق والحزن يعتصران قلب أميمة، مكالمات هاتفية للأم كل ساعة، الأم: أنا خايفة على ريهام يا أميمة ممكن تتجنن حاولي تتصرفي- أمها تنتفض رعبًا، تشعر بأن القلق والرعب والحزن يسيطرون على نفس الفتاه بعد أن تجاوزت الثلاثين بلا رفيق، ولا بيت، ولا أطفال، ومع ظهور أول فرصه تضيع هكذا فجأة؟ وبلا تمهيد؟ ماذا تفعل فتاة مثل تلك المسكينة؟ بعد ما طرق باب قلبها من شعرت معه لأول مرة في عمرها بأن لها قلبًا ينبض وهبته الأقدار الحق في الحب، وجسدًا يشتهيه رجل، هل جاءت الفرصة وأصبح الوقت يمنحها الحق في أن تجد الحب والزواج؟ بل والحق في الأمومة، في الحياة؟ وما إن أشرق الصبح حتى غامت السماء واكفهرت وانطفأ نور البهجة ونضبت ينابيع الأمل، وتنصرف أميمه من بيت أبيها وهي في ذهول لا تصدق ما رأته عيناها، الدنيا تدور بها والأرض تتهاوى تحت قدميها، ما كادت تصدق الأمل المنتظر قد اقترب فجأة تحرم الأقدار أختها من الفرحة بلا رحمة، كانت أميمة مثل من قتله الظمأ وينتظر أن تمطر السماء، فإذا بالسماء تغيم ويرقص الزرع والطير فرحًا والأرض التي جفت لسنوات طوال تتهلل بشرًا، ثم فجأة تعصف الأقدار- دون سابق إنذار- بكل الأحلام، إن ذلك القلب البائس الذي تاق إلى الحب دهرًا الآن يبكي كمدًا وقهرًا-

"قلب أميمة يتأوه نائحًا يا ويلتي ويالعذابي ويالطول شقائي، متى تفرح تلك المسكينة التي أكل الدهر عليها وشرب؟" ريهام في حجرتها لا تقوى حتى على التقاط أنفاسها، تنظر حولها في صمت وذهول ثم تشبك كفيها أمام ركبتيها وتنهض فجأة فلا تقوى على السير، فتحاول النوم إلا أنه يأبى أن يداعب جفونا اكتوت بدموع الألم والحسرة، الفتى منذر في براءة الأطفال وعفويتهم: مالك يا طنط؟

ريهام في صمت يغشاه حزن عميق فلا تقوى على تحريك الشفاه خارج هذه الحجرة أب يعتصره الألم ويأكل الندم قلبه، يكاد ينفطر حزنًا وهو لا يقوى على الحديث كأنه يؤدب نفسه زاجرًا لها جزاء لفعلته النكراء ثم يدخل حجرة الإبنة فيجدها جالسة حيث تركها لا تبد حراكًا، فجأة ريهام تقاوم الانهيار وتنهض متثاقله تفتح صفحة فيس بوك تفاجئها رسالة على الخاص يتهلل وجهها بشرًا إنها من مجدي، تقول كلمات الرسالة التي تلقتها ريهام بلهفة ظامئ جف حلقه حين يرى كوبًا من الماء:

- "ريهام يا أغلى الناس قولي للجميع إنك بخير وأنا سوف أفعل من أجلك ما يرضيك، لن أدع الحزن يقترب من قلبك ما دمت حيًا، مهما كان الثمن نامي قريرة العين"-

ريهام تنهمر في بكاء مرير وتتذكر محاولات مجدي البائسة وهو يستجدي عطف أبيها بنظرات متوسلة وعينين تستغيثان ربما من هلاك محدق، أو ربما من لعنة مجهولة كان يسأل الاب صامتًا ألا يعصف بقلبه وقلبها، وألا يقضي الرجل بكلماته الصارمة على الأمل الأخير في قلوب تغلغل الحب فيها إلى السويداء عنوة رغم قسوة الأيام، مجدي يقضي ليلته البائسة وهو يتذكر يوم التاسع عشر من يناير، وهي تقول في مرح طفولي: "يالهوي يا أمه مجدي هنا قدامي عالطبيعه؟" وتجول بخاطره صورتها وهي تصيح في مرح: "يارب خلي اليوم يستمر طول عمرى مش عايزاه يخلص" رنين الهاتف يعيد مجدي إلى الوعي فجأة بعدما خيم الضباب الكثيف على عقله ليغوص في نهر الذكريات

حتى صار عقله أكثر شبهًا بكهف تسكنه أشباح الماضي منه بأي شيء آخر، صخب وضجيج وسيارات وزحام وموسيقى تصم الآذان، إنه زفاف

عروس على الطريق، فيما تبدو آلات تنبيه من سيارات مجاورة، لم يكن مجدي ينسى عصر السابع عشر من يوليو منذ عدة أعوام لأول مرة يحتضن ريهام ويحملها بين يديه كالطفل في حضن أبيه، يتحرك بها إلى غرفة هادئة بالطابق الرابع إلى شقة لم تكن قد أعدت ليسكنها أحد في ذلك الوقت، إنها الظهيرة والجميع نائمون، أنه عصر الجمعة، مجدي يحتضن ريهام يقبلها بشراسة تغوص يداه في جسدها، تلك الجزيرة التي لم تعرف من قبل سكانًا، الآن فقط تحتلها جموع وجحافل من تتار وعرب وعجم، مجدي ينطلق بريهام إلى ركن هادئ ويحيط خصرها الجائع بذراعيه، يكاد يعتصرها اعتصارًا، والعرق يتصبب ورائحة العطر تلهب الرغبة المستعرة وتزيدها اشتعالا، قلب ريهام يرقص طربًا ورغبة، عيناها تراقبان المكان وأذناها تترقبان أي همس، تخشى ريهام أن يمر أحد من هذا المكان، يهمس مجدي في أذنيها: إحنًا لبعض مهما حصل، أنا باعشقك، يقترب من الحائط، يغوص في نهر اللذة، يده تنزف دمًا حين ارتطمت بالحائط، لكنه لا يهتم، قلبه يرقص طربًا ونشوة، ريهام في شبه غيبوبة تهمس وهي تقاوم السقوط:

- باموووووووووووت فيك يا وله، آاااااه نفسي أكون في حضنك من زمان، 'ياك تتخلى عني يا سيد الناس.

وتغوص أصابع مجدي بحثًا عن ثمار أنوثتها، التي نضجت ثم أينعت، حتى ذبلت حين طال عليها الأمد بحثًا عن من يقطف تلك الثمار بلا جدوى، بعد أن كاد يفقد الوعي من نشوة الجنس والرغبة المحمومة التي تسرى في دمه قبل أن يقول هامسًا وهو يقبلها بعنف: أتخلى عنك إزاي وأنًا بعشقك؟ واصل مجدي والقلب يرتجف والأنفاس تتلاحق وحلقه يجف وجبينه يتصبب عرقًا، بينما قلبه يرقص بين ضلوعه، الشيطان بينهما صامتًا يستمع

إلى زغاريد القلوب الجائعة، يترنم بأنشودة السقوط.

مجدي يرد على مكالمة من فريد:

- أيوة يا فريد، خير؟ حبيبي أنا خلاص قربت أوصل آهو-

فريد يرد في سخرية كعادته: حبيبي مين يا ابن الـ..؟ الله يرحمها بقى الست الطيبة كانت قريبتي الست بطاعة حارمنًا من أنسك ليه هو اللي أخذك مننا إيه؟

مجدي يضحك بقوة وهو يقول: يخرب بيت فقرك يا فريد، لسه فاكر أيام جورج وسوف؟ ده إنت كارثة، يا أخي اتقى الله فيَّ.

تتعالى الضحكات بينهما، وفجأة فريد يسأل: هو إنت راجع إمتى تاني؟

مجدي: يا ابني أنا خلاص في القاهرة-

فريد يواصل المرح:هو اللي أخدك مننا إيه؟

مجدي في دهشة وحاجباه يرتفعان:

- أخذني؟ تكونش بتكلم مرآة أبوك؟

فريد يضحك بقوة وهو يطمئن على مجدي ثم يقول فجأة:

- حبيبي خلينا نتفق بقى بجد لما توصل بالسلامة كلمني علشان عايزك ضروري، سلامي للولاد.

وينهي مجدي إتصاله ثم يهز رأسه متعجبًا في صمت محدثًا نفسه، عمرك ما هتتغير يا فريد، وتمضي ساعات ولا يكاد يفكر في أمر سوى لقائه المرتقب مع فريد وماذا يريد، رغم أن لكلا الصديقين اتجاهًا مختلفًا، مجدي معلم بالمرحلة الثانوية، وفريد يواصل نجاحاته الطبية، وما يقدمه من خدمات لقريته والقرى المجاورة، أما خالد فيتواصل مع الدعوة الدينية وتحفيظ

القرآن الكريم في المسجد الملاصق لمسكنه، وتتوالى الأيام، وأما الصديق الرابع فكانت له مع الأيام ومع مجدي حكاية كادت تعصف بحياة مجدي ومستقبله، لولا عناية الله وتدخل الأصدقاء والأقارب وزملاء العمل، دعمًا ومساندة لمجدي في تلك الأزمة العصيبة، لم يكن مجدي ينسى ذلك اليوم الذي اتصل به مدحت في الساعة الثانية عشرة وربع ظهرًا، وعباراته تحمل توبيخًا حادًا وتأنيبًا على فعلته النكراء، كما تصورها مدحت، حين أخلف مجدي وعده الذي قطعه على نفسه أمام والد ريهام، بزيارة بيته وتقديم اعتذار عما بدر منه في اللقاء الأول، ومجدي لا يصدق أذنيه، لما يعنفني مدحت هكذا؟ هل الأب هو المخطئ أم أنا؟

مجدي يساوره الشك في ما يدور بخاطر مدحت الذي صمم بإلحاح عنيف على أن يقدم مجدي اعتذارًا لائقًا لوالد ريهام عن تراجعه عن البقاء في الإسكندريه بعد زواجه منها، والتقط مجدي هاتفه في عجالة والحيرة تنهش قلبه والشك يساوره حول حقيقة الأمر حديث غاضب تجاوزت حرارته الأربعين، أولى كلماته: آلو أيوه يا إبني إنت ما رحتش للناس ليه؟ حرام عليك ربنا ينتقم منك الناس بتدعي عليك، البنت هتتجنن وأمها بتدعي عليك.

يكاد مجدي يصاب بالجنون، عيناه تكاد تفارق محجريهما من شدة الدهشة، مدحت بيعمل كل ده ليه؟ سؤال حائر في عقل مجدي-

مدحت: يا ابني رد عليَّ لو أنا جيت عندك ممكن نخسر بعض، حرام عليك طالما وعدت الناس لازم تروح لهم-

مجدي لم يكن قد أكمل ارتداء ثيابه بعد، نصفه الأعلى عار تقريبًا، يقف في شقته حافي القدمين، كان يستعد لمغادرة القاهرة إلى الإسكندريه فعليًا قبل الاتصال بمدحت، لم يكن مجدي قد أنهى اتصاله بمدحت حتى وجد

اتصالا آخر من أميمة:

- آلو أيوة يا أميمة أنا خلاص جاهز وجاي عليكم آهو، والله ما أقدر أتأخر عن ريهام، هو أنتم قلقانين ليه كل القلق ده؟ والله العظيم أنا جاي ودلوقتي هما ساعتين زمن-

ثوان معدودة، مدحت يتصل مرة ثانية وثالثة لكن مجدي يتأفف غيظًا، ويرد في عنف:

- يا عم إهدي عليَ حبتين مش عارف أكمل لبس، مالك؟ هو انت اللي هتتجوزها ولا أنا؟ دي لو بنت خالتك مش هتعمل كل ده، فيه إيه يا مدحت؟ بالراحه عليَّ يا عم شوية مش كده، تقدر تقول لي أنا غلطان في إيه؟ أبو البنت هو اللي فهم الكلام غلط، أنا لما قلت لو ربنا أراد ممكن أنقل شغلي ماكنش معناها إني حلفت له بالطلاق، هو الراجل موسوس زي بنته ولا إيه؟ أما إنه راجل حمار وابن كلب صحيح، هما عايزين إيه بالظبط؟ يكونش فاكر نفسه إني شغال عنده أبوها ده؟ ملعون الجواز وسنينه، والراجل ده كمان ملعون أبوه يا أخي-

يتنهد مدحت بعد انفعال صديقه محاولا كبح جماح غضبه:

مدحت: يا عم توكل على الله دول ناس طيبين والله العظيم-

مجدي في هدوء: ماشي يا دوحه ماتزعلش يا أخي، إن شاء الله كله هيبقى تمام هاروح للراجل وأنا ونصيبي معاه بقى،

مدحت وقد هدأت نفسه واطمأن قلبه:

- ماشي يا ريس، ربنا معاك، إبقى طمني لما توصل.

وينطلق مجدي مغادرًا إلى المجهول، إلى لقاء رجل لم يكن يستريح له منذ اللقاء الأول، ولكنه يتعامل بمنطق من أجل الورد، مجدي أمام المرآة في حمام شقته يستخدم عطرًا فواحًا قبل المغادرة، لكنه صمت لثوان معدودة وهو يسأل نفسه بعد أن حدق في المرآة دقائق: هو أنا أجرمت في إيه عشان الأم تحسبن والبنت تتجنن والأب ناقص يلطم وصاحبي بيهدد أنه يخسرني والأخت دمها محروق يمكن أكون ضربت الأب بالجزمة قدام الناس؟ يظهر إني في يوم هعملها يا عم سمير-

ما هي إلا ساعات حتى وصل مجدي إلى بيت ريهام، واتفق مع الأب على كل شيء، تفاصيل الخطوبة، تكاليف الزواج، ثم ترك مجدي باقي التفاصيل لتكون في حضور الأهل، إلا أن الأب الذي دخل الشك قلبه كان يضمر شيئًا لم يفصح عنه، لكن تركه لأيام قادمة ليست ببعيدة، ويرى الأب في عيون ابنته حنينًا جارفًا تجاه مجدي يزيد من حيرته وارتباكه إزاء ما يخطط له وما ينوي فعله، فلم يعد الأب يستريح لتصرفات مجدي على الإطلاق، لكنه يرى ابنته تحتوي مجدي بعينيها كما احتوته أحضانها فيما بعد، فتجعل من عينيها وسادة له ليستريح عليها من مشقة الأيام، ومن رموشها غطاء يقيه زمهرير الوحدة وقسوة الحرمان، ومن قلبها حارسًا حتى لا يمس مجدي مكروه ما دام قلبها ينبض باسمه حتى يتوقف، مرددًا في آخر نبضه: أنا لك، ويكرر: أنا ملكك ولن أكون أبدًا لغيرك حتى ألقاك بعد الموت-

الحيرة تعتصر سمير والد ريهام، كان قد بدأ يخطط لأمر ليس الإفصاح عنه في تلك اللحظة من الحكمة، لكنه رأى أن يصبر قليلا حتى لا يكسر فرحة ابنته، لذلك تقاعس عن التنفيذ قليلا، لكنه تجاهل مشاعر إبنته وبدهاء الشياطين قبل الأب ما التزم به مجدي من اتفاقات حتى حان الأسبوع

الأخير قبل إعلان الخطوبة رسميًا، في حفل تم الإعداد له قبل ذلك بشهر كامل، وبدأ الجميع يستعد لحفل الخطوبة، إلا أن مجدي يفاجأ بأشياء مريبة لم يتوقعها، نظرات الحقد المتواريى خلف ابتسامات مدحت المصطنعة بدأت تنهش قلبه من الداخل، وتجاوزاته التي لا مبرر لها سوى صداقتهما زرعت في قلبه شكوكًا بدأت تقض عليه مضجعه، وبدأ يسأل نفسه أسئلة متتالية دون أن يجد لها إجابات شافية: ماذا يريد مدحت من ريهام؟ ما الذي يخفيه عليَّ؟ ولماذا يقف ضدي كلما حدث بيني وبينها ما يعكر الصفو؟ لماذا يطلب مني كثيرًا أن يطمئن عليها ويسمع صوتها من خلال هاتفي الخاص؟ هل يشعر ناحيتها بشيءٍ ما لا يجرؤ على البوح به علنًا؟

ثم بتر عبارته التي جعلته يفقد صوابه مستنكرًا، لم يدع للشيطان فرصة لينسف علاقته بصديق العمر، ومضت الأيام ومدحت يتجاوز مع الفتاه التي كانت تعامل مجدي بحنان أم مرض طفلها الوحيد، وبقيت لياليها تسهر على راحته، حتى تماثل للشفاء، فكيف ترد عليه إذا ما ناداها فجأة بصوت يقطر حنينًا وخرجت من بين شفتيه كلمة "ماما"، كانت ريهام تحب مجدي بما يفوق حب أم كهذه لطفلها بمئات الأضعاف من الحب، وتحيطه بحنان لم تحط به من قبل أحدًا، ربما لأنه الأول في حياتها، لكن مجدي يرتاب وتفترس الشكوك نفسه إزاء تصرفات صديقه الذي يبدو لطيفًا وديعًا- على غير عادته- كلما سمع صوت ريهام، ويطلب من صديقه أن يتحدث إليها من هاتف خطيبها، وفي أحد الأيام انفجر غضب مجدي الذي أكلت الغيرة قلب،ه بعد أن شاهد مدحت يتحدث إلى خطيبته بكل رقه وفي وجوده، وما جعله يكاد يفقد عقله، أنه وجدها تبادل الصديق مدحت حديثًا رقيقًا يقطر عذوبة، فانفجر مجدي غاضبًا وتعامل مع ريهام بعنف شديد حتى فوجئت بقوله:

- إنتي خطيبتي ولا خطيبة مدحت؟

ريهام ترد مدافعة عن نفسها:

- فيه إيه يا مجدي؟ مدحت ده صاحب عمرك، وأنا مش هبقي سبب في إنك تخسره بسببي، حبيبي هدى نفسك وبلاش الغيرة المجنونة دي، أنا مش عارفه إنت زعلان ليه كده؟مدحت ده اكتر من أخوك ولا إنت ناسي يا دودو.

يرد مجدي بغضب هادر:

- لو كلمتي مدحت تاني مش هنكمل مع بعض، ثم يصرخ في غضب: إنتي فاهمة ولا أكرر تاني؟ مش محتاج أقول الكلام مرتين، لو كان أبويا وطلع من قبره مش مسموح لك تكلميه بعد النهارده.

ويستمرالحوار العنيف حتى انهارت ريهام باكية وهي تقدم اعتذارًا لمجدي عما بدر منها، مع وعد بألا يتكرر ما حدث، ولكن تمضي الأيام ويزور بيت ريهام بعد أن عادت الأمور إلى طبيعتها، ويفاجئه الأب بكلمات كانت ذات وقع خاص على نفسه حين قال له:

- أنا كل اللي يهمني سعادة بنتي، ثم سأله فجأة سؤالا أثار دهشته: أخبار مدحت إيه؟ ثم يكرر في وقاحة أثارت انتباه مجدي: هو ليه مفكرش يزورنا معاك؟ نظر مجدي إلى الرجل في دهشة لكنه تمالك نفسه حين واصل الرجل حديثه بعفوية تخفي وراءها خبثًا دفينًا: حتى يعتبرها فسحة على البحر ويشم شوية هوا ويغير جو.

وهنا يتمالك مجدي نفسه أمام الرجل الذي بدا لعينيه مريبًا، قبل أن يقول في نفسه: هوالراجل ده مش طبيعي ولا إيه؟ يا خوفي يكون ديوث، ثم يهز رأسه في صمت ويبتسم:

- والله يا حج مدحت مشغول اليومين دول، حضرتك عارف ظروف التدريس، أثناء الدراسة بتكون حياتنا صعبة شوية، معلش بإذن الله يوصل سلامك.

ثم غادر مجدي الإسكندرية إلى القاهرة، والقلق ينهش قلبه، لكنه لا يريد أن يقضي على حلمه الذي بدأ يسيطر عليه كما يسيطر السرطان على الدم، وانطلق مجدي وقلبه ينتفض فرحًا يمتزج بالرعب من مجهول لم تتضح صورته، وأخيرًا الفرحة تدخل ذلك البيت بعد سنوات طوال منذ أن تزوجت أميمة قبل ستة أعوام مضت، وانطلق مجدي إلى القاهرة ليبلغ الرفاق وهو لا يعلم ماذا يخفي له أقربهم مودة إليه، مضت الأيام ليدخل بعدها مجدي في صدام عنيف مع شقيقاته وأزواجهن بعد قراره بالتصرفٍ في ما ورث عن أبيه بعد وفاته، ذلك الأمر الذي اعتبره الشقيقات تفريطًا في ما بقي لهم من ذكرى الأب والأم والأخ، ومحوًا تامًا ومتعمدًا لاسم الأب على يد إبنه الوحيد الباقي، إنها جريمة نكٍراء كما يتصورن، بدت في عيونهن أعظم فداحة من هدم الكعبة، رصيد الأخوات من التراث البالي حال دون تصرف الشقيق في ما يملك، وبالفعل عارض الجميع تلك الخطوة، وصار مجدي ظاهرة يتحاكى بها القاصي والداني، فصار أشد استجلابًا للعار واللعنة في عيون الجميع، كمن باع دينه وشرفه وكفر بعد أن عرف الله، أو أشد شذوذًا في عيون الناس من مسلم يحطم أصنام الكعبة على مرأى ومسمع من كفار قريش، كان يرى نفسه مجرمًا في عيون الجميع، وتنهال عليه مكالمات هاتفية تحذره، وأخرى تقدم له النصح وتستجديه ألا يفعل، وهو لا يملك من المال ما يكفي ليكمل حياته مع من ملكت القلب وارتسم حبها نقوشًا فرعونية على جدار الروح، هل هي في عينيه الآن ساحرة ملكت عليه فؤاده بعد أن ظل يقاوم

طويلا؟ أم أصبحت حلمًا لن تكتمل الحياة بدونه وجوهرة مكنونه يسعد بها قلبه التعس والذي لم تهبه الحياة حتى سراب السعادة إلا عند لقائها؟ إنها الآن درة يغلفها القلب بدفء يهبها الحياة وتحرسها نبضاته ولم يعد التخلي عنها ممكنًا، القلب يئن والعقل يكاد يفقد صوابه، مجدي يقاوم ويتحدى ويسبح ضد التيار، وريهام في تلك الظروف العصيبة تقف بجواره صامدة إلى آخر لحظة، ويستمر الصراع طويلا، إذ قام مجدي وفي قرية ريفية صغيره بالإعلان عن بيع مزرعة صغيره وقطعة أرض وبيت كان يملكه، ووصل الأمر إلى حد التهديد بقتل من يتجرأ حتى على الحديث عن بيع هذه الأشياء، ومجدي في ذلك الوقت يقيم بالقاهرة مع مدحت، وهنا يقع المحظور، مجدي يلاحظ تقاربًا غير مباشر بين ريهام ومدحت، إلا أنه وفي خضم صراعاته مع الأهل والأقارب لم يعد يلقي إلى ما يحدث بين صديقه وخطيبته بالا، كان لا يظن أن تسير الأمور إلى ما سارت إليه، ولم يكن في ذلك الوقت بمقدور مجدي التوفيق بين سوء أوضاعه الوظيفية، عندما ألقت به الأقدار العابثة على يد إمرأة لا قلب لها في إحدى المدارس النائية التي لا يدرس بها إلا أبناء العشوائيات الفقيرة ممن يفترشون الأرض ويلتحفون السماء، لم يكن مجدي قادرًا على مواجهة عشوائيات العمل وسوء الظروف التي أحاطت به في مسكن غير ملائم صحيًا واجتماعيًا وبيئيًا على أطراف العاصمة، وفي أقصي شمالها الشرقي، حيث يقيم بين جموع غفيرة من الحرفيين والباعة المتجولين وأصحاب المهن البسيطة والهامشية، كل هذا والفتى يقاوم بعد أن تخلى طواعية عن كل شيء وجاء إلى العاصمة بحلم الاستقلال وتحقيق الذات، فلم يجن إلا عذابًا وانكسارًا بين أولئك الذين يلهثون خلف لقمة عيش ومعها ليلة حمراء وسيجارة محشوة، أو حتى لحظة رخيصة مع ساقطة تبيع نفسها بجنيهات قليلة ولا يعنيها مما تفعل سوى طعام ومأوى وحضن

دافئ أو حتى لمسات عابرة مهما كان ثمنها- المهم أن تجني ثمنًا في النهاية، وكانت المرأة تمثل هاجسًا في حياة الصديقين، ولا يستطيع أحدهما فكاكًا من ذلك الإخطبوط الذي أحاط بأذرعه القلب والعقل، وأصبحت السيقان والصدور تملأ الفكر والعقل وتلهب القلب وتزيد الدم الساخن سخونة والنفوس المضطربة اضطرابًا-

مجدي يستيقظ من نومه يصلي الصبح ويهرول إلى المدرسة ليؤدي عمله الروتيني، اشتباكات وصراعات وتشرد في يوم دراسي شديد السوء يتكرر كثيرًا مع أشباه التلاميذ من ساكني العشوائيات الذين كانوا لا يريدون من المدرسة سوى مكان ليتلقي فيه الفتى بأصدقاء الطفولة أو فتاة تشغل خياله المريض في بدايات المراهقة والتمرد على واقع ملعون ثم يعود مجدي بفكره إلى متاعب وأوجاع الماضي ويسترجع ذكرياته مع أكوام اللحم التي تموج بها الشوارع ليلا ونهارًا ولا يجد مجدي من يترفق به سوى صديقه الحميم مدحت، الذي يتخذ من الطرفة والدعابة والتهكم على كل شيء ملاذًا من الاستسلام للانهيار والسقوط في مستنقع اليأس-

ويفكر مدحت في الزواج عدة مرات من أكثر من فتاة، ويتمادى في عبثية وجنون في استفزاز مجدي بتصرفاته الطائشة، والضغط على أعصاب وكرامة صديقه، فيعرض مدحت على مجدي أن يستشير ريهام في أمر خطوبته من إحدى زميلاته، وهي منى بدوي.

ويستجيب الفتى الطيب لرغبة صديقه وتسهم خطيبة مجدي- قبل خطبتها لمجدي رسميًا- في حل مشكلات تواجه مدحت كثيرًا-

ولكن مجدي كان يواجه الحرب في أكثر من جبهة، في وقت واحد، فلم يدرك خطورة أمر العلاقة الوليدة بين مدحت وريهام، ولم يعطها ما تستحق

من اهتمام، لأن مجدي كان طيب القلب حسن الظن بالناس، ولم يكن يشك في حب ريهام له، أو إخلاص صديق العمر لصاحبه، لكن الجوع الجنسى كان سرطانًا ينهش عقل مدحت وقلبه.

العمر يتقدم به، تجاوزالخامسة والثلاثين، ضاقت به الحال، فرص العمل غير مستقرة وغير مجدية، الماضي الأليم يطارده في نومه ويقظته، يخشى أن يعود إلى الشارع كما كان يفعل كلما قست عليه أيام،ه فيبحث عن عمل يسد به رمقه ويقتات بما يناله من ذلك العمل من جنيهات قليلة توفر بالكاد استئجار الحجرة التي يبيت فيها، وما يتناوله من طعام كان فقط يبحث عن إعالة نفسه كغاية نبيلة في ظل ظروف طاحنه لم يكن يعطي نفسه الحق في أن ينعم بالحب، أو يهب قلبه ذلك الحق الذي حرمته منه الحياة حين أوجدته الأقدار وحيدًا بلا عمل ولا مأوى بعدما تخلى عنه والده ليغوص في بحر شهواته، ويعدد زيجاته الفاشلة، التي بدأت إحداها عقب طلاق زوجته الأولى أم مدحت بعلاقة مع إحدى الجارات لم تخل تلك العلاقة ذاتها من علامات استفهام كثيرة حول سبب زواج رجل في سن تقترب من بدايات الشيخوخة أو نهاية مرحلة الكهولة، من إحدى الفتيات في عمر بناته، رغم أن الابن الأكبر لديه لا يزال أعزب يبحث عن الزواج، وعلى أتم استعداد لأن يبيع دينه وضميره معًا في مزاد علني إذا كان ثمنهمًا يوفر له زوجة، حتى وإن كانت إحدى العوانس أو الساقطات، فلم ينس مجدي أبدًا وحتى يموت تلك الجملة التاريخية على لسان مدحت:

- بص يا مجدي يا صاحبي إحنًا ساقطين ومش هيرضي بينا ولا يعبرنا غير ساقطة زينا كده، لأن الواحد مننا حيلته إيه يعني؟ الدكر قوي فينا ما يقدرش يشترى توك توك.

كان مدحت يدرك حقيقة نفسه، وحال صديقه، وكثير من الشباب في مصر، فأكثرهم لا يملك من الدنيا سوى شهادة جامعيه لا تساوي حتى ثمن ما عليها من أختام، ولا تستحق أكثر من تكلفة الأحبار التي صيغت بها كلماتها التي لم تعد تسمن ولا تغني من جوع، فلن تهبه سوى عمل كان من يقبل به يتقاضى مائة جنيه مصري، لا تشترى قميصًا، ولم يكن أمام مدحت سوى البحث عن القوت ولو حمل الرمال على كتفه وصعد بها كغيره من آلاف العاطلين الذين لم تهبهم الدولة حتى حق الحياة، وتركتهم يواجهون الموت غرقًا في هجرة غير شرعية، أو يواجهون إهدارالانسانية بالتدني إلى مستوى اللقطاء والجياع وفاقدي الأهلية، حتى وصل الأمر بالفتى مدحت قبل أن يعمل بالتدريس في المدارس الخاصة فرارًا من الصدام مع الأم التي انفصل عنها زوجها وصل به الحال إلى أن يفترش الأرض حين يتناول طعامه في أيام شهر رمضان، حيث كان يلجأ إلى بيع المشروبات الخاصة بهذًا الشهر، مستفيدًا من عمل موسمي يجد فيه ملاذًا من العوز والملل، حتى في غياب مجدي الذي سافر إلى الأهل مرارًا وتكرارًا في صراع مرير بين الماضي ورواسبه، ولهفة القلب الذي يهفو إلى مستقبل يراه ورديًا، إلا أنه لا يجد فكاكًا من أسر الأخوات وأزواجهم وباقي الأقارب، كان مجدي يرى قلبه عصفورًا أحيط جناحاه بقفص من فولاذ اسمه الخوف، والإشفاق على ذلك الفتى الذي كان في عيون المحيطين به يتيم الإرادة وليس الأبوين، وكان مدحت يشارك مجدي حياته بأدق تفاصيلها، وكانت تلك خطيئة مجدي الكبرى، فلم يحدث أن تناول مجدي طعامًا لا يعلم مدحت أين تناوله، ومن كان يقدم له الطعام صغيرًا أم كبيرًا، ويعود مجدي بعد أيام ليواجه أمواج الغضب الهادرة إزاء توجهه المفاجئ بالتخلي عن كل ما يربطه بالماضي، ويتحول أبناء العمومة والأخوات إلى كابوس مخيف يجثم على صدره، ولا

يخفف عنه وطأة ما يلاقيه في تلك الفترة سوى قلبه الذي يتحرك على ساقين ريهام، ورفيق الصبا والشباب ورحلة المتعة والعذاب مدحت، لكن الأخت الكبرى فاطمة تقف حجر عثرة في مواجهة طموح مجدي الذي بدا لعينيها جنونًا لا يقدم عليه إلا مارق مرتد وتتوالى الاتصالات لحسم الأمر بين الشقيقتين، ولا يبقي من حديثهما إلا الدموع التي تنعى ذكرى الأب الراحل الذي رحمته الأقدار من أن يرى اسمه يمحى من أرضه بيد ابنه الوحيد، وكانت الشقيقة الوسطى آنذاك تقيم بالقاهرة، وتتوالى الاتصالات والكل لا يعبأ بما يحرق قلب مجدي، الجميع لا يعير مشاعره أي اهتمام يذكر، كل ما يعنيهم ألا يجلب إليهم عارًا كما يصور ذلك لهم رصيدهم البالي من تراث عتيق من ثقافة ريفية، كان مجدي في عيونهم أول الثائرين عليها، ولم تكن إحداهما تعلم بما كان من صراعات بين مجدي وأبيه حول رغبة الفتى في أن ينال حريته أثناء حياة الأب، ما ترك في نفسه جبالا من حقد أسود على أي سلطة أبوية.

كانت قد صارت شبحًا يطارده حتى أثناء نومه وبعدها أقسم الفتى- عقب وفاة الأب- يمينًا مغلظًا وغير معلن، أنه لن تكون له في تلك الأرض حياة حتى يموت، وفي الطريق إلى القاهرة يتلقى مجدي مكالمة من رفيق العمر مدحت، الذي كان يتتبع- بلهفة غير عادية- أخبار مجدي وخطوبته الغريبة من بلد بعيدة، وعندما بدأ الشك يساور مجدي حول نوايا صديقه تجاهه، سأله ذات مرة:

- إنت ليه يا مدحت مهتم أوي كده بموضوع جوازي من ريهام؟

وكان الرد المنطقي وقتها على لسان مدحت:

- يا أخي مش إنت صاحبي وصديق عمرى؟ نفسي أفرح بيكم، هي أختي وإنت أخويا-

ولكن مدحت ينهي مكالمته مع مجدي سريعًا، ثم ينظر إلى الأرض في صمت، ويطرح على نفسه سؤالا لم يسمع صوته سواه قبل أن يصرخ من أعماقه: إنت فعلا يا مدحت بتعتبر مجدي أخوك؟ ومحترم العشرة وذكرياتها الطويلة والعيش والملح اللي بينك وبينه؟ ولا؟ ثم يهز رأسه في أسى وهو يبتسم في مرارة، ويغادر مكانه ليتوجه إلى الحمام وينظر إلى المرآة متفحصًا ملامح وجهه، كأنما يرى نفسه لأول مره في حياته لكنه يكرر على نفسه السؤال مرة أخرى في صمت: هل صحيح مجدي أخوك وريهام أختك يا إبن حمدي صادق موظف الحكومة؟ مدحت مخاطبًا ذاته دون صوت:

- مع الأسف يا مجدي!

يصمت قليلا وهو يواجه ارتباكًا يجعله لا يدرى ماذا يفعل، يحاول مغادرة المكان ثم يعود، ثم يغادر، وفجأه يعود إلى نفس المكان أمام المرآة وينظر خلفه، كأنما يشعر بصوت يناديه، وتمضي لحظات قصيرة ويتنهد مدحت في صعوبة لا يدرك ماذا يجب أن يفعل الآن، لكنه انطلق متغلبًا على ما يدور في أعماقه من صراع داخلي بين ما يجب أن يفعله وما يشعر به، وأخيرًا يجلس ثم يشعل مدحت سيجارة، وينظر إلى حلقات الدخان الفضي المتصاعد من فمه إلى الهواء ويكمل حواره الصامت:

- مش قادر أقولها يا صاحبي، لساني مش مطاوعني أقول لك نفسي أفرح بيها وشايف أنه كتير عليك تملك اللي أنا ماعرفتش قيمته غير لما راح مني.

ثم تنهد في عمق وهو يبتسم في مرارة قبل أن يختم حديثه الصامت الحزين بكلمة واحدة: أرزاق، تلك الكلمة التي قالها وهو يهز رأسه وينظر إلى موضع قدميه، وبعد كلمته الأخيرة يجد نفسه في صمت يستسلم لدموع ساخنة تفارق عينيه ندمًا على ما يجيش في صدره من مشاعر لا يستطيع أن يصارح بها حتى نفسه-

الفصل الرابع

عاد مجدي إلى حياته، يمارسها بكل ما فيها من مشاعر وصراعات يومية وإحباطات وابتسامات ولحظات حزن تخفف من وطأتها وشدتها ريهام، التي سكنت فؤاده دون أن يحسب لذلك حسابًا أو يعد للأمر عدته، وبعد فتره لاحظ مدحت على مجدي سلوكًا غامضًا في حياته اليومية، عندما كان مجدي ينتقل من مكان إلى آخر، حيث كان مجدي يمضي مسرعًا إلى أي مكان ثم يستند إلى أي حائط يصادفه، ثم يتوقف فجأة ويصمت طويلا، وهو ينظر إلى الأرض ثم يتنهد في صعوبة، ويظل على هذه الحال ما يزيد على ربع ساعة وربما أكثر ثم ينطلق إلى حيث يذهب كأن شيئًا لم يحدث، دون أن ينظر إلى أحد أو يحدث أحدًا مهما كان الأمر عند من يراه أو يراقب سلوكه وهو على هذه الحال ولا أحد يدرى في ما يفكر، وتمضي الأيام ويتضاعف الحب الذي يربط قلبيِّ العاشقين ريهام ومجدي، وتزيده قسوة الأيام صلابة وقوة، كأنه خيط من حرير يتحول عند الشدائد إلى جدار فولاذي شديد الصلابة حتى يأتي يوم الإثنين الثاني من مارس وتنزل الفاجعة الكبرى على قلب ريهام، رنين الهاتف يوقظ مجدي من نومه فجرًا فيلتقط الهاتف وهو يقاوم النعاس، صوته يشوبه النعاس:

- آلو- خير يا ريهام فيه إيه- حبيبتي مالك-

ريهام بصوت يخالطه البكاء:

- آسفه يا مجدي بس عندي خبر مش كويس-

مجدي في قلق:

- ياساتر يا رب، فيه إيه يا بنتي عالصبح؟

ريهام في صوت يقطر حزنًا ولا يخلو من البكاء:

- عمي عبدالله مات إمبارح-

مجدي في حزن عميق:

- معلش البقاء لله والأعمار بيد الله إنتي مؤمنة وعارفة ده كويس.

لكن صوتها الباكي يثير في نفس مجدي القلق فيغادر الفراش متثائبًا وهي تقدم له اعتذارًا رغم أحزانها، يتمتم مواسيًا أياها بكلمات تقطر حبًا ويطمئن خوفها:

- معلش حبيبتي ربنا يجعلها آخر الأحزان، ثم يبادرها بسؤال مفاجئ: ريهام هل ينفع أروح أعزي بابا ولا كفايه بالتليفون بس؟

ريهام تدرك حرج موقف مجدي، بصوت لا تزال تخنقه الدموع:

- مجدي حبيبي إنت عارف أن خطوبتنا لسه مش رسمي، وبلاش تعرض نفسك لموقف محرج، ما تنساش إنك بالنسبة لأهل الميت ونسايبه غريب، وما فيش حد يعرفك غير بابا، ثم بعد أن هدأت قليلا: معلش إنت أكيد مقدر موقفي وفاهم وجهة نظري-

مجدي وهو يهز رأسه إيماءً بالفهم دون أن يتفوه بكلمة:

- إمممم أنا معاكي، ثم يستطرد: أيوة يا ريهام أنا فاهم ومقدر موقفك، خلاص أنا هبقي أعزي بابا بالتليفون.

ثم ينهي حديثه وقد تسمر في مكانه أمام المرآة بعد أن أشعل سيجارة ونفث دخانها في غضب ثم قال محدثًا نفسه:

- وبعدين بقى في الحظ الهباب ده؟ مالها الجوازه دي بس ياربي؟

وتمضي أيام قبل أن يفاجأ مجدي باتصال هاتفي تبلغه ريهام خلاله بما يثير الرعب في نفسه:

- على فكرة يا مجدي بابا استقال من شغله الإضافي وهيروح يعيش مع أعمامي في بلدنا الصغيرة اللي في مركز أشمون في المنوفية، لأن ولاد عمي هيسافروا يعيشوا هناك بعد وفاة عمي، واحتمال بابا ياخدنا نعيش معاه هناك، حتى أخويا محمود موافق رغم ظروفه الصحية، واحتمال نبيع شقتنا اللي هنا ونرجع المنوفية بشكل كامل، بابا قال أنا ممكن أعيش في الريف بس أبقى مراعي ولاد أخويا اللي مابقاش ليهم غيرى بعد أبوهم.

وتمضي عدة أسابيع ومجدي تعتصر الحيرة قلبه والقلق يخيم على عقله، ولا يزال يطارده سؤال لا إجابة له في ظل أحداث متلاحقة ومضطربة حول علاقته بريهام: ماذا تخفي لنا الأقدار يا ريهام؟ أربعون يومًا مضت ويقع حادث غريب وهو وفاة ابن أخت مجدي الشاب، الذي لم يبلغ عامه العشرين، وذلك بعد مرور شهر على وفاة عم ريهام، ليزداد الأمر تعقيدًا ويفاجأ مجدي وريهام بالكوارث تحاصر قصتهما من كل حدب وصوب، ويطرح مجدي على نفسه وفي حياته اليومية عدة تساؤلات: ما هو مصير علاقتي بريهام على هذا النحو؟ الأب كان متحفظًا ثم تعاندني الأقدار وفجأه الأب يغير مكان إقامته للمرة الثالثة بشكل غير متوقع، بعد أن قضي بالجيزة عدة أعوام ثم إلى سيدي براني، ثم أخيرًا إسكندريه، وما زال هناك جديد، ويدور في عقل مجدي سؤال يبحث عن إجابة: أنا مطلوب مني إيه عشان

أكون مع ريهام للأبد، أروح فين وأتحرك إزاي بس؟ عبير توقظ مجدي من نومه في السابعة إلا ربع:

- دودي حبيبي إنت كده إتاخرت بلاش كسل، يلا بقى.

فجأة مجدي يتقلب في فراشه متأوها وهو يقول مبتسمًا:

- ريري والنبي سيبيني بس خمسة كمان، الواحد بيبقى عايز يبوس على إيد نفسه عشان يقدر يقوم من النوم في البرد ده.

فجأة عبير تقترب من السرير، مجدي يقول في مرح وقد أفاق من النوم فجأة:

- لا ده كده كتير، قمر جنبي على السرير، ده أنا كده بقى وزير ولا سفير، ولازم أبقى لابس حرير في حرير، والله ما أنا رايح المدرسة واللي يزعل هو حر حتى لو كان المدير.

وتتعالى ضحكات عبير مجلجلة في فضاء الحجرة، وإذا بها تقول في مرح طيب:

- يلا يا وزير.- كده إتاخرت كتير-

يضحك مجدي بقوة وهو يقول:

- طيب عليَّ الطلاق ما أنا رايح المدرسة النهارده وعشان شوية الدلع دول هخرجك إنتي والأولاد، روحي لبسيهم وجهزي نفسك بس إديني فرصه أخطف حلم صغير وأقوم بسرعة-

عبير وفي دهشة:

- ااااااااه ياني منك! ثم تشير إليه بيدها تعجبًا وهي تقول: ماشي يا كارثة ما اتحرمش منك يارب أبدًا.

ويقضي مجدي يومًا جميلا برفقة الزوجة والأولاد في أحد الملاهي القريبة، ويخلو مجدي إلى زوجته وطفليه محاولا تجاوز الماضي وآلامه، والحاضر بمتاعبه وأفكاره، وما يواجهه من صراعات مضنية فرضتها عليه الحياة، وما هي إلا أيام ويفاجأ مجدي باتصال تليفوني من خالد:

- عامل إيه مع ولادك والمدام؟ مجدي إنت فين يا فقري يا إبن الفقري يا حفيد الفقري؟

ثم يستطرد قائلا: مش عايز تسمعني صوتك ليه؟ فاكر نفسك ميادة الحناوي؟ لازم ندفع فلوس أو نسافر عشان نسمعك؟ وتعلو ضحكات الصديقين، خالد معتذرًا: لا والله يا مجدي ما فيش حاجة، حبيبي بس موضوع شقتي الجديدة كان شاغلني شوية، أنا أخدت شقه جديدة عايزك تشرفني فيها إنت والأولاد، آهو تغير جو، وتقضي معايا يوم حتى، لأني أنا بصراحة كده يا مجدي كنت عايزك في مسالة مهمة ولازم أشوفك ضرورى ياريت-

مجدي يستشعر الحرج، ويستنتج سبب حوار خالد معه على هذا النحو، إلا أنه يتظاهر بعدم إدراك حقيقة الأمر، ويتفق الصديقان على لقاء قريب وهو يعلم أن خالد سوف يطلب منه بعض المال، ولم يتردد مجدي كعادته في تلبية رغبة صديقه، وأقرضه ما طلب من المال، لأن الحياة بأسرها في عيني مجدي لم تعد تعني الكثير بعد كل ما حدث، وأصبح يعلمه القاصي والداني بعد أن ترك مجدي ومدحت وخالد القرية ربما إلى الأبد، بينما بقي فريد بها الإرتباطه بأعماله ومشروعاته وما يقدمه للناس، ونظر خالد في وجه مجدي فرَقَّ لحاله حتى كاد يبكي من الداخل، يراه رغم تظاهره بالسعادة منطفئًا، ليس هذا هو مجدي الذي كان يعرفه الجميع، شعلة المرح والفكاهة وجده

يصارع الموت وهو يبدو مبتسمًا، شفتاه تبتسمان وقلبه يبكي، يعمل ليلا ونهارًا لكنه لا يشعر لحظة بطعم السعادة، خالد رغم ميوله الدينية لم يستطع أن يبرئ أحدًا مما حدث، وكان يعلم ما يدور بعقل مجدي وما يخيم على نفسه من الداخل من سحائب الحزن، وغيوم الكآبة التي سيطرت عليه بعد تلك الجريمة النكراء التي وقعت منذ عدة أعوام، وكان مجدي أحد أبطالها، وكان خالد وفريد شاهدي عيان، إلا أن أحدهما لم يستطع أن يفعل شيئًا في لحظة كاد يتوقف فيها التاريخ ليسطر بأحرف من الدم سطورًا من كلمات نارية في كتاب الغدر، ليسجل أصعب موقف تشهده قرية من قرى الريف على مدى عدة أعوام توالت، نسى الناس فيها كل شيء، ونسي كثيرون ما حدث، إلا أن الأصدقاء الأربعة الذين ضمتهم حياة مترابطة لأعوام طوال لم ينسَ أحدهم ما فعل صديق منهم مع أخيه، إلى الحد الذي وصل بعامة الناس إلى الحديث عن الأمر في وسائل المواصلات، وفي المقاهي، والأسواق، حين تطورت الأمور إلى مستوى ضاعت معه حتى ثقة الناس في بعضهم البعض لأن الأمر لم يكن معتادًا بين أبناء القرى أن يبيع أحدهم أخاه بثمن بخس لا يكاد حتى يصل في عيون الناس إلى جنيهات معدودة لينسف أحدهما من عمره أكثر من عقدين من الزمان، لأجل إمرأة ليس لها من الدنيا حتى في عيون من باع من أجلها أحد أقرب أصدقائه إلا وظيفة أو مال ورثته، وبهذا كانت في عينيه مطمعًا سعى خلفه فسحق كثيرًا من القيم الأخلاقية والاجتماعية.

كان ذلك الماضي قد سيطر على فكر خالد قبل أن يلتقي مجدي، لكنه تحاشى الخوض فيه خشية أن ينكأ جرحًا قد سحق الزمان آثاره من نفوس الآخرين، إلا أنه كان يدرك جيدًا أن ريهام كانت في حياة مجدي في ذلك

الوقت شرايين تسرى فيها دماء مجدي، فإن أصابها مكروه مات مجدي، وكان يعلم أن مجدي مات بالفعل يوم باعدت الأيام بينه وبين ريهام، ولم تمض سوى ساعات قليلة وتصل سيارة مجدي وبرفقته زوجته وأبناؤه إلى شقة خالد الجديدة، وما إن التقى الصديقان وإجتمع الشمل حتى أحدث الأبناء صخبًا وضجيجًا، ورغم كل هذا والشقة بها ما يزيد على عشرة أشخاص من بينهم أقارب خالد وبعض من الأصدقاء الآخرين إلا أن زوجتيِّ مجدي وخالد اتخذتا ركنًا بالشقة لتبدأ ملحمة الثرثرة النسائية في كل شيء من السياسة إلى فن الطهي والموضة والأزياء، ويستأذن خالد ومجدي زوجتيهما، ويتوجهان إلى مسجد قريب لأداء صلاة العصر وبعدها يعود خالد ومجدي إلى ركن هادئ بالشقة فيتناولان كوبين مع الشاي ويدخن مجدي سيجارة وهو يقول لخالد:

- قل لي حبيبي عايز كام بالظبط؟

ويتجاوز خالد وقع المفاجأة على نفسه بكلمات قليلة معتذرًا، قبل أن يبادره مجدي بقوله: عيب دًا أنا أخوك وفاهم دماغك، هو إحنا عشرة يوم؟ الدنيا مش دايمًا كلها زي ما إنت شوفت زمان ولا إيه؟

ثم بتر حديثه فجأة وهو يكرر جملته الأخيره مش لازم الناس كلها تبقى مدحت يعني.

ثم بابتسامه باهته يخرج من الموقف بهدوء: تعالَ نشوف هيأكلونا إيه النهارده.

ولم تمض إلا ساعات محدودة وينصرف مجدي وزوجت،ه ويودعه خالد وهو يودعه بنظرة يملؤها الامتنان والشكر لما فعل معه بعد كل ما رأى مجدي من قسوة في أيام الصبا والشباب، حين كان الأب يحرمه حتى من حق إبداء

الرأي في ما يخصه، ويربت خالد على كتف زوجته نهى، قائلا في شرود:

- على فكره مجدي ده أصيل رغم كل اللي عمله معاه أبوه إلا أنه ما قدرش ينسى فضله عليه، ثم يستطرد قائلا: تصورى يا نهى إن مجدي لما أبوه عرف أنه هيعيد السنة في أولى ثانوي حبسه مع المواشي لغاية ما الولد أغمى عليه من كتر الغضب ودخلوا عليه افتكروه مات؟ وبعدها مجدي قرر أنه يكمل ثانوي عام، وينتحر في الدراسة عشان يوصل لجامعة القاهرة بأي تمن، ومن ساعتها كل مجدي ما كان يغضب من أبوه كان يروح بيت عمته أو خالته اللي ما لاقاش في دنيته أحن عليه منهم-

نهى: خالته دي مين بقى؟

خالد: أم فوزي وناجي وفؤاد ومسعد الوحيد المقيم في الريف عندنا، أما فوزي عاش في إسكندريه من أكتر من تلاتين سنة، وفؤاد وناجي وهلال عايشين في القاهرة، وكان ناجي وفؤاد أقرب اتنين لمجدي، لما كان هناك، وحضروًا خطوبته على ريهام قبل ما..

ثم بتر خالد حديثه وهو يتنهد بعمق ثم يهز رأسه أسفًا: الله يرحمه الحج مصطفى أسلوبه في تربية مجدي حطمه، وخلاه يكره أي حاجه تفكره بالواقع القديم اللي داق فيه الذل والقهر بكل صوره وأشكاله، وفجأه تتحول ملامح خالد إلى البشاشة بعد جفاف قبل أن يقول فجأة: بس الواد مجدي ده بصراحة ابن حلال، ثم يصيح في مرح: أنا جعان يا نهى، ثم يضحك بقوه وهو يقول: شلت من على قلبي همه يا مجدي والله-

وفي مساء اليوم التالي فريد ينطلق بسيارته مسرعًا وهو يتوجس خيفة من اتصال زوجته المفاجئ به، وما أن وصل إلى شقته حتى يفاجأ بزوجته تصرخ في وجهه:

- تعالَ يا فريد شوف بناتك.

ويتمالك فريد نفسه قبل أن يقول في دهشة: بناتي؟ ده على أساس إني مخلفهم لوحدي أو ولدتهم أنا مثلا؟ مالك يا سحر فيه إيه؟

سحر بابتسامة: سورى حبيبي، آسفة أزعجتك-

فريد بابتسامه باهتة وهو يحرك رأسه مندهشًا: إنتي لازم يعني تفكريني بإنك خريجة مدارس لغات؟ ثم يضحك بقوه وهو يلقي بجسده المنهك والتي خارت قواه على أقرب كرسي ثم يقول في هدوء تام: مالهم بقى؟ ثم يصمت لحظات قبل أن يكمل: مالهم بناتي يا دكتورة؟

فجأه الزوجة تقول في هدوء: بقول لك إيه؟ البنات عندك شوف إنت بقى أنا داخله أحضر العشا.

وقبل أن تغيب سحر تفاجئ فريد بما يطمئن قلبه بعد كان قد جف حلقه وهو يظن أن البنات قد أصابهن لا قدر الله مكروها حين قالت:

- هل يرضيك أن هبة العاقله الكبيرة..- وبترت كلامها وهي تنظر إلى ابنتها نظرة لوم وعتاب حارقة، ثم تكمل الحديث: هبة البنوته الطيبة، هل يرضيك إنها تاخد اللعبه بتاعة رنا من غير ما تستأذن منها؟ ولا أنا حتى أعرف، وبعدين أكلم هبه تقول لي يا ماما أنا مش غلطانة؟ وفجأه ترد على مامتها وتقول لي إنتي ظالمه يا ماما؟ وفجأه تكرر سحر جملتها الاخيره في غضبة مصطنعه، تريد الأم أن تجعل منها حقيقة لتوبيخ ابنتها، ويدرك الأب مغزى الأمر فينادي ابنته في حنان بالغ:

- هبة تعالي حبيبتي أنا عايزك، ثم يقول في هدوء: سحر أنا عايز هبة بعد إذنك دقيقتين لوحدنا، ويصطحب فريد ابنته ذات السنوات الثمانية إلى

حجرتها، ثم يقول وهو يسير معها إلى الحجرة: بابا عايزك يا أمورة بابا نتكلم مع بعض شوية، وفي حنان يجلس فريد القرفصاء ثم يعبث بخصلات من شعر ابنته في حنان بالغ، وهو يقول لها: أنا عايز أسألك سؤال كده بس تردي بصراحة، والفتاه ببراءة الأطفال:

- تحت أمرك يا بابا-

ينهض فريد بعد أن هدأ من روع ابنته، وهو يطرح عليها سؤاله الأول بعد أن جلس على طرف سريرها وهي إلى جواره، ثم ابتسم في هدوء قائلا: إحنا قلنا إيه زمان؟ مش قلنًا الكذب حرام؟ وتنظر الفتاه إلى الأرض قائلة: أيوه يا بابا لكن أنا-

فيقاطعها فريد فجأة قبل أن تكمل عبارتها الأخيره بسؤاله الثاني:

- وكمان قلنا اللي بيكدب بيروح فين؟ الفتاة في هدوء: بيروح النار يا بابا.

ويواصل الأب كلماته الحانية الرقيقة وهو يبتسم في هدوء قبل أن يقول: هو احنا مش قلنا اللي ياخد حاجه مش بتاعته يستأذن؟

قالت الفتاه في براءة: طبعًا لأنه لو عمل كده من غير ما الناس تعرف بيكون في نظر الناس حد مش كويس، وهنا يقبل الأب فتاته في حنان، ويبتسم: شاطره يا هوبة، إلا أن الفتاه تدافع عن نفسها في براءة في دهشة قائلة:

- بس يا بابا أنا لما أخدت لعبة رنا كنت فاكراها مش عايزاها، واللي خلاني أفكر إني لقيتها سايباها عالأرض ولما بصيت عليها لقيتها مشغولة وبترسم-

فريد في حكمة الأب وعقلانيته:

- حبيبتي أنا مش مشكلتي في إنها عايزاها ولا مش عايزاها انتي عرفتي منها إذا كانت لسه عايزاها ولا خلاص سابتها برغبتها؟ كان لازم تعرفي إنها طالما تخص أختك كان واجب عليكي تستأذنيها يا أمورة بابا.- ثم يحتضنها قائلا صح ولا مش صح كلامي؟ قال جملته الأخيرة في رقة بالغة وهو ينظر إلى الفتاة معاتبًا في هدوء، فردت الفتاه في براءه: طيب ليه يا بابا أستأذنها وهي سايباها؟

فريد:

- حفاظًا على مشاعر أختك اللي انتي أكيد بتحبيها زي ما بابا وماما بيحبوكي، أو كنتي طلبتي مني أو من ماما أجيب لك غيرها بدل ما أختك تزعل وتخاصمك، ثم يقول معاتبًا: يرضيكي تزعلي أختك منك؟ ثم يواصل حديثه: وماما كمان تزعل وبابا يزعل؟ هنا فقط أطرقت الفتاه تنظر إلى الأرض خجلا؟ ثم قالت في صوت هامس: أنا آسفة، ثم دمعت عيناها، وهنا فقط احتضنها الأب يغمرها بحنانه قائلا: حبيبتي خلاص أنا مش زعلان ولا ماما زعلانة منك، بس انتي لازم تروحي حالا تعتذرى لأختك وتعالي لبابا عشان هحكي لك حدوته جميلة خالص.

ثم قرص الأب خد الفتاه في رقة حتى عاد وجهها يشرق بابتسامتها الرقيقة من جديد، وهرولت إلى خارج الحجرة وهي تنادي أختها رنا ثم تكرر النداء، وصوتها يعلو أكثر وأكثر: يا رنا أنا آسفة، كأنما تقول للجميع لقد أخطأت فسامحوني، ثم عادت إلى أبيها وهي تقول في مرح طفولي:

- كده بقى يا بابا هعتذر لماما وأرجع لك يا أحلي بابا في الدنيا.

وبعد ثوان معدودة كانت الفتاة في سريرها وقد غشيها النعاس، لكنها تأبي أن تنام حتى يحكي لها أبوها الحدوتة التي وعدها بأن يقصها عليها،

فطلبت من أبيها أن يبقى إلى جوارها حتى تنام، ووافق الأب بعد أن وجدها مبتسمة وقد أحاطت عنقه بكفيها الرقيقين وهي تشبك أصابعها خلف عنقه، وتجذب رأسه إليها في حنان وعيناها تحدقان في وجهه بقوة، ثم قالت في لهفة ظامئ ينتظر الماء:

- ها يا سي بابا فين الحدوتة بقى؟

فقال الأب وهو يتنهد في عمق: أنا هاحكي لك حدوتة الأسد والكلب، ثم بدأ فريد قائلا:

- كان يا ماكان، يا سادة يا كرام، كان فيه زمان أسد ضخم أوي، وكانت الغابة كلها بتخاف منه، وفي يوم جاله كلب وقال له يا ملك الغابة أنا عايز منك خدمة ومش هانسى لك فضلك عليَّ لو نفذت لي الخدمة دي ورد عليه وقال له عايز إيه يا كلب؟ رد عليه الكلب وقال له عايز أغير اسمي لأن كل حيوانات الغابة كل ما يشوفوني يقولوا لي يا كلب يا كلب، وبعدين حتى الفيران والقرود كل شوية يجروا ورايا ويقولوا لي الكلب آهو.

وتنتبه الفتاه من غفوتها قائلة:

- ها وبعدين يا بابا؟

فيكمل فريد قائلا: وطبعًا الكلب قال للأسد أنا متغاظ ومتضايق أوي من كلام الحيوانات اللي في الغابة كلهم عليَّ بالصورة دي، وكل ده عشان اسمي ده، وأنا عايزك يا ملك الغابة تعلن في الغابة كلها أنه الكلب غير اسمه ومابقاش كلب، هنا ضحك الأسد وقال للكلب طيب عايز اسمك الجديد يبقي ايه يا كلب؟ رد الكلب وقد استبدت به الحيرة واعتصره الحزن، أي اسم بس يكون غير الكلب، لأن حيوانات الغابة شبعت تريقه عليَّ ومش سايباني في حالي، وطول الليل والنهار بتعاير فيَّ، رد الأسد على الكلب

وقال له أنا موافق أساعدك في تغيير اسمك، بس عندي شرط وحيد، لو نفذته هاجبر كل الحيوانات تحترمك وتبطل تعايرك باسمك ده، فقال الكلب أنا موافق على أي شرط بس اسمي يتغير والحيوانات ترحمني من السخرية، فقال الأسد للكلب أنا هاجيب لك حتة لحمة وتاخدها معاك وتخليها عندك لحد بكرة الصبح وأوعي تأكلها مهما حصل ومهما جوعت، يعني دي هتبقي أمانة عندك لحد بكرة، ولوحافظت عليها أنا هابلغ كل الحيوانات إني اخترت لك اسم جديد، وافق الكلب على الفور، وذهب إلى مكان يؤويه وهو يمسك قطعة اللحم بأسنانه، وبقي إلى جوارها ساعات وساعات، وفي تلك الليلة الباردة لم يخرج الكلب ليبحث عن طعام، لكنه بقي يحرس قطعة اللحم، وتمر الساعات والبرد والجوع يشتد على الكلب، ويضغطان عليه، ولعابه يسيل وعيناه تدمعان وهو ينظر إلى قطعة اللحم ويبتلع لعابه في مرارة، ثم ينظر حوله فلا يجد إلا جدران الكهف الخاوي، وظل حتى كاد الليل ينتهي لكنه شعر بأن الجوع يمزق أحشاءه وبدأت تراوده أفكار شيطانية وتحت ضغط الجوع، نظر الكلب فجأة يمينًا ويسارًا، ثم قال لنفسه ليس الكلب بقبيح، ثم هز ذيله فرحًا منتشيًا، وانطلق إلى قطعة اللحم وبدأ ينهشها في تلذذ حتى تناولها وهو ينظر حوله كمن يسرق أو يرتكب جرمًا كبيرًا، ثم قال في نفسه سحقًا للأسد ولحيوانات الغابة جميعًا المهم أنا أعيش، وبعدها ركع على قدميه منتشيًا وظل يعوي كأنمًا يهنئ نفسه عندما فاز بقطعة اللحم، حتى وإن بدا في عيون الجميع خائنًا للأمانة.

وهنا استيقظت الفتاه فجأة وقالت لأبيها: تقصد إيه يا بابا؟

فقال لها:

- أقصد يا حبيبتي أن اللي يستحل الحرام ويصور لنفسه أنه الخطأ أو

العيب شيء جميل بيعيش طول عمره منبوذ ومكروه من الناس، ويكفيه أنه بيكون في نظر نفسه خاين ده لو ضميره صحي وبدأ يحاسب نفسه.

وفي هدوء وبصوت هامس ينظر إلى لوحة الغروب في حجرة ابنته:

- إوعي في يوم تظلمي حد عشان عايزة شيء هو معاه، وانتي عارفة أنه غالي عنده أو يخصه، أو حياته متوقفة على وجود الشيء ده في حياته، ساعتها يا بنتي ممكن تخسرى احترامك لنفسك طول العمر.

ونهض واقفًا ثم دار في الحجرة وهو ينظر في صمت، وعيناه مليئتان بالكلمات عندما نظر إلى لوحة الغروب نظره أخيرة، وعندها كانت الفتاه قد بدأت تغط في سبات عميق فغطى الأب ابنته، وبعد أن قبل وجهها نهض وهو يقول لنفسه مبتسمًا في مرارة:

- ليس الكلب بقبيح يا عم مجدي.- ليس الكلب بقبيح-

وفجأه يعود فريد إلى حجرة الطفلة، ثم يمسك المقبض في هدوء ويلقي نظره على ابنته ثم يغيب في لحظة صمت طويلة جدًا، قبل أن يقول في نفس : يا ريت كان كلب يا بنتي، مع الأسف كان إنسان، بس عمل تصرف مايعملوش الكلب، لأن مافيش كلب يعض صاحبه أبدًا-

ثم أغلق فريد باب حجرة ابنته ثانية، واتجه إلى حجرته وهو يحدث نفسه، كما لوكان يشعر بالرعب بلا سبب، قبل أن يقول في صوت هامس: يا ترى يا بكرة مخبي إيه؟

ثم ينظر خلفه حيث حجرة طفلتيه رنا وهبة، ويقول في نفسه: لعله خير بإذن الله، وفي صباح اليوم التالي يتوجه فريد إلى مدرسة الابنة الكبرى هبة لحضور اجتماع مجلس الآباء.

وتمضي عدة أيام والكل يلهث خلف لقمة العيش وينشغل كل صديق بحياته من جديد، فيتوجه مجدي إلى أرياف الجيزة- مسقط رأسه- وذلك لحسم الخلاف القائم منذ عدة أعوام حول تصفية ميراثه وتحويله إلى مال سائل، بدلا من كونه قطعة أرض ومنزل، يريد مجدي أن يمحو بتلك الخطوة آثار الماضي البغيض، لا يزال يتذكر أن أباه قد ساوى بينه وبين قطعان الماشية يومًا ولم يغفر لأبيه حتى بعد موت الاب فعلته الشنعاء ولكنه يمضي الآن عازمًا على حسم أمره الذي طال النقاش فيه فامتد أعوامًا وقرر أن يلتقي بالأخوات وأزواجهن، وأبناء عمومته، وكبار العائلة كلها، لحسم الخلاف القائم حول قرار مجدي، ويصل مجدي إلى مشارف القرية بعد قيادة شاقة على طريق ترابي مليء بالمزالق والعثرات، حتى أصابه الإجهاد بصوره غير طبيعية فقرر أن يحتسي كوبًا من الشاي ولو في مقهى قريب قبل أن يواصل رحلته تلك، ينزل من سيارته ويتخذ مقعدًا بين الجالسين:

- واحد شاي على مية بيضا، وشيشة تفاح يا ابني معاك، ثم يتأفف والملل يتسرب إلى نفسه فيكرر: شاي وشيشة يا ابني!

يقترب رجل في الخمسين، ضخم البنيان، عظيم الشارب، منتفخ الكرش يتصبب العرق من جبينه من مجدي، ثم يقول وهو ينظر خلفه ولم تفارق الابتسامه وجهه:

- طلبات الباشا-

مجدي في هدوء:

- شاي وشيشة يا معلم، وخلي السكر برة، بس لو تكرمت بسرعة-

المعلم حجازي فجأه:

- يا واد يا عجمي ركز مع الناس، يا واد يخرب بيت الكوره اللي جابتك ورا دي.

ثم يدفع الفتى من كتفه وهو يمازحه: يا واد خلي عندك شوية حراره ده انت أبرد من امواس الحلاقين، يا ساتر! اللي يتسند عليك يتسند على حيطة مايلة خلص الطلب، البيه واضح أنه مستعجل-

مجدي بلا مبالاة: ولا يهمك يا معلم مش فارقة-

ثم يغيب عن الزحام والدخان، وأصوات النارجيلة التي تعزف هنا وهناك محدثة سيمفونية من ألحان تصنعها أوتار الفقر والكساد والفراغ والملل، فيهرع إليها بسطاء القرية ينفثون ما في صدورهم مع ما يتصاعد من دخان كثيف، حتى لا تنفجر صدور تغلي بها الدماء التي تعكرها عذابات الفقر والعوز، وانزلق مجدي بعد لحظات من جلوسه على المقهى في رحلة قصيرة يغوص فيها في بحر الذكريات، ربما لأنه لا يزال يخشى نسيان درس الماضي خوفًا من أن يشمت فيه القاصي والداني، لقد اعتبر نفسه أمام ماضيه يواجه لأول مرة في عمره عدوًا بعد أن عاش طيلة عمره بلا عدو، فلم يكن يحمل في قلبه لكل من تعامل معهم إلا مشاعر نبيلة، ويصل الآن إلى مدحت حمدي، رفيق الصبا، ولقاءات متعددة لا حصر لها تجمع الرفيقين في بيت مسقوف بالأخشاب، وليس به من مظاهر الرفاهية إلا قليل، فلا تزال الأم في بيت مد حت تستخدم الآنية الفخارية في تبريد ماء الشرب، وتغترف منها عند العطش، وكان مجدي يواجه مشقة بالغة في احتمال طباع أم مدحت المتناقضة بين قسوة اللسان وعنفه أحيانًا، وطيبة القلب والتودد إلى صديق الابن ورفيقه الدائم في قليل من الأوقات، ولم ينسَ أمه تلك المرأة الريفية البسيطة التي كان طيفها وهي ترعى الماشية مع الأب في الحقل يطارده حتى

أثناء نومه، ويبقى مجدي وغيره من الرفاق مذنبًا وسببًا رئيسيًا في تعثر مدحت الدراسي، الذي لم يكن هناك مسئول عنه سوى تخلي الأب عن المنزل، فرارًا من قسوة طباع الزوجة، التي لم ترحم حتى زوجها من التطاول عليه، ورغم ذلك كانت

امرأة مسكينة، خيم عليها شبح الوحدة وانفصال الزوج والأبناء وزواج البنات، فبقيت وحيدة في بيت ليس به سوى جدران باردة صامته كئيبة، لا يفصل بينها وبين القبور إلا صوت موتور الثلاجة وصياح الديوك- فوق أسطح البيوت المتجاورة- كل صباح، وكان كل من الرفيقين يمثل دور حمامة السلام في إنهاء الخلافات التي تنشب بين أحدهما وبين الأهل، سواء كان والد مجدي بعقليته العتيقة، أو أم مدحت بشكوكها الدائمة في فساد الابن وانحرافه، ويعاني مجدي إزاء تعثر التواصل مع الأب الذي يرفض أن اكون لابنه نظرة في الحياة، إلا إلى موضع قدميه، حيث تسبغ البيئة الريفية على أبنائها سمات خاصة، فمن لا يرى إلا الحقل أمامه لن يكون لديه طموح وثقافة وتطلع إلى المزيد في ظل صراع مع الفقر الذي ينهش بأنيابه كل حلم ويفترس كل أمل ويكشف عورة الجهل المتستر بغلالة رقيقه شفافة، تحمي ذلك الحلم من الانهيار والضياع تحت براثن البحث عن كسرة الخبز الجافة التي لا تسد رمق من لا يجدها أحيانًا من أولئك الذين يبحثون عن طعامهم في الحقول من نبات الأرض وطرح نخيلهاٍ، فلا فارق بينهم وبين الماشية سوى ألسنة تتكلم وقلوب تتألم، وهي تنعي حظًا عاثرًا لم تهب الحياة أصحابه من الدنيا سوى سقط المتاع، وتضغط تلك الحياة على نفس مجدي، فلا يجد لنفسه من أسرها فكاكًا رغم طموحه الجامح، والذي جعله يبدو مذنبًا مختل العقل والفكر في أذهان الكثيرين من أبناء القرية والرفاق وحتى الأهل، ولم

يقو على مواجهة القهر الأبوي والإرهاب الأسري طويلا بعد أن تكررت واقعة حبسه في زريبة الموشي، وبرفقتها حتى الصباح، كلما تعثر وأخفق دراسيًا، ويقاوم كل تلك الضغوط بالغوص في عالم القراءة والفكر والكتب التي أحاطت عقله بنسيج رقيق كخيوط العنكبوت، أدى إلى انعزاله فكريًا وثقافيًا بصورة تامة عن واقعه القاتم، بعيدًا عن الرعب والإرهاب الأبوي والأسرى والشك المتواصل في كل سلوك أو تصرف يصدر عنه، حتى أن الاهل باتوا يفرضون على علاقته بمدحت سياجًا حديديًا من الشك والريبة، لأنهم يدركون طبيعة والد مدحت، الموظف بإحدى الجهات الحكومية، والذي تزوج بعد انفصاله عن أم مدحت ثلاث من النساء لم يكن مدحت نفسه يعرف منهن سوى امرأة واحدة، وينشأ مجدي مترددًا في كل شيء بفضل تنشئة أبويه التي غرست في نفسه الخوف والرعب من مواجهة أي خطوة، أو اتخاذ أي قرار، مهما كان بسيطًا وتافهًا حتى في اختيار ثيابه أو لون الحذاء الذي يرتدي، فأصبح من أولئك البؤساء الذين سيطرت على نفوسهم عقدة اللا قرار طوال أيام الدراسة الثانوية، التي لم يبق منها في عقل مجدي سوى ذكرياته مع الرفاق، وما كان يتقاسمه معهم من لقمة وابتسامه ولحظات طيش صبيانية أو مرح عابر، وبقيت تلك الذكريات عالقة في الأذهان تصنع تاريخًا حفظته الأيام بين الصديقين، قاوما من خلاله قسوة أب لم تترك له حياة نشأ فيها يتيمًا فقيرًا، أي بارقة أمل ليمنح ابنه الثقة بالنفس، ولم تكن أم مدحت تلك الزوجة- التي هجرها زوجها اتقاء لسوء طباعها- بأفضل حال حين تخلت عن الفتى مدحت الذي يمسك بتلابيب الأمل، فيتمسك باستكمال الدراسة الجامعية بأي تضحيات، حتى وإن عمل في أي مكان، وبأي مقابل في الإجازات المدرسية والعطلات الرسمية ،وتنتهي الدراسة بالجامعة ويخرج كل منهما إلى الحياة مواجهًا شراستها وقسوتها وفقًا لما تربى عليه، ويحلم

مجدي بالثراء- فيجد نفسه بينهم لينال وظيفة تمرغ عقله وقلبه في تراب الميري، ويبني مجدي لنفسه قصرًا هشًا من أحلام واهنة لا تقف على ساقين ثابتين، يرى نفسه من خلال حلمه من الأثرياء، بينما يغوص مدحت في اهتمامات أخرى تنحصر بين مؤخرة امرأة، وساقين من أخرى، وصدر ناهد أو عارٍ تكشفه ثالثة، أو رابعة في شوارع الأحياء الشعبية بالقاهرة، التي حولت الحياة بعض نسائها إلى جوارٍ يعرضن مفاتنهن في سوق للنخاسة، ويبتغين نظرات جائعة من عيون لا يملؤها إلا التراب-

عيون الجموع الجائعة التي تموج بها الشوارع صباحًا ومساءً في بلد يئن تحت وطأة الفقر والعنوسة والبطالة وكساد الأحوال.

ويترافق الصديقان في الحياة مرة أخرى، ولا حديث لمجدي إلا عن الأمل في أن يجني مالا طائلا ذات يوم، من أين؟ لا أحد يعلم، بينما يغوص مدحت بعينين جائعتين في كل جسد عارٍ ومثير يتصادف مروره عندما يجمعهما لقاء على مقهى أو في شارع جانبيٍ، وينهش الشك والخوف قلب مجدي حين يستشعر الخطر من سيطرة الجنس الذي يتحول في دم صاحبه إلى سرطان، بعد أن عاد مدحت من رحلة إلى بلد عربي لم يجن منه شيئًا، ويبقى الأمل حيًا في قلب مدحت أن تنفرج عقدة الحرمان ويجد لرغباته المكبوتة متنفسًا يفرغ فيه احتياجًا جنسيًا إلى جسد يحتوي ذلك الوحش الذي ينهش قلبه وعقله بعد تجاوز الثلاثين، فلم يعد له حديث إلا عن الجنس والجوع والسيقان والصدور، ويعود مجدي إلى القرية ليعمل في مدرسة ريفية بأجر زهيد، وينطفئ في قلبه بريق الأمل، تمضي برهة من الوقت وتنطفئ السيجارة في يد مجدي، وفجأة يغادر المقهى إلى بيته، وهو لا يلاحظ شيئًا جديدًا على وجوه الناس، لكنه يرى غضبًا مكتومًا تصرخ به العيون- قبل الحناجر- لا يدرك سببه.

في دقائق معدودة يغادر السيارة ويفتح صندوقها الخلفي مخرجًا بعضًا من الفاكهة والحلوى وهدايا الأطفال كعادته، ويفاجأ بعاصفة من الترحيب وتعلو الفرحة وجوه الأطفال، وترحب الأخت الكبرى بأخيها الغائب منذ فتره حين التقت الوجوه فتبادره بالقول:

- فينك من زمان يا مستر؟ نسيت ناسك ولا إيه؟

ويبتسم مجدي: هو أنا اقدر يا أم إبراهيم؟ بس هي مشاغل الدنيا والعيال وإنتي عارفة بقى أيام امتحانات..

وفي دقائق تجمع على مائدة صغيرة أطفال البيت وكباره، ويرحب الكبير والصغير بضيف الأسرة الغائب منذ أكثر من شهرين، ومجدي يطرح سؤالا مفاجئًا:

- هي الناس مالها كده يا عم مختار؟ موجها حديثه إلى زوج أخته، مختار وهو يمضغ قطعة من صدر دجاجة: مالها الناس يا مستر؟ كله تمام والحال عال العال، ربنا يديمها نعمة ويحفظها من الزوال.

ويستطرد مجدي: حاسس كده أنه الناس مخبية حاجة جوة الصدور، وماحدش قادر يبوح باللي جواه كأن الناس شايلة هموم الدنيا والآخرة، أنا حاسس إن القلوب شايلة غضب وقهر ما لوش حدود، والكل ساكت ومن جواه بيغلي-

مختار فجأة: يا عم إحنا بناكل خلينا نبلع اللقمة عشان خاطر النبي.

مجدي ضاحكًا: عليه الصلاة والسلام خلاص يا عم أنا غلطان وأستاهل ضرب الصرمة لو فتحت بُقي تاني، يمكن أنا بس عشان الروتين اليومي والعزلة اللي احنا فيها حاسس بملل وضغط نفسي حبتين.

فجأة تقاطعه الأخت ضاحكة قبل أن تقول: اضحك هنا وإجرى وإلعب مع العيال براحتك.- بيت أخت هو بيتك يا أبوياسر.

وتدير الأخت وجهها إلى ابنتها قائلة: افتحي يا رضوي التليفزيون آهو نشوف الدنيا فيها إيه.- شوفي لنا فيلم ولا مسرحية آهو نضحك شوية، من زمان ماحدش شاف خالك، ثم تدير وجهها إليه: شاي ولا عصير ولا تدوق البسبوسة الأول؟

يضحك مجدي:

- يا خبر أبيض لسة فاكرة يا أم إبراهيم؟

الأخت تحتوي أخيها بعينين يملؤهما الحنان: هو أنا أقدر انسى اللي بتحبه يا ابن أبويا؟ عارفاك من صغرك تموت في الحاجات الحلوة-

- آاااااه خلاص بقى يا أم إبراهيم السن له حكمه، ولو مصممه يبقى شاي سكر زيادة- ولم تمض إلا دقائق قليلة حتى يستأذن مجدي في أن ينفرد بنفسه قليلا في حجرة الضيافة، وعندما خلا إلى نفسه أشعل سيجارة، بعد أن بدل ثيابه واطمأن على زوجته وطفليه ياسر وهيام، ثم استلقى على ظهره ولم يطق البقاء في بيته، الذي كانت تحول بينه وبين المكوث فيه طويلا حواجز نفسية شاهقة، صنعتها سنوات عجاف مضت على مجدي كأنها سنوات في أحد السجون، بما فيها من عذابات لا يحتملها بشر، كما صورت له مخيلته في تلك اللحظات، حين تذكر ذلك الزمن البائد وها هو يتصل بصديقه المقرب فريد، ويخبره بأنه في القرية وقد جاء ليلتقي بكل الأقارب لحسم قضية ميراثه، ويقضي مجدي ليلته وهو يتقلب في فراشه، فلم يكن يعتاد النوم في مكان بعيد، ولا يطيق فراق زوجته، ولكنه كان يواسي نفسه بكلمات قلائل تتردد في أعماقه دون أن تنطق بها شفتاه حين تمتم هامسًا:

إيه.- للضرورة أحكام.- معلش مسيرها تروق وتحلى يا زمن!

ونام مجدي بعد أن عقد العزم على أن يبدأ يومه التالي بزيارة فريد في إحدى صيدلياته بالقرية، وفي صباح اليوم التالي يفيق مجدي من نومه منزعجًا وهو يستغفر قبل أن ينفجر صائحًا:

- رضوي.- يا بنتي انتي فين؟ وإيه التخبيط ده عالصبح؟ الواحد ما يعرفش ينام في أم البلد يعني، شوية أنابيب بوتاجاز وشويه مش عارف مين، ده انتو ولا اللي عايشين في شارع ناهيا، أمال فين هدوء الأرياف اللي اتعودنا عليه؟! ثم يكمل وهو يشعل سيجارة قبل أن يتنهد في عنف: شوفي أمك فين عشان أفطر وأروح مشوار، لأني النهارده مش فاضي.

الفتاة في دهشة: رايح فين بدرى كده يا خالي؟ وإيه السجاير دي عالريق كده؟

مجدي بغضب مكتوم تكسوه ابتسامة: وانتي مال أمك؟ حضرى فطار ولا حليب دافي ثم يجذبها في حنان ويقول: ها؟ اتفقنا؟

الفتاه في مرح: أوامرك يا خالو يا قمر، فيضحك مجدي وهو يقرص خد الفتاة قائلا في دعابة: أوختشي كمييلة.

يضحك بقوة: يا لهوي عسل يا ناس عسل، ثم يودعها بابتسامة صافيه قبل أن يقول: أشوفك عروسة يا رب، إلهي أفرح فيكي قريب.

تهرول رضوى وهي توارى خجلها بابتسامة وهي تقول في مرح:

- آه ياني منك يا خالو ده انت كارثة، ويغيب مجدي بعدها في لحظة صمت طويلة قبل أن يشعل سيجارة أخرى ويتابع مع حلقاتها الفضية المتصاعدة في الهواء الغوص في أعماق ذكريات أليمة مع هذه الأرض، ومن كان عليها

من بشر قبل أن يتغير المكان ويغيب الإنسان تاركًا نقشًا أسود لن يمحى من الوجدان مهما توالت السنين والأيام،

تذكر مجدي أيامه بالقرية التي كان لا يراه فيها أحد سوى فريد وخالد عندما يزور القرية، ومدحت قبل أن تباعد بينهما الأيام بعد أن كان للشيطان والنساء دور كبير في سيناريو الحياة بينهما، ولم يكن مجدي يذكر- من مرارة تلك الأيام- إلا أنه بقي أعزب طيلة أربعة سنوات تلت حصوله على المؤهل الدراسي، بسبب الخلافات بين مجدي وأبيه، والتي لم يكن لها مبرر سوى تصلب الأب في قراراته بأن يتزوج مجدي إحدى فتيات القرية ولا يغادرها مطلقًا، كعادة شباب الريف في موروثات أغلب القرى والنجوع في صعيد مصر، "الولد يعمر بيت أبوه ويتجوز بنت من بنات البلد أو الحي الذي يسكنه"، ولم يعلم مجدي ما تخفيه الأقدار حين مات أبوه تاركًا الفتى المنطوي على نفسه آنذاك وحيدًا في دنياه التي تخلو من البشر في عينيه إلا من ثلاثة من الرفاق وهم فريد وخالد ومدحت الذي كان أقربهم إليه في ذلك الوقت وكان رفيق مجدي الرابع الكتاب، أي كتاب وقرأ مجدي في غياب مدحت عن مصر مئات وربما آلاف الكتب في شتي ألوان الفنون والآداب وربما فن صناعة السينما التي كان يهواها مجدي منذ صباه وفي قرار مفاجئ ينضم مجدي لأحد الأحزاب السياسة الناشئة انبهارًا بما حملته من شعارات براقة عن ألمطالبة بالحرية والعيش الكريم لأبناء الشعب وفي غمرة انغماسه وانشغاله بالسعي خلف المال الذي كان يسيطر على فكره آناء الليل وأطراف النهار، علم مجدي أن صديق الحميم قد عاد من رحلته إلى خارج مصر وكان مدحت قد أقام في ليبيا عدة أعوام ومنذ ذلك الوقت عاد الصديقان لبعضهما فلم تباعد بينهما الأيام حتى فرقتهما امرأة وضعت بينهما حاجزًا فولاذيًا

قضى على صداقة كانت أقوى من كل صلات الدم والأرحام على مدى أكثر من عشرين عامًا وكانت تلك العلاقة قد بنيت على المحبة والمودة ولكن تلك العلاقة كانت قد شهدت تقلبات وتحولات قبل أن تنهار ربما لا تقل ضراوة عن تلك التي شهدتها أحوال البلاد في شرقها وغربها عندما وقع فيها ما غير مصائر البلاد والعباد وجعل الناس ينظرون إلى الدنيا نظرتهم إلى غابة لا يفوز بملذاتها إلا كل وحش كاسر له من المخالب ما يستطيع به اقتناص أي فريسة تنالها يده وأفرزت الأحداث على أرض مصر أسوأ ما في نفس الإنسان المصرى من جشع وأنانية وانتهازية وجوع خفي.

تستره ثياب توارى خلف طياتها ذئاب تعوي جوعًا في ليل شتاء قارس البرودة عندما لا تجد تلك الذئاب ما يسد جوعها في عراء لا يسكنه بشر يرتدي مجدي ثيابه في عجالة ويلتقط مفاتيح سيارته منطلقًا ليغادر بيت الأخت الكبرى حيث كان اللقاء قد مع فريد وهو يعلم مدى حرص فريد عن الوقت وفجأة تنادي أخته: يا إبني رايح فين بدري كده مش تفطر الأول.

مجدي في عجالة وهو يدير محرك السيارة: معلش راجع تاني لأن دكتور فريد منتظر وأنا مش عايز أعطل الراجل عن شغله راجع تاني إعملي بس فراح بلدي محمرة لأنها، وحشتني ثم يغادر المكان مبتسمًا وهو ينظر إلى الشارع بعد أن اكتسي غبارًا عقب انطلاقه، وما هي إلا ثوان ويفاجأ بمكالمة من زوجته وهي تخاطبه بعنف شديد:

- إيه يا مجدي؟ إنت تروح البلد تظبط حالك وتسيبني هنا طالع عيني مع العيال؟ ده كلام؟!

يرد مجدي في هدوء من لا يجد مفرًا من الاعتراف بالخطأ:

- حبيبتي معلش أنا جاي النهارده وليكى عندي هدية ممتازة، هو أنا أقدر

على زعلك يا قمر؟

توارى زوجته خجلها البادي من صوتها:

- حبيبي أنا بس قلقت عليك وكمان انت مش بتتصل.

مجدي في عجالة:

- معلش حبيبتي أنا سايق هخلص مشوارى وأكلمك.

ما هي إلا دقائق مجدي وفريد معًا في صيدلية فريد، ويضحك فجأة قبل أن يقول مجدي في مرح:

- لسه زي ما انت على حالك القديم، الزمن مش بيغير فيك حاجة، عادة الأكل في الصيدلية دي ممكن تكون معاك وفي طبعك من سنين.. وبعد أن أشعل سيجارة: أخبارك ياباشا؟ إنت عامل إيه؟ والأولاد أخبارهم إيه؟ ويتحرك مجدي داخل المكان وينظر بعينيه فاحصًا ثم يقول فجأة: تصور والله المكان ده وحشني أوي من ساعة كنا بنتقابل احنا الأربعة.

فجأة فريد لا يقاوم سعالا مفاجئًا ينتابه أثناء تناول رشفة من قهوته، ينظر في دهشة بوجه لا تفارقه الابتسامه قائلا:

- ياعم ارحم أمي أبوس إيدك.. ثم يضحك بقوة وهو يهزرأسه تعجبًا قبل أن يكمل حديثه لسه زي ما إنت يا مجدي كأنك واقف عند نقطة محددة في حياتك ورافض الزمن يمر من عليها، زمان مين؟ وأربعة مين؟ إنت وخالد في الهرم، وأنا آهوه هنا باشيل زلط.

مجدي يبتسم ساخرًا:

- البلد كلها بتشيل زلط.. أنا حاسس إن فيه حاجة مش مظبوطة ولا إنت مش ملاحظ كده؟

فريد في سخرية وهو يبدو متهكمًا:

- ملاحظ عمال ها ها!

مجدي في غيظ مكتوم تغلفه ابتسامة:

- لا والنبي عشان خاطرى بلاش ألش، ياريت تجاوبني فيه إيه في البلد؟

- فريد ينظر في دهشة، ثم يتنهد: يعني إنت مش عارف؟

مجدي يهرب من الخوض في حديث يراه غير ذي جدوى على الإطلاق، فيبادر بالقول:

- افتح التليفزيون يا فريد.. آهوه يعني نشوف فيلم ولا مسلسل وإحنا بندردش عشان أنا مش قاعد كتير هنا.

ويدير فريد الكرسي حيث يجلس وهو يقول:

- آمال جاي ليه؟

مجدي: جاي عشان أحسم موضوع الميراث، اللي تعبني وضيعني من كام سنة ولسة خانقني دلوقتي.. ثم يتأفف غضبًا وهو يهز رأسه ندمًا: ماحدش عارف كان يحصل إيه؟

يتظاهر فريد بالانشغال ليكظم غيظه خشية الدخول في حوار يعلم مسبقًا أنه لن يؤدي إلا إلى طريق مسدود لكنه يواصل: تتغدا معايا؟

مجدي بابتسامه مشرقة:

- ياسلام طبعًا حد يلاقي دلع ويرفض؟ فين يا عم الريموت؟ وفجأه التليفزيون يقدم أوبريت وطني حبيبي وقناة أخرى يا حبيبتي يا مصر وثالثه فيلم تسجيلي عن دور الشرطة عام 1952 .

فريد في قلق:

- فيه حاجة مش طبيعية هو النهارده إيه؟

مجدي على الفور:

- الله أعلم إيه اللي بيحصل خلينا في حياتنا.

ويتناول الصديقان الطعام وأثناء الغداء يتفقان على خطوات مبدئية لشراكة اقتصادية بينهما في مستوصف طبي بإحدى القرى، على أن يسهم مجدي بنسبة في رأس المال مقابل هامش ربح تم الاتفاق عليه، على أن تبأ الإجراءات فور حسم قضية ميراث مجدي المعلقة بينه وبين أقاربه منذ سنوات عديدة، ويستأذن مجدي في الانصراف لينطلق عائدًا إلى الهرم، بعد أن أبلغ الجميع بقراره النهائي أنه سوف يبيع كل ما يملك رغم انف الجميع أو برضاهم، وانه لا ينوي العودة إلى تلك القرية مقيمًا حتى الموت، مهما حدث، وينطلق مجدي بسيارته مغادرًا القرية ولا يبدو على وجوه الناس شيئًا يلفت الأنظار إلى ما حدث بعد مغادرة مجدي القرية بساعات فقد كان الناس في الصباح يعيشون الحياة بصورة عادية، الموظفون إلى أعمالهم، والفلاحون في الحقول، موظفو الحكومة ينعمون بإجازه احتفالا بعيد الشرطة، ومجدي ينطلق وهو يغلق زجاج السيارة من شدة البرد، ولم يودع أحدًا إلا باتصال تليفوني بالأخت فريدة، وزوجها غانم عبدالفضيل، أطيب الرجال في نظر مجدي بين باقي الأقارب والأصهار، الطريق يزدحم فجأة، دوريات مرورية مكثفة، وجود غير طبيعي لرجال الشرطة، همس مجدي: يا نهار إسود، وفجأه يغوص مجدي بخياله في الماضي، قبل أن يهمس قائلا:

- أنا كنت حاسس إن في مصيبة هتحصل، مجدي ينطلق بسرعة جنونية، يصل إلى مائه وأربعين كيلومترًا في الساعة ويتابع الأخبار بشغف،

يحاول الاتصال بزوجته لا ترد، يكرر المحاولة الهاتف مغلق أو غير متاح، الإذاعة تعلن أخبارًا جديدة، توافد المتظاهرين على الميادين الكبرى بالقاهرة، والوضع ينذر بعواقب وخيمة، مجدي على مشارف القاهرة وجموع المتظاهرين تتوافد، وبيانات الداخلية تملأ الفضائيات والإذاعة بان يتم التعامل مع المحتجين على الظروف القائمة بكل حكمة، وبأقصى درجات ضبط النفس، وفجأه مجدي يرتشف رشفة من علبة عصير مثلج، ويسمع أغنية غير عابئ بما يدور حوله على الأرض، أو حتى في عقله، كل ما يشغله الآن زوجته، وأولاده فجأة يضغط دواسة البنزين ويزيد من سرعة السيارة، ينظر في ساعته متأففًا وينقر بأنامله على عجلة القيادة في توتر شديد يتحول من الأغنية إلى الإذاعة مره أخرى، أصوات صاخبة وموج هادر من الهتافات:

- "يا أهالينا انضموا لينا، الشعب يريد إسقاط النظام، عيش حرية عدالة اجتماعية، يا شهيد نام وارتاح واحنا نكمل الكفاح".

فجأه يشعر مجدي بالرعب، كيف يواجه مثل هذا التيار الهادر الذي قد يعصف به ويهدم بيته ويدمر حياته وربما يقضي عليه ومعه زوجته وأبناؤه؟ مجدي يصرخ من أعماقه:

- شكلها هي دي نهايتك يا بلد، فضلت الناس تتسرق لما خلاص بقى، وطالما صرخت هيطلع من جوفها نار تآكل الأخضر واليابس.

فجأة زحام شديد عند ميدان الرماية، اختناق مرورى غير مسبوق، حرائق إطارات ودخان كثيف يملأ المكان، ويصنع حالة من الضباب الأسود، يتوقف مجدي ولا يزال محرك سيارته يعمل، يضع إبهام يده اليسرى تحت ذقنه والسبابة والوسطي على يسار الجبين وهو يتأفف في صمت، ثم يغوص في كرسي السيارة قبل أن يتمتم هامسًا: أستر يارب، تتحرك السيارات ويصل

مجدي إلى شقته في صعوبة بالغة، وفجأة يدخل إلى شقته فيجد زوجته في حاله عصبية لم يشهدها من قبل، وتنفجر في وجهه غضبًا:

- إيه ده يا مجدي؟ كان لازم سفر النهارده؟ ما تولع الدنيا باللي فيها يا أخي، دي ظروف حد يسافر فيها الريف؟ إرحمني بقى من تصرفاتك الغريبة وقراراتك المفاجئة دي بقى يوووه..

مجدي في هدوء:

- حبيبتي عشان خاطرى اهدي شوية.. آخد نفسي بس الأول وبعدين قولي اللي انتي عايزاه، المهم إنك بخير انتي والأولاد كمان، أنا كان دمي بيغلي أكتر منك، وانتي مش عارفه الدنيا بره شكلها إيه.. دي بوادر ثورة أعنف ألف مره من اللي حصل في عصر السادات سنة 1977 ربنا يستر عالبلد وأنا من بكرة أجازه مفتوحة لغاية ما نشوف إيه الجديد، حتى لو اجازه بدون مرتب مش فارق معايا، والأولاد كمان مافيش مدارس، وانتي كمان البواب يجيب لك كل طلباتك وادفعي بدل الجنيه عشرة، المرحلة الجاية سودا ربنا يستر.

عبير ترى مجدي بحاله انفعالية لم يبدُ عليها من قبل في حياته منذ أن تزوجها، إنه ينتفض رعبًا من الداخل رغم أنه يريد أن يبدو متماسكًا، تنظر عبير إلى زوجها في ذهول وهي لا تصدق ما ترى، فجأة يتملكها رعب مماثل قبل أن تقول وهي تنظر إلى الأرض في دهشة يشوبها الرعب إلى حد الهلع: وبعدين يا مجدي هنعمل إيه بقى؟ مجدي بعد أن استلقي على أقرب كرسي: حقيقي والله يا عبير مش عارف ودي أول مره أقولها بصدق مش بهزار.. عمومًا أدينا مع الأيام لغاية ما نشوف البلد رايحة على فين.. يستر ربنا، ثم أشعل مجدي سيجارة وهو يقول: بصي بقى حضرى لنا عشا كويس

لأني جاي ميت من الجوع، ثم ضغط زرًا إليكترونيًا من خلال جهاز التحكم وهو يحدق بالتليفزيون قبل أن يضحك ساخرًا ويضرب كفًا بكف وملامحه تكاد تبكي قبل أن يقول البلد هتخرب بالصورة دي، ثم نهض من مكانه وهو ينادي زوجته بصوت عال: هاخد حمام على ما العشا يجهز يابيرو.. ثم هدأت نبرات صوته فجأة: وهو يهمس هما الولاد لسه عند خالهم؟

فقالت من داخل المطبخ: أيوة ولسه قاعدين هناك لبكرة، وهنا رفع مجدي حاجبيه مبتسمًا في دهاء وهو يهمس في هدوء شديد:

- عمل خير سليمان، ونعم الخال والله.

رفع حاجبيه في مكر، ثم قال بلا صوت: ليلتك فل هنعمل ثورة هنا ونسقط النظام الليلة.

وما هي إلا دقائق حتى تناول مجدي العشاء ثم تثاءب متظاهرًا بالرغبة في النوم، ثم دخل إلى الفراش لكنه لم ينم ليلته قط، لأنه كان قد قرر أن يجعلها ليلة الثورة الحمراء، وقضى الليلة التاريخية وهو يعلم يقينًا أنه لا يستيقظ مبكرًا كعادته كل صباح، وبقي في المنزل يتصفح الجرائد اليوميه كعادته في الإجازات، وإذ به يفاجأ بطرقات على الباب ورنين على الجرس بلا هوادة، وعبير تهرول إلى الباب وهي تقول وقلبها ينتفض رعبًا:

- ياساتر يارب هو فيه إيه؟ وما هي إلا ثوان وتفاجأ عبير بأخيها سليمان وزوجته رحاب وابنهما طارق، فما كان منها إلا أن صرخت في وجه أخيها مبتسمة:

- يا أخي وقعت قلبي حرام عليك أنا قلت فيه إيه ولا مين ده؟

ويدخل سليمان شقة مجدي وهو يصيح في مرح:

- أخباركم يا أهل الكهف إنتم نايمين والبلد بتولع بره؟ ثم يعانق مجدي بحرارة: فينك يا أبونسب إزيك يا مجدي عامل إيه؟

مجدي وهو يضحك: فينك يا سالامونتي أخبارك يا ابني؟

فجأه ينقبض وجه سليمان، وما زال يحتفظ بابتسامته، وهو يقول:

- منه لله صلاح السعدني.

وبعد حوار- لم يطل- اجتمع شمل الأصدقاء الذين قاربت بينهم علاقة النسب على مائدة صغيره عليها أطباق من الحلويات الشرقية (عشق مجدي الأزلي) وقد تابع الجميع بشغف ما تبثه شاشات التليفزيون المصري بقنواته الخاصة والحكومية، وصدر بيان عن الداخلية قال فيه المتحدث نصًا:

"بتوجيهات من السيد رئيس الجمهورية، وفي إطار من الحرية المكفولة لكل مواطن في التعبير عن رأيه، تم اتخاذ اللازم وإعطاء أوامر مشدده لكل أفراد الداخلية بمعاملة المواطنين بالحسنى وعدم التصدي لهم، إلا عند الضرورة ولمنع اندساس عناصر تعمل على التخريب وإثارة أعمال الشغب والفوضى".

وهنا فقط يطفئ مجدي التليفزيون قائلا:

- عليه العوض ومنه العوض في البلد دي، لسنين طويلة جاية محدش يعرف عددها كام سنة.

ولكن سليمان ينظر إلى الأرض وهو يقول هامسًا في أسى واضح:

- يا مجدي الناس فاض بيها والله يا أخي، شوف كام أسرة بتعيش في المقابر وفي حجرات من الحجارة وسقفها صفيح، وممكن يكون في الأسر دي، وده بالتأكيد بنات وشباب على وش جواز، وشوف الناس دي لما تبقى

على بعد أمتار منهم مناطق كلها فيلات وقصور وناس بتجيب الأكل في الحفلات الخاصة بالطيران، وحتى الملابس بتستوردها من بره وفيه ناس بقت بتبيع لحمها وأحيانًا دمها ولا أعضاءها وممكن شرفها كمان علشان توفر حق اللقمة والمكان اللي يؤويهم وحتة القماش اللي تسترهم ولسه الإعلام بيتكلم في حرية وديمقراطيه وأحزاب، والله اللي عايشه فيه الناس في البلد دي حرام وكفاية نهب بقى وسرقة لحد كده، كان لازم الناس تتحرك عشان اللي فوق يحس بالغلبان.

فجأه مجدي يحاول كسر حده النقاش بقوله:

- خلاص يا عم ده التليفزيون كان أرحم، يا ساتر عليك، ثم يبادره مجدي بسؤال مفاجئ يخرج به من معترك السياسة قائلا: قل لي يا سليمان هتبقى أب ولا؟ ولا لسة مافيش جديد؟ كنت سمعت أنه فيه أخ لطارق.

سليمان يوارى الخجل الذي اعترى ملامحه بابتسامة مكسورة لأنه يعلم أن زوجته تواجه صعوبة في الإنجاب:

- كل شيء بأوان. ويخرج مجدي وسليمان إلى الصالة بعد أن نادت عبير مجدي:

- أجيب الشاي ولا إيه؟

ويحتسي الصديقان كوبين من الشاي، وفجأة يقرر سليمان العودة إلى دار السلام، وهنا يرمقه مجدي بنظره تنم عن دهشة واستنكار:

- يا راجل اتق الله ازاي تمشي دلوقت؟! خليك للصبح.

سليمان:

- معلش يا صاحبي ظروف المواصلات بقى وإنت عارف، عشان المدام



والأولاد بس. ثم يودع سليمان أخته وزوجها ويغادر إلى بيته، وينطلق مجدي بصحبة سيلمان وزوجته مودعًا، ثم يستقل الجميع سيارة مجدي ويقود مجدي سيارته وهو يرتجف خوفًا من أعماقه لكنه يبدي لا مبالاة عميقة، حتى لا ينعكس شعوره الداخلي على ضيوفه، وما إن يصل إلى المكان الذي حدده سليمان حتى ينصرف بعد أن ودعه، عائدًا إلى بيته، ولكن قبل أن يصل إلى بيته يفاجأ باتصال هاتفي من زوجته تطلب منه شراء ما يلزم البيت لكنها للمرة الأولى تطلب منه بإصرار رغم حديثها الرقيق أن يشترى فول سوداني وفستق وبعض المقرمشات، ويسألها مجدي في دهشة:

- ليه الحاجات دي اشمعنًا النهارده يعني؟

عبير تبتسم في مرارة:

- حد عارف الوضع ده هيستمر قد إيه؟

الفصل الخامس

لم يبد مجدي اعتراضًا، ونفذ ما طلبته زوجته التي مكثت طويلا أمام شاشة التليفزيون تراقب ما يحدث بقلق، ولا يشغلها سوى مصير زوجها وأبنائها، وتمضي ساعة بعدها ساعات ولا حديث لقنوات التليفزيون إلا عن الصدام بين الشرطة والمتظاهرين بالميادين الكبرى والشوارع الرئيسية بالقاهرة، ويعود مجدي إلى بيته خائر القوى إلا أنه يقاوم الإجهاد حتى يهرب مما يسيطر على عقله وقلبه من قلق واضطراب، مواجهًا كل تلك المخاوف بالهروب إلى حياته الخاصة ومشاكل الدراسة والأبناء، فبدأ يساعد ياسر ابنه الأكبر في دراسته، وما هي إلا ساعات قليلة حتى تسرب الملل إلى نفسه فدخل إلى فراشه لينام، لكنه قضى وقتًا ليس بالقليل حتى استغرق في نومه، متناسيًا ما يدور حوله من أحداث لم يدر بفكر أحد أن يراها وما إن أشرقت الشمس حتى نهض مجدي من فراشه وأدى صلاته وتناول الإفطار، وبعدها بقليل يشاهد مجدي على الشاشة تطورات الأوضاع، فإذا به يفاجأ بأن الأمور ليست على ما يرام، ويجري مجدي اتصالات هاتفية بأولياء أمور بعض الطلاب ليعتذر عن موعد بعض الدروس الخاصة، وفجأه يتخذ قرارًا يبلغ به زوجته وأبناءه فورًا:

- عبير إيه رأيك تقضي معايا الفترة دي في الفيوم؟

عبير في دهشة:

- إشمعنى؟

مجدي:

- إيه اشمعنى دي هندخل لبعض قافية ولا إيه؟ ده مجرد اقتراح، وفي هدوء اقترب من زوجته هامسا: اعتبريها رحلة، آهو نغير جو أنا وأنتي والأولاد لأني قلقان من اللي بيحصل في البلد اليومين دول، وشكلها كده مش زي كل مرة، جهزي نفسك إنتي والأولاد.

ولم تجد رغبته اعتراضًا من الزوجة التي كان الرعب مما شاهدته على الشاشة قد استبد بقلبها، فلم تجد مفرًا من الانصياع لرغبة زوجها، وما هي إلا ساعات حتى غادر مجدي القاهرة متجها إلى الفيوم وبرفقة أسرته فرارًا من العاصمة، بعد أن حصل على إجازة من العمل لأسبوع متواصل، ويصل مجدي إلى القرية التي كان يقيم بها بعض أقاربه بعد ساعات من القيادة في ظروف بالغة الصعوبة، وما إن دخل البيت الذي اشتراه مؤخرًا في تلك القرية حتى استأذن الزوجة في أنه يريد أن ينام ساعات قليلة بعد أن قدم لها وعدًا بأن يسهر حتى الصباح حتى لا يتركها فريسة للملل، لكنه راح يغط في سبات عميق ولحق به ياسر وهيام، لتبقى عبير وحيده ليس أمامها سوى قنوات التليفزيون والثرثرة مع الصديقات، ويقضي الزوجان ليلتهما في هدوء كما كان مجدي يتوقع وأكثر، لأنه يعلم طبيعة الريف التي تجهلها زوجته، حتى أنه بعد أن تناول العشاء خرج برفقتها إلى الحقول التي تجاور منزل مجدي في بداية الليل فلم تجد عبير إلا هدوءًا قاتلًا لا يقطعه إلا صوت الرياح وحفيف الأشجار ونقيق الضفادع، عبير تمزق ستائر الصمت الذي خيم على المكان:

- الله يا مجدي قد إيه الريف جميل ونقي وهادي مش، عارفة أنت ليه

رافض الريف وبتكرهه بشراسة كده؟ من سنين طويلة محرومة أنا من الجمال ده كله.

مجدي يبتسم في سخرية:

- أنا مش باكره الريف أنا باكره الأيام السودة اللي عشتها في الريف وأنا صغير، ولولا إني ليّ أقارب هنا ماكنتش فكرت اشترى بيت، ثم ينظر إليها وعيناه ترمقانها.. بنظرات ذات مغزي .. والنبي يا عبير بلاش تتكلمي في الموضوع ده لأني والله لو اتكلمتي فيه تاني لأحلف ما أنا راجع البلد دي لحد ما أموت.. ثم ضحك فجأة حتى لا يكدر صفو ليلته.. باقول لك إيه بقى يا عبير شوفي حاجه تانية نتكلم فيها أو تعالي نروَّح لأني بصراحة نفسي أعرف إيه الجديد في البلد.. ولم يكمل عبارته حتى نظرت اليه زوجته وهي تحدق فيه بدهشة عقدت لسانها عن الحديث إلا أنه قطع عليها دهشتها بقوله: أنا اقصد مصر بلدنا كلنا، مش البلد دي.

ثم ضحك وهو يضع يده على كتف زوجته محتويًا مخاوفها ودهشتها إلى أن عاد إلى بيته ونام في هدوء بعد أن اطمأن على أطفاله الذين يقضون ليلتهم في حجرتهم الخاصة، وفي صباح اليوم التالي نهض مجدي من نومه مبكرًا كما اعتاد منذ الطفولة وارتدى ثوبًا ابيض واستعد ليؤدي صلاة الجمعةن ثم غادر البلدة مساءً بقرار مفاجئ وامضى أسبوعًا دون أن يشغل فكره بأي شيء سوى عمله وبيته وزوجته قبل أن يعود إلى قريته مرة أخرى.

فريد يجرى اتصالا هاتفيًا بمجدي، ويتفق معه على أن تجمعهما الصلاة في مسجد قريب من بيت مجدي ويتفق مجدي مع خالد على أن يلتقي الجميع بعد الصلاة، وفي ذلك الوقت كان مدحت مقيمًا بالقاهرة ، يصعد الشيخ حاتم الرويني إمام المسجد المنبر ويخطب في الناس محذرًا من مغبة

الفتنة التي حاقت بالبلاد وضاقت معها صدور العباد وبعد انتهاء الصلاة ينصرف الناس إلى بيوتهم، لكن مجدي ينفرد بالشيخ حاتم الذي كانت تربطه به صلات قديمة أيام الدراسة الجامعية فيسأله في هدوء حذر:

- إيه اللي بيحصل في البلد اليومين دول يا شيخنا؟ مين على حق؟ القوى السياسية ولا الأحزاب ولا حركة 6 إبريل ولا الإخوان ولا الحكومة ولا بتوع كفاية والله ما بقيت عارف الدنيا رايحة بينا على فين؟ ثم يكمل في دهشة والحيرة تعتصر قلبه: أنا مش قادر أحدد بالضبط مين هو صاحب الرأي الصواب ومين على خطأ؟

خرج حاتم عن صمته:

- دي فتنة يا عم مجدي ولا تقول لي ربيع عربي ولا تقول لي ثورات، دي مهزلة هدفها سحق الدول العربية وتفتيتها ونسف أي بادرة أمل في إن الدول دي يكون لها كيان مؤثر في صنع القرار وآدينا شايفين بدأت المأساة من تونس ووصلت لمصر وماحدش عارف هنوصل لغاية فين تاني؟

مجدي في دهشة: يعني إنت رأيك إيه؟

حاتم الذي بدي متحفظا:

- يقول الله تعالي واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة.

مجدي:

- ماشي يا شيخنا، بس فيه ناس كتير هتدفع تمن كل ده، ولا ناقة لهم ولا جمل.

حاتم يغشي وجهه الكدر: يقول الله تعالى ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون،

طيب اللي ظلموا هما الكبار اللي استحلوا الحرام وسرقوا البلد والغلابة ذنبهم إيه؟

- أي مذنب لازم يكون له ضحية يا مستر مجدي، وإلا ما يبقاش العقاب له مبرر

.. استأذنك يا باشا ولينا لقاء قريب إن شاء الله.

مجدي يفاجأ بخالد الذي أقبل، وإذ به يقول: الدنيا بتغلي في ميدان التحرير والشوارع الرئيسية واضح إنه النهارده يوم مش طبيعي.

مجدي في مرح كعادته:

أيوه مش طبيعي إزاي يعني.. ينظر خالد مندهشًا وقد اتسعت عيناه عن آخرهما ثم ينفجر غضبًا: باقول لك يا مجدي حاسس إن في كارثة هتحصل في البلد النهارده

فريد: أي بلد يا عم خالد؟ بلدنًا دي؟

وفي لحظات يتحول خالد ببصره إلى فريد الذي جاء كأنما هبط من السماء فجأة ليزيد الموقف ارتباكًا، ثم يقول بابتسامة يشوبها قلق مجهول السبب:

- بس هي كده كملت.

خالد وقد احترقت كل قطرة في دمه:

- فريد بالله عليك وحياة النبي ياشيخ مش طالباك خالص النهارده، تعالى نروَّح وبينًّا اتصال نشوف إيه ممكن يحصل ربنا يسترها يا جماعة أنا قلقان جدًا بصراحة.. أنا مسافر دلوقتي الهرم، لأني ماينفعش أسيب مراتي وولادي هناك لوحدهم، وخصوصًا النهارده. وهنًا ينظر مجدي في دهشة

ويرتفع حاجباه قبل أن يقول:

- قصدك بناتك يا خالد.

خالد:

- يا عم رضًا كل اللي يجيبه ربنا كويس هو إحنا جهله يعني؟

ويتجه كل واحد إلى مقصده ليفاجأ مجدي بزوجته وهي تصرخ في وجهه:

- إلحق يا مجدي.

مجدي في قلق بالغ:

- خير فيه إيه؟ بالراحة واهدي.

عبير تحبس أنفاسها:

التليفزيون بيقول إن الداخلية انسحبت من الشوارع والميادين وكل الأماكن اللي كانت بتـأمنها والناس بتأكد أن الجيش هينزل الشارع.

لحظة صمت طويلة تسيطر على الجميع قبل أن يقول مجدي وهو يطبق شفتيه ويغض بأسنانه على شفته السفلى فيما يوحي بالحيرة والارتباك:

- يسترها ربنا لأن الوضع كده بقى صعب، أنا رايح ألحق خالد قبل ما يسافر الهرم

لأن تليفونه غير متاح وأنا خايف عليه.

وينطلق مجدي تاركًا عبير بمفردها تتابع ما يحدث بشغف من خلال شاشات الفضائيات المصرية والعربية ويعلن التليفزيون أن الأوضاع في مصر بالغة السوء، بعد انسحاب الداخلية، وتعرض الشاشات صورًا لحرائق

في مبان حكومية وخاصة، وفنادق ومنشآت بالقاهرة وبميدان التحرير، وتدخل البلاد بعد هذا اليوم في نفق مظلم، وبعدها تبدأ الناس في المبيت في الشوارع ليلا والنوم داخل البيوت نهارًا، ويتبادل الآباء والأمهات والأبناء أدوارهم في حماية البيوت والشوارع، كل بيت وكل شارع يموج ليلا بأبنائه.

خالد يجرى عدة اتصالات هاتفيه بمجدي وفريد ليطمئن عليهم وفي كل مره يقص خالد على الأصدقاء ما يراه في كل مكان حتى أنه ذات يوم كان يتحدث إلى مجدي:

- تصور لما رجعت هنا فوجئت بانه ابن البواب قاعد تحت بيضرب شيشة وبيسلق لحمة، وكمان لقيته قاعد بيسمع أغاني لفاطمة عيد؟

وهنًا ينفجر مجدي غيظًا رغم ابتسامته ثم يعلق مندهشًا:

- الناس دي ولا هي هنا كأنهم سكان كوكب تاني يا عم الحج عايشين حياتهم ولا فارق معاهم مين يحكم ولا مين يمشي.

وتمر الأيام وفجأه يتنحي رئيس الجمهورية في خطاب رسمي يتلوه نائبه، ثم تتغير الحياة على أرض مصر مرات ومرات، وتمضي الحياة بالأصدقاء حيث يقترب مجدي من أهل قريته شيئًا فشيئًا، ويهرب من جحيم العاصمة بعد كل تلك الأحداث العصيبة التي مرت بها البلاد، ولكن تتوالى الأحداث، وتسارع وتيرتها، لم ينس مجدي ماضيه الأليم مع صديق السنوات الصعبة مدحت حمدي، ويغيب مجدي بقرار مفاجئ عن البلدة لعدة شهور لكنه يتواصل مع الأصدقاء تليفونيًا، وعبر فيس بوك، وبعد فتره تأكل الشكوك قلب عبير تجاه سلوكيات مجدي المتقلبة والتي تميل إلى التناقض الشديد، فيقرر مجدي أن يبتعد بنفسه ليومين كاملين في عزلة اختياريه فرضها على نفسه، ثم يعتزل الدنيا كلها بلا مبرر واضح، كأنما أراد أن يقتل في نفسه

آخر آثار الماضي الذي يلوث حاضره ويهدد مستقبله، في تلك الأيام أصبح الناس يقضون أيامهم ولياليهم في حماية بيوتهم وأبنائهم وما يملكون، وسهر الشباب والكبار، وابتكر الناس ما تمت تسميته- فيما بعد- اللجان الشعبية، في كل قرية ومدينة، وأصبح المواطنون التي فرضت الدولة عليهم حظر التجوال يتجولون في الشوارع ليلا أكثر من ذي قبل، وكان الناس يحرقون أغصان الأشجار الجافة وإطارات السيارات في الشوارع ليلا، وبات المسلم يساعد المسيحي في حماية ما يملك، وكذلك المسيحي يحمي المسلم في وقت الصلاة، وظهر معدن المصرى في تلك الأزمة العصيبة، وأصبحت الجماعات المختلفة ذات التوجهات الأيديولوجية المتناقضة تسيطر على المشهد العام في البلاد، والذي يزيد ارتباكًا مع مرور الوقت من يوم إلى آخر، ويتصل مجدي بزوجته كل مساء وهي لا تعلم لماذا يختفي في ظل تلك الأزمات ويتركها مع أبنائه في القرية البعيدة في غرب الجيزة، الآن فقط يمضي كل صديق فيما كتبت له الأقدار من سبيل وبعد غياب مجدي لأيام معدودة- لم يعلم أحد سبب غيابه فيها إلا الله، ثم مجدي نفسه- يعود إلى القرية التي تربى ونشأ فيها بروح مختلفة، متقربًا إلى الناس ودودًا وبشوشًا أكثر مما كان عليه، رغم أنه لم يكن مكروهًا من أحد، لكنه لم يكن يطيق البقاء باردًا لم ير منها فيما مضي إلا ظلمًا وقهرًا وكبتًا لرغباته وتكبيلا لحريته، ولذلك- ورغم قسوة الظروف الراهنة- قرر مجدي الاختفاء حتى لا يواجه زوجته وأولاده والأصدقاء بمخاوفه المجهولة التي كانت تصيبه بنوبات مفاجئة أثناء نومه، تبدو في صورة هلاوس وهمهمات خافتة لا تعبر عن معان واضحة، وكانت تؤثر سلبًا على سلوكياته في التواصل اليومي مع زوجته وأقاربه وبعض المحيطين به، وعند عودة مجدي إلى القرية تستقبله الزوجة بأسئلتها المعتادة لكنها كانت تختلف كثيرًا في هذه المرة عن ذي قبل، مجدي يطرق باب شقته

ويقول في هدوء:

- أيوة يا عبير أنا مجدي.. لسه نايمة ولا إيه؟

عبير في غضب:

- حمد الله على السلامة.. هي طردتك؟

مجدي وقد استشاط غضبًا:

- عبير أنا مش طايق نفسي.. أسلوب السخرية ده ممكن يوصلنا لنتيجة مش كويسة، وعيب بعد كل السنين دي نتعامل بالشكل ده! ثم يتمالك أعصابه قائلا في هدوء: مش أنا اللي اخبي حاجة عن حد، ولو حتى روحي بين إيديه.. إنتي فاهمة؟ وبعدين أنا مش عايز أقول لك أنا كنت فين وغايب ليه من غير ما حد يعرف.

وتتحول عبير فجأة إلى صورة أخرى غير التي لاقته بها، فتقول في هدوء:

- مجدي حبيبي أنا مراتك وأم أولادك لو مخبي عالدنيا كلها اللي جواك أنا لازم أعرف ايه اللي مخليك مش طبيعي، أرجوك صارحني، أنا تعبت من كتر الضغوط اللي بقينا عايشين فيها، حالنا اللي مش قادرة افهمه، وحال البلد اللي كل يوم بيعدي بيبقي أسوأ من اللي قبله، حرام عليك أعصابي تعبت... ثم تصرخ باكية بعد أن فقدت السيطرة على مشاعرها.. أرجوك كفاية غموض حرام عليك أنا بشر مش إله، يا ريت ترحمني وتقول لي فيه إيه مالك؟

مجدي في هدوء وعلي وجهه ابتسامه شاحبة:

- حبيبتي والله ما فيه حاجة، تعب الشغل بس، وشوية إرهاق عادي كده.

وبدا عليه أنه يحاول- حتى الرمق الأخير- أن يحتفظ بعلاقة متوازنة

مع زوجته لم يستطع ولم يجرؤ لحظة على أن يبوح لها بما يؤرقه حين خسر صداقة عمر تزيد على عشرين عامًا، فلم تكن عبير تعرف مدحت أو حتى لم تسمع شيئًا من الأصدقاء عما كان يربط بينه وبين زوجها من صداقة استمرت طويلا حتى أضاعتها الأيام بعد أن كان مدحت ومجدي يتقاسمان الحياة بكل ما فيها، حتى نسمات الربيع كانا يستنشقانها معًا، حيث كان الصديقان يجمعهما طعام وشراب وثياب واحدة وغطاء واحد في ليالي الشتاء، ولكن مجدي تجاوز ما حدث تمامًا وعاد إلى القرية وانزوى بعيدًا لفترة طويلة قبل أن يسترد قواه ويعود من جديد ليواجه الدنيا كلها منفردًا، وتمر الأيام بروتينية شديدة حتى طلبت عبير من زوجها زيارة بيت أبيها ونزولا على رغبتها وافق مجدي ثم عاد وحيدًا كما كان يعيش قبل زواجه، لكنه في تلك المرة وحيدًا لعدة أيام وعاد إلى الكتب والقراءة، لكنه بات عبئًا على أخواته في الاعتناء بثيابه وطعامه كما كان قبل زواجه، بينما بقيت عبير والحيرة تعتصر قلبها ولا تدرى ماذا تقول لأمها ولا أبيها سوى إنها لم تعد تجد في زوجها ذلك الفتى الريفي الطيب الذي عرفته قبل الزواج، ويقرر الأب فتحي بهنسى أن يلتقي بمجدي دون علم ابنته، وفي صباح اليوم التالي لزيارة عبير لأبيها يفاجأ مجدي باتصال هاتفي من الدكتور فتحي والد زوجته، وفي صوت يخالطه النعاس:

- آلو مين معايا؟

- دكتور فتحي يا مجدي إنت فين؟

مجدي يعتدل في فراشه ويرد باهتمام:

- أنا في البيت يا دكتور في البلد، أقصد... ثم يستطرد قائلا: صباح الخير أولا عبير والأولاد بخير ولا فيه حاجة لا قدر الله؟

دكتور فتحي: كلنا بخير يا ابني إنت اللي أحوالك مش تمام، أنا عايز أشوفك.

مجدي:

- تحت أمر حضرتك إمتى وفين؟

دكتور فتحي:

- تعالي بكره العيادة 6 مساءً أنا في انتظارك ضروری تعدي عليّ.

مجدي في لامبالاة وهو يتحامل لإظهار الاهتمام:

- حاضر يا دكتور زي ما تحب.

ثم يتثاءب متأوها وهو يشبك يديه خلف رأسه، وينهض من الفراش، وما هي إلا ثوان حتى صنع كوبًا من الشاي وأشعل سيجاره ثم ارتمى على كرسي حجرة مجاورة لحجرة نومه، وبدأ يقلب صفحات الجرائد بلا اهتمام، كان يتصفح العناوين الرئيسية لكنه لم يجد ما يسترعي انتباهه أو يستحوذ على اهتمامه، فألقى الجريدة غير مكترث بما فيها ثم نهض على الفور وهو ينوي التوجه إلى فريد، ويقرر مجدي أن يحلق ذقنه بيده، وإذ به يتوجه إلى التليفزيون الذي لا يشاهده أحد إلا قليلا، وعندما تكون الأسرة في زيارة للقرية رغم تباعد الأيام والشهور بين كل زيارة وأخرى، ويلقي ببصره لإحدى الفضائيات المصرية التي تتكلم عن جرائم القتل بين الأزواج، ويصعق مجدي لهول ما يرى أنه صورة لشخص، تسمر مجدي في مكانه وهو يحملق في الشاشة التي أمامه ويعتصر ذهنه مصغيًا إلى ما يقال لعله يستوضح الأمر، لكنه لم يدرك شيئًا، ففي تلك اللحظة ينقطع التيار الكهربي عن المنزل، ويتأفف مجدي وهو يستعيذ بالله ثم يغادر الشقة وهو يلعن كل

شيء، ويشعل سيجارة، ما هي إلا ثوان وينطلق بسيارته إلى حيث يلتقي فريد قبل أن يفاجئه:

- فريد شفت اللي حصل؟

فريد في هدوء وسخرية كعادته:

- يا أخي قل سلام عليكم الأول.

مجدي يدرك أنه في غمرة إنشغاله بالأمر تصرف بعصبية كعادته:

- آسف يا فريد سلام عليكم.. ثم يستطرد قائلا: هو فيه إيه؟ صورة مدحت حمدي نازلة على شاشة التليفزيون أنا حاسس إن فيه حاجة مش طبيعية في البلد.

فريد في سخرية:

- أي بلد؟ اللي إحنا فيها دي القرية يعني؟ ولا مصر كلها؟ ولا؟

يقاطعه مجدي:

- فريد عشان خاطر ربنا خليك واضح وقل لي في إيه؟

فريد:

- ولا حاجة مدحت صاحبنًا حاول يقتل ريهام مراته واتقبض عليه.

مجدي في ذهول وهو يستلقي على كرسي قريب:

- يقتل مراته؟ ريهام؟ معقول ده؟

فريد في غضب وهو يكظم غيظه:

- ما يقتلها يا عم ولا يولع فيها حتى إنت فارق معاك ايه يعني؟ هو كان من بقية أهلك ولا هي كانت بنت خالتك؟ ياكش يتحرقوا الاتنين ببنزين..

ثم يعود فريد إلى هدوء الأعصاب تدريجيًا: شد كرسي واقعد هنبعت نجيب فطار مع أحلى إتنين شاي ونعيش الانتعاش يا كبير.

مجدي يبتسم في مرارة:

- نعيش الانتعاش؟ انتعاش إيه في الأيام السودا دي ؟هو اللي حصل ده كان إمتى؟ وفين؟ وازاي؟

فريد بغضب شديد:

- يا مجدي اعقل شوية إنت عندك زوجة وأولاد.. ثم يفاجئ مجدي بقوله: إنت ماقولتش صحيح هي مراتك وعيالك هنا ولا في الهرم؟

مجدي في هدوء وهو ينظر إلى الأرض:

- العيال عند جدهم يا فريد، أنا جاي لوحدي، كنت عايز ارتاح يومين في عزلة تامة عن الناس والدنيا كلها.. ولكن؟

فريد:

- ولكن إيه يا عم الأمور، إنت شفت حاجة أصلا؟ استنى بس أنا هاخليك تشوف اللي عمرك ما شفته.. وفجأه فريد يضيئ جهاز الكمبيوتر الشخصي الخاص به، ومجدي ينظر في دهشة، ثم يقول في غضب وأنفاسه المضطربة تتلاحق: يا عم بالله عليك هو ده وقته؟

ثم ينهض مجدي من مكانه وهو يهم بالمغادرة، فيقول فريد:

- يا عم والله انتظر بس دقايق أنا هاعرض لك حاجة شفتها عاليوتيوب.. ثم ينهض وافقًا تعالي بس وخليك جنبي علشان تشوف كويس.

فإذا بمجدي يستجيب لنصيحته ويقترب من الشاشة قليلا، ثم يقول في هدوء وهو يهز رأسه مبتسمًا في مرارة: والله عشنا وشفنا.. حياتنا بقت

بتوصل للفضائيات واليوتيوب.. ثم ينظر خلفه محدثا فريد، وهو يقول في هدوء يخفي وراءه بركانًا خامدًا لم ينفجر بعد: - مش هنفطر طيب؟ ثم يتناول قطعة من الخبز وثمرة طماطم وينظر إليه فريد في دهشة، وهو يقول:

- فيه محشي ولحمة جوه يا عم غاندي.. ثم يضحك ويضيئ شاشة الجهاز للمرة الثانية، ويظهر على الشاشة وجه شخص عليه بعض الرسومات والإضاءات المقصودة لإخفاء شخصية صاحبه، وهو يقص أحداث موقف ما، ولماذا أقدم على محاولة قتل زوجته، وفجأة مجدي يحملق بشدة وعيناه تكاد تغادر محجريهما، إنه لا يصدق ما يرى- ولا يكاد يعي ما يسمعه- ثم يصرخ في أعماقه بلا صوت:

- معقول مدحت يفكر يقتل ريهام بعد خيانته ليا معاها؟ حسبي الله ونعم الوكيل.

كان بركان الغضب قد انفجر في قلب مجدي لكنه يبدو ليس على وجهه، ثمة تأثر بما يرى فريد صامتًا، وعيناه تراقب مجدي، يشعر بما يدور في أعماق مجدي وهو ينظر إلى عينيه المحدقتين في الشاشة الصغيرة، التي تعرض وقائع جريمة لم تكن تخطر يومًا ببال مجدي إنها قد تكون نهاية دفع مجدي ثمنها من حياته وماله وكرامته، لا يزال مجدي صامتًا، كوب الشاي يسقط من يده وينفجر على الأرض متناثرًا، وفجأه مجدي يقطع الصمت الطويل المخيم على المكان الذي ليس فيه سوى صوت مدحت من خلال الشاشة:

- لا اله إلا الله.. ثم يتمتم قائلا في همس: إنك على كل شيء قدير يا رب!

فجأة يتجه ببصره إلى فريد وهو يهمس في ذهول: إن ربك لبالمرصاد..

شفت يا فريد؟ ثم يكرر في ذهول: شفت يا فريد؟ يعود إلى وعيه في لحظات: باقول لك إيه أنا ماشي.

ينهض فريد الذي جلس من تأثره بما رأى، وهو يضرب أخماسًا في أسداس، محاولا إيقاف مجدي الذي ينطلق بغير وجهة محددة، غادر الصيدلية وانطلق، ولا يعلم إلى أين لكن سيارته كانت تنطلق مخلفة وراءها سحابة من دخانًا كثيفًا وغبارًا يملأ المكان، وانطلق مجدي، كان صمته البادي عليه يخفي داخل صدره بركانًا من الأسئلة يقذف حممه، إنها أسئلة حائرة تبحث عن إجابة، وإذًا به يختنق ويتنهد في صعوبة، ليس لديه متسع من الوقت ليفكر في ما يجب عليه فعله الآن، كل ما يدور في عقله الآن ماذا تحمله الأيام المقبلة؟ يلتقط هاتفه من خلف عجلة القيادة ثم يتصل تليفونيًا بخالد الذي أخذته الحياة بأمواجها المتلاطمة بعيدًا، وإذ به يبلغه في هلع ورعب بالغين قبل أن يطمئن حتى على أحواله:

- أيوه يا خالد أنا مجدي، عرفت آخر الأخبار؟ سمعت اللي حصل النهارده؟

خالد منزعجًا بصوتًا يخالطه النعاس:

- خير يا مجدي؟ مالك يا حبيبي وأخبارك إيه؟

مجدي والحزن ينبعث من كلماته: عِرفت إن مدحت صاحبنا حاول يقتل مراته؟

خالد في دهشة بالغة:

- مراته؟ تقصد ريهام بتاعة إسكندرية اللي كانت...؟

ويقاطعه مجدي:

- اللي كانت خطيبتي قبل ما مدحت يقرب منها ويغير حياتها ويحول مشاعرها ناحيتي لكراهيه بعد ما كان هو أكتر واحد بيقول عن تعلقها بيًا إنها بتحبني حب أسطورى ماحصلش قبل كده ومش هيحصل تاني.

خالد:

- عجيب حال الدنيا والله.. ثم يبتسم قائلا: طيب إنت أولا زعلان ليه؟

مجدي في دهشة:

- زعلان ليه؟ ياسلام انت شايف إن ده أمر عادي يعني يا خالد؟

خلد:

- يا سيدي يمهل ولا يهمل.. ثم قائلا: هما مش ظلموك يا ابني.؟ ربك عادل وكريم وفجأه خالد يحول مسار الحديث: قل لي الأول انت فين دلوقتي؟

مجدي في هدوء:

- أنا داخل عليك عايز أشوفك ونفسي أتكلم معاك.

خالد في هدوء:

- حبيبي تشرف في أي وقت، بيت أخوك وتحت أمرك في أي وقت، أنا في انتظارك كل الحكاية ساعة زمنـ عندي حصة هخلصها وفاضي باقي اليوم.

ويصل مجدي إلى شارع فيصل ثم يتحين الفرصة عند منطقة الطوابق، ليجد مكانًا هادئًا، ويغادر سيارته ليتناول كوبًا من عصير، وبعده يتناول غداءً خفيفًا لعله يستنفد بعض الوقت قبل لقائه بخالد الذي استقبله في بيته بحفاوة كعادته، ولكن كان حازمًا معه على غير عادته في الحديث مع مجدي، فلم يرحم قلبه المرتجف بلا سبب، وانفجر فيه غاضبًا:

- إنت زعلان ليه يا ابني؟ ربنا بيعاقب اللي أجرم في حقك وخانك وإنت

تزعل؟

مجدي في هدوء بعد أن استلقى على كرسي وأسند ظهره إليه:

- يا خالد أنا مش زعلان، أنا مندهش من غرابة الحدث ده مش أكتر، لأن آخر ما كنت أتوقع أن حد يبيع إنسانه سابت غيره علشانه يقوم بعد ما يتجوزها يفكر يقتلها؟

خالد:

- يا مجدي البنت دي أصلا قليلة الأصل، لأنها لو عايزاه من البداية أنا فاكر زمان إنك قلت لي إنك عرضت عليها قبل ما تخطبها إنك تعرفها عليه من باب إنك شايفها طيبة وشايف ظروفه صعبة ومحتاج بنت تكون بنت حلال وتسانده في حياته، ولو هي عايزاه اختارتك ليه؟ كوبرى مثلا؟ ما تفوق يا عم مجدي والنبي بالله عليك.

مجدي مندهشًا وهو يبتسم في مرارة:

- ما أنت ذاكرتك ما شاء الله قوية آهو ولسه فاكر!

خالد يبتسم في مكر:

- هو موضوعك ده يتنسي أصلا يا عم الحج؟!

ثم يستطرد قائلا:

- قل لي بقى تشرب إيه على ما الجماعة يجهزوا الغدا؟

ينهض مجدي منفعلا وهو يهم بمغادرة الشقة قائلا:

- غدا إيه وشرب إيه هو أنا ناقصك؟

يضحك خالد بقوة:

- يا راجل حرام عليك لسه فيك الاندفاع ده مش هتبطله أبدًا؟ ثم يصمت قليلا وهو يبتسم في دهشة موجها نظره إلى مجدي.. مش ناوي تعقل بقى؟ بقيت أب ولسه زي ما أنت من أيام الثانوي؟

وهنا يبتسم مجدي، وتهدأ أنفاسه بعد أن كان في أشد حالات التوتر قبل دقائق معدودة،

ثم يعود إلى الكرسي الذي كان يجلس عليه ويسترخي مرة ثانيه وهو يتأوه قائلا:

- ياااااااه يا خالد عشت مع البنت دي أيام كانت بالنسبة لي حلم جميل، كنت حاسس اني مسحور وأنا خاطبها، وكانت كل لحظة بيني وبينها تنفع حكاية غرام.. ثم صمت قليلا وهو ينظر إلى الأرض ثم رفع عينيه فجأة وجال ببصره في أنحاء المكان قبل أن يقول: وكل بوسة وكل لمسة وكل حضن.. ثم يتنهد متأوهًا: يا بوووي كانت أيام الله يحرقك يا...

ثم بتر عبارته فجأة وهو ينظر إلى وجه خالد الذي انفجر ضاحكًا بعد صمت طويل قبل أن يفاجئه بسؤال لم يتوقعه لكنه قال فجأه:

- هل مدحت كان يعرف أنه علاقتكم ببعض فيها كل التجاوزات دي؟ بوس وأحضان ومص شفايف وشغل الأطفال بتاعك ده؟

يبتسم مجدي ساخرًا:

- أطفال؟!

- الله يخرب بيتك يا مجدي دي البنت كانت مقضياها معاك أفلام من إياها ولا إيه؟ ثم ضحك بقوة وفجأة قاطعه مجدي فجأة في صرامة:

- هو أنا كنت هاروح آخد إذن منه علشان أعبر لخطيبتي اللي كنت باحبها

عن مشاعرى ولا إيه يا خالد؟ إنت فكرتني بلحظه مش هانساها عمرى كله، لما مسحت الروج بتاعها من على وشي بمنديل وردي، وكانت بتقول وهي في منتهى السعادة استنني يا وله هتودينًا في داهية، عايز تدخل عليهم وأنت متنيل كده كأنك واكل بطيخ؟ هز خالد رأسه مندهشًا:

- أنا مش عارف بعد كل ده ازاي تسمح هي لنفسها تعمل علاقة مع حد تاني؟

لكن مجدي قاطعه قائلا في سخرية تاني إيه وتالت إيه بس؟ ثم استطرد قائلا: ده أنا كنت ناقص أنام معاها بعد ما عرضت نفسها عليّ، لكني مع الأسف.. ثم يصمت فجأة قبل أن يصرخ خالد في دهشة: واد يامجدي! مع الأسف إيه يخرب بيت أبوك إوعَ تكون عملتها.

يبتسم في حسرة:

- عملت إيه يا عم؟ أنا كنت أقصد أقول لك مع الأسف تعففت، لأني كنت فاكرها بنت ناس، طلعت بنت... ثم ساد الصمت ثواني، قبل أن يقول مجدي" ده أنا كنت...

رد خالد فجأة:

- يا عم خلاص اللي حصل حصل وانتهى.

مجدي مفترسًا وجه خالد بعينيه:

- انتهى؟ لا لسة طبعًا ماهو صاحبنا كمل اللي أنا ماعملتوش.. ويضحك ساخرًا وهو يشعل سيجارة، خالد والذهول يسحقه:

- يا نهار أبوك أزرق، يعني هو ماكنش يعرف إن العلاقة بينكم عميقة للدرجة دي؟

مجدي:

- لا طبعًا يعرف مني يعني ولا إيه؟ هو أنا هاروح أقول له مثلا بعد إذنك يا مدحت أنا هاروح أخطف بوسه وراجع لك؟ ولا أقول له أنا بوست وحضنت وعملت كذا النهارده؟ إنت مالك يا خالد مش طبيعي ولا إيه؟ ما تصحى شوية ثم يضحكان معًا، لكن خالد ينظر إلى الأرض مندهشًا، وقد بدا عليه الآسى والتأثر قبل أن يقول في صمت محدثًا نفسه: ماحدش عارف مين أذنب في حق مين يا مجدي.

فجأه خالد يعلق مندهشًا:

- بس الواد مدحت ده برضه ندل، وأبو البنت راجل خسيس، وماعندوش دم إنه يقبل بحاجة زي دي، إن بنته تعتبر سلعة بين اتنين ومن مكان واحد، ويبدل راجل براجل تاني، ثم يستطرد والدهشة لم تفارق نبرته: ده ولا اللي بيأجر محل لاتنين من التجار وكأنه حولها لبضاعة فعلا، ثم يسأله مندهشًا: إيه ده يا عم هو فيه كده؟ قبل أن يضحك وهو يضرب كفًا بكف.

مجدي:

- هي دي الدنيا، ولسة ياما هنشوف يا عم خالد، ثم يطرح سؤالا مفاجئًا: بنتك رانيًا فين يا خالد؟ وحشتني البت الأروبة دي، ثم يبتسم مواريًا شعورًا بالحسرة يغمر ملامحه بلا مبرر، إلا أنه لا يخفى على أحد أنه شعور له ألف مبرر، حتى رغم زواج مجدي واستقراره واستمرار الحياة وتناسي الماضي، لكن الجراح لم تكن بعد قد التأمت بل نكأت الأيام بعضها، فعاد ينزف من جديد، وما هي إلا دقائق حتى غادر مجدي شقة خالد متعللا بلقاء والد زوجته الذي كاد ينساه، ثم غادر المكان وهو ينظر إلى خالد:

- بالله عليك يا خالد ادعِ لي، إنت صلتك بربنا كويسة يمكن ربنا يستجيب

منك ويهون عليَّ المصايب اللي نازلة على دماغي زي المطر في ليلة شتا.

ثم يغادر البيت كله ويختفي وقع أقدامه على السلم تاركًا خالد غريقًا في دهشته حول ما يراه ويسمعه منذ عده أعوام، ولا يكاد يفيق من صدمة إلا وتلحقه أخرى حول نفس الأمر، وينطلق مجدي بسيارته من ميدان الطوابق إلى شارع التحرير بالدقي، حيث عيادة والد زوجته، الخاصة، ثم يدخل إلى العيادة فتفاجئه موظفة الاستقبال بقولها:

- أهلا مستر مجدي، الدكتور منتظر حضرتك حسب ميعاد حضرتك معاه يا ترى حضرتك تشرب إيه؟

مجدي كالعادة:

- أهلا وسهلا مدام ألفت.. وفي هدوء وعيناه تظهران القلق البادي على وجهه: كالعادة شاي سكر زيادة.

ثم يبتسم ابتسامة باهتة ويطرق باب حجرة الكشف مستأذنًا في الدخول، وإذ به يفاجأ بالرجل يستقبله بحفاوة مشيرًا إليه بالجلوس قبل أن يبادره بالقول:

- مجدي أنا من يوم ما وافقت أجوزك بنتي باعتبرك ابني، وإنت عارف ده كويس، ليه بتخلي ماضيك يا ابني يدمر واقع جميل أنت عايشه؟

وهنا ينظر مجدي في دهشة قبل أن يقول: ماضي؟! حضرتك تقصد إيه يا دكتور؟ أنا مش فاهم حاجة، الماضي ده أنا...

ولكن الأب المتمرس في واقع الحياة والمتشرب بخبراتها يقاطع زوج ابنته:

- أنا عرفت كل حاجة.

مجدي في حيرة من أمره:

يا دكتور أنا... لكنه بتر عبارته قبل أن يسأل في دهشة: مين قال لك إن كان فيه ماضي أصلا يا دكتور؟ ثم يواصل قائلا: عبير طبعًا مش كده؟

لكن الرجل يفجر قنبلة في وجه مجدي، قائلا:

- لا طبعًا مش عبير، أنا عرفت من الحج غانم عبدالفضيل، جوز أختك فريدة.

وفي تلك اللحظة يعتريه خجل يصل به إلى الشعور بالعرق الشديد حتى كاد يدور حول نفسه قبل أن يحدث نفسه قائلا: خربتها يا أبو وحيد؟ ويقاوم خجله ويسأل والد زوجته: - وقالك إيه الحج غانم يا دكتور فتحي؟

وهنا يبتسم الرجل وهو يقول في هدوء:

- قال إنك حد طيب وماقبلتش على كرامتك إن حد يتحكم فيك ويفرض عليك شروطه، زي حكاية تعيش مع أهل خطيبتك في اسكندرية خمس سنين متصلة، والراجل ياخد عليك ورق، والكلام السخيف اللي أنا كنت هاتجنن لما سمعته ده.. ثم يكمل الرجل في حنان: مجدي يا ابني اللي يبيعك ماتديش لنفسك فرصة تفكر فيه، وإياك ترجع بذاكرتك لماضيك لحظة، لأنهم ناس مش تمام، وسامحني إذا كنت متحفظ في الكلام معاك، لكن أنا يهمني مصلحتك زي ما يهمني حياة بنتي معاك، هي بنتي وإنت ابني، وأنا يهمني أحفادي يتربوا في بيت فيه مودة ورحمة زي ما ربنا قال في كتابه.. ثم يربت على كتف مجدي الذي كان يشعر في تلك اللحظة أنه يتهاوي داخل نفسه ولكن عادت السكينة إلى نفسه المضطربة بعد حديث الأب معه، وأراد أن يطمئنه أكثر فقال له: انتظرني وروَّح معايا، وبعربيتك علشان تصالح مراتك، أنتم مش صغيرين علشان تشتكي منك يا سي مجدي، هي بتقول جوزي

بيحبني لكن أنا شايفاه بيتعذب من جواه ومش عارفة اعمل له حاجه ومش فاهمة السبب.

- الخيانة يا دكتور هي السبب مش من البنت لوحدها لكن من صديق العمر،

وهنا يلتفت إليه الطبيب الذي كان يسبقه بخطوات، وبدا أقصر قامة منه:

- ولا يهمك الخاين ربنا مش هيسيبه.. لكن تحطم سعادتك بإيدك أنا مش هاسمح بكده فاهم يا ولد؟

مجدي بابتسامة ويداه أمام صدره كالطفل الذي يعاقبه معلمه وهو ينظر إلى الأرض خجلا:

- فاهم يا بابا.

ثم يغادران معًا عيادة الدكتور فتحي الخاصة، وفي الطريق يبلغ الدكتور ابنته بأنه لن يكون بمفرده لكن معه ضيفًا، ويطلب منها إعداد غداء للضيف، ولم تمض إلا دقائق ويدق مجدي جرس الباب فتفتح عبير قبل أن تعلم من بالخارج، وتفاجأ بمجدي فتهرول إلى داخل الشقة، وبعد دقائق يدرك الأب ما حدث فينادي ابنته قائلا:

- تعالي سلمي على جوزك يا عبير وبعد الغدًا حضرى شنطتك عشان ترجعي بيتك، كفاية لعب عيال بقى، أنا مش فاضي لكم، ورايًا شغل كتير النهارده، كام قيصرية وبعدين ارجع ألاقي الواد ياسر العفريت بيتصل ويقول لي ماما عملت لي عصير الفراولة اللي باحبه يا جدو ممكن يا جماعة ولا أزعل أنا منكم؟

يقبل مجدي يد الطبيب وتقبلها عبير ويقول مجدي وعبير في آن واحد:

- ربنا يخليك لينا يا أحلى بابا في الدنيا، ومانتحرمش منك أبدًا.

مجدي:

- أنا ليّ طلب من حضرتك.

الأب مبتسمًا في مرح قول:

- عايز كام؟!

ويضحك مجدي بقوة وهو يقول:

- أنا مش عايز فلوس أنا عايز أشتغل دكتور نساء وتوليد.

فيقول الأب وابنته معًا في دهشة:

نعم؟!

لكن مجدي يضحك بقوة:

- لا بجد عايز حضرتك تدعي لنا في كل صلاة ربنا يبعد عنا الشيطان، ويكرمنا في اللي جاي زي ما هوِّن اللي راح وسترنا فيه.

ويحتضن الأب ابنته وزوجها في حنان بالغ، وهو يقول:

والله داعي لكم يا ابني من كل قلبي.. ثم يستطرد: هو أنا ليَّ مين غيركم ادعي له يعني؟ وينظر الأب إلى ابنته في حنان وهو يقول: خلي بالك من جوزك وبلاش شغل عيال بقى إنتوا كبرتوا عالكلام ده، ثم يقرص خد ابنته في حنان ويتحرك نحو الباب مودعًا ابنته وزوجها: خلاص يا ريرى اتفقنا؟

عبير وفي عينيها نظرات حائرة مترددة بين زوجها وأبيها:

- خلاص ياباَبًا وربنا يبعد عننا الشيطان.

مجدي في مرح:

- أكيد.

وهنا تبتسم عبير وهي تنظر إلى وجه مجدي نظره ذات معنى خاص، قبل أن تقول:

- أنا حاسة إنه جايز...

- فيهتف مجدي في حرارة وهو يضحك ساخرًا: والله العظيم المرة دي أكيد، ثم يستطرد قائلا: أكيد جدًا، ويكمل عبارته: أكيد خالص.

وتكمل عبير: أكيد فحت.

وهنا يقف الأب مذهولا وهو يجول ببصره بينهما، ولا يعي شيئًا ما يقال فتتعالى ضحكات مجدي وعبير، ثم يتصافحان في الهواء ويلتفتان فجأة إلى الأب فيقولان معًا: - لامؤاخذه يابابا.

ثم يعود مجدي إلى حياته وبيته سعيدًا يعيش حياه هادئة لا يعكر صفوها شيء، إلا ظهور قضية مدحت وريهام في حياته في الفترة الأخيرة، وذلك الأمر هو ما نجح مجدي في إخفائه عن زوجته طوال السنوات الماضية، حتى طفى على سطح حياته وعاد يؤرقه من جديد، ولكنه يقاوم الانهيار النفسي بشراسة وقوة إرادة غير عادية، هو الآن أمام نفسه والناس رجل ناجح صاحب بيت وأسرة وعمل وحياة مستقرة هادئة، ولكنه كان يشعر من أعماقه أن شيئًا ما يكدر صفو حياته، ولا يستطيع هو نفسه تحديد ماهية وحقيقة هذا الأمر الذي جعله يعيش بين الناس بقلبين وعقلين وروحين في جسد واحد، قلب يتعلق بالماضي وقلب يحاول أن يلملم شتات النفس ويطوي جراحها، وعقل يخطط للحاضر والمستقبل وعقل آخر يفكر في

حقيقة الماضي وما حدث فيه، هل تخلى عنه الأهل؟ هل خانته فتاة أحبها بصدق فلم تثق به أو لم تقدر مشاعره أو لم تحترم احتياجه لها رغم قسوة ظروفه فيما مضي؟ وكان له روحان في جسده إحداهما تعود إلى الماضي وتكتوي بنار الحنين والأخرى تمثل ما يبديه على وجهه من قبول بواقع لا يريد منه شيئًا لكنه يتفاعل معه خشية أن تضيع سنوات العمر فليحق ما تبقى منها بما مضى، وتتلاشى الحياة، فلا يجني منها إلا العذاب فيما مضى، والحساب عن ما هو آت، إلا أن مجدي- رغم كل هذا- استطاع أن يقهر الألم والعذاب والحب والماضي والخيانه والألم، وعاد إلى زوجته الذي عرفته حنونًا طيبًا مخلصًا صادقًا يميل إلى الوضوح والاندفاع إلى المجهول رغم تحفظه الشديد على كثير من تفاصيل حياتهمًا كزوجين، وتردده المبالغ فيه قبل أي شيء، ولكن عبير كانت تراه إنسانا وليس فقط ذكرًا يقوم بواجبات الفراش في لحظات خاصة كما كانت تتمناه غيرها، عندما قررت إزاء تلاشى الفرص المتاحة أمامها للزواج أن تختاره زوجًا، لكن مجدي يعود إلى حياته، ويشارك مع عبير في أعمال المنزل، لعله يهرب بتلك الحياة الجديدة التي فرضتها عليه دنياه، من حياة كان يتمناها مع فتاة لم يكن يرى سعادته إلا في أحضانها، وبين يديها، كلما شاءت لهما الأقدار أن يلتقيا، وكان مجدي- حتى في أحضان زوجته-

يتذكر ريهام رغم مقاومته العنيفة لذكراها التي تسرى في دمه، كان يتذكر أنفاسها المضطربة حين تلتقي الشفاه وتذوب في قبلة طويلة ساخنة، كان يتذكر يداه حين كانت تغوص في جسدها كلما حانت الفرصة، ووهبته الحياة هدية ثمينة بلقاء يطفئ فيه لهيب أشواقه ونيران رغبتها للارتواء من نبع حبه الجارف، الذي أكدته الأيام، عندما كانا معًا يستقلان المصعد

الكهربائي في كل مرة يزور فيها مجدي ريهام في بيت أسرتها، فترتد به غريزته بين يديها إلى الجوع الجنسى وإلى الحيوانية التي لا عقل لها، بل وتزيد رغبته إليها من الظمأ العاطفي والحرمان الذي كانت تعبر عنه بقايا طلاء شفيتها العالقة على وجه مجدي وخديه وقميصه، كانت ريهام تشعر بين يديه بأنوثتها التي لم تتحرك إلا عندما أصبح مجدي يسرى في عروقها مع الدماء التي تغلي بحبه، وكان مجدي يرى ذلك في بريق عينيها كلما التقت عيناهما أو تلامست الأيدي أو غاصت أصابعه في جسدها تروي ظمأ الحرمان بعد سنوات طوال لم يجد فيها مجدي ما يحتضنه إلا وسادة فقيرة، ولكنه بعد أن تزوج أصبح الآن يتحامل ليدفن كل ما عاشه في الماضي في مقبرة التاريخ، والتي تقبع داخل أغواره نفسه الممزقة من الداخل والتي لم تنجح الأيام في أن تلملم أشلاءها، لكنه- حتى يعيش بلا ندم ولا ظلم لنفسه أو لزوجته وأولاده- أصبح يعتاد حياته كأنها جرعة من دواء يعلم أن مرارته سوف تزول عندما يتماثل قلبه للشفاء، وكان يرجو أن يكون قريبًا، ويقضي مجدي ليلته الأولى بعد أن عادت إليه زوجته وهو يتظاهر حتى أمام نفسه بالسعادة، وتمر أيامه بلا لون ولا رائحة.

الفصل السادس

تسرب إلى نفس مجدي شعور أنه بحاجة إلى تغيير نمط الحياة، وبعد ذلك صار يستيقظ مبكرًا على غير المألوف، وصار يفعل كل شيء في المنزل بيديه، يكوي ثيابه ويلمع حذاءه، حتى سيارته صار يغسلها بنفسه، حاول أن يقلع عن تدخين السجائر عدة مرات لكنه لم يفلح، ربما لأن ظروف العمل في مهنة التدريس كانت تجبره على ذلك، لكنه الآن أصبح- ولأول مرة منذ أعوام- ينام قرير العين، شعور عارم بالرضى بدأ يجتاحه من الداخل، بدأ يشعر بالخجل من نفسه ويصرخ من أعماقه كثيرًا، كيف لا أخلص لزوجه أخلصت لي وينشغل قلبي بمن خانت حبي وتخلت عني؟

كان هذا السؤال يؤرق مجدي كثيرًا، ولا يجد له إجابة شافيه كلما خلا إلى نفسه، عندما تحين فرصة وفي أحد الأيام ينطلق مجدي إلى عمله مستقلا سيارته، وإذ به يلتقط هاتفه ليجرى مكالمة تليفونية حتى يطمئن على صديقه:

- ألو.. أيوه يا فريد، إنت فين ياباشا؟ أنا عايز أشوفك قريب؟ ممكن تشرفنا إنت هنا؟

فريد في عجالة:

- إنت عارف يا مجدي امتحانات الأولاد، ياريت تسامحني الفتره دي، وأوعدك بمجرد نهاية الامتحانات أزورك وأقضي معاك سنة لو تحب كمان يا عم.. لكن فريد يؤكد عليه ضرورة اللقاء بينهما: خد أي أجازة أقرب جمعة

أو سبت، وانزل.. إنت عارف شغلي، بصراحة مضغوط، وأنا لوحدي اليومين دول والناس اللي معايا مشغولين، وعندهم امتحانات، بس أنا نفسي أتكلم معاك ومش هينفع كلام التليفون يا ريت نتقابل.

مجدي في هدوء:

- حاضر من عيني هانزل لك في أقرب وقت إحنا عندنا كام فريد يعني؟

أنهى مجدي يومه الدراسي وعاد إلى بيته، ليفاجأ بأخي زوجته في انتظاره، وهو لا يبدو على عادته مبتسمًا، وعندما دخل مجدي إلى الشقه ألقى السلام على الجميع كعادته لكن سليمان رد في فتور واضح، وقد لاحظ تغير نبرات صوته من ضحكته الساخرة:

- وعليكم السلام يا عم مجدي.. ثم استطرد قائلا: يا عم ادينا جزء من اهتمامك عبرنا يا سيدي احنًا برضه نسايب ولا انت نسيت؟

يبتسم مجدي في دهشة:

- نسيت؟ إزاي تقول كده يا سليمان؟ حد ينسى أخوه يا راجل؟ ده برضه اسمه كلام؟!

سليمان:

عايزك بعد الغدا شوية كده على انفراد، فيه كلمتين بيني وبينك، ولا عندك إيه؟

مجدي في مرح"

- ياباشا لو عندي الدنيا كلها أفضى لك ياسيدي.. إنت تؤمرني.

ويجلس الجميع على مائدة الطعام، وفجأه سليمان يقفز من مكانه وقد ازداد وجهه احمرارًا وهو يقول في غضب:

- مش قلت لك مليون مرة قبل كده بلاش شطة زيادة في الأكل؟ إيه اللي انتي بتعمليه فيّ ده؟ طيب عليَّ الطلاق ما أنا واكل عشان تعرفي بعد كده أنه سمي وموتي الشطة دي.

وتنفجر عبير ضاحكة بقوة، وينظر إليها مجدي في دهشة، ثم يعود ببصره إلى سليمان معتذرًا دون حديث، قبل أن ينتهي من مضغ ما في فمه من طعام، ثم يقول مازحًا وهو ينظر إليه:

- معلش بقى.. أختك يا عم، أنا مش هاتدخل بينكم، إستحمل يا عم علشان تقدر بس اللي أنا فيه.

عبير في ابتسامة وهي توجه حديثها لمجدي:

- إيه اللي انت فيه يا سيدي إنت كمان؟ ما أنا باعاملك معاملة الأم آهو.

مجدي:

- الله يرحمها.. ثم يقول محاولا تهدئة سليمان: عشان خاطرى بقى إنت حلفت عالأكل ده، لكن أنا ليّ رجاء عندك تقبل عزومتي عالغدًا بره.

سليمان:

- يا عم لا برة ولا جوة.. خلاص، أنا والله ما هاكل إلا في بيتي ومع عيالي، ثم يلتفت إليه تعالى ندخل عند ياسر ابنك على ما الشاي يجهز، لأني عايزك، وهنا يدرك أن في الأمر جديدًا، فيلبي رغبته دون نقاش، ويغادر المكان إلى حجرة ابنه ويغلق سليمان الباب ويحكم إغلاقه بالمفتاح، وهنا يرتاب مجدي مما يحدث، لكنه يلتزم الصمت صابرًا بعد تغير وجه سليمان بشكل مفاجئ:

- مجدي أنا خايف عليك.

- خايف عليَّ من إيه؟ حد قال لك حاجة عني؟

- بالله عليك بلاش هزار، ماتبقاش زي فريد صاحبك ممكن يقلب الدنيا كلها هزار في أحرج المواقف.. ثم يسأله فجأة: حالك مع عبير إيه؟

مجدي في دهشة: حالي مع عبير؟ ينظر مجدي إلى سليمان: ماله حالي معاها هي كلمتك أو اشتكت من حاجه؟

سليمان:

- يا ابني من غير ما تشتكي انت حالك باين على وشك، مش معقول خطوبة تفشل فيها من سنين تهد حياتك حتى بعد الجواز، إنت بقى عندك بيت وأسرة وده كلام مش أي حد يتحمله لولا أن عبير بتحبك.

مجدي في حزم:

- سليمان أنا مش مقصر مع مراتي، وإنت زي أخويا، وأكيد عارف أن الموضوع لا كان خطوبة ولا قصة حب، ولا كل ده، الموضوع كان جريمة ودفعت تمنها من عمرى وكرامتي، وعارف أنا تعبت قد إيه لأن أكيد والدك كلمك.

وهنا ينظر سليمان إلى الأرض، وهو يقول:

- عارف إنها كانت جريمة خيانة، بس الماضي راح في ستين سلامة، ليه تهدم حياتك وبيتك بإيدك؟ يا أخي حرام عليك؟ اتق الله في نفسك وبيتك وزوجتك وأولادك.

وهنًا يتغير وجه مجدي وهو يقول في غضب عارم:

- هو ده سهل لما تلاقي حد باع عشرة عمره معاك وطعنك في ضهرك؟ ده ممكن حد ينساه؟

- مافيش حد قال إنه ده كان سهل، لكن نعمل إيه مع حد خان؟ ولا باع؟ نهدم حياتنا علشانه؟ أنا بس وعشان خاطري عايزك... بتر سليمان حديثه

صوت طرقات على الباب ومجدي ينهض ليفتح الباب، وهو يشير إلى سليمان بالتزام الصمت حتى تغادر عبير، وفجأه عبير في مواجهة زوجها وأخيها الجالس على كرسي عند الشرفة المطلة على الشارع، ينظر في صمت إلى الشارع والمارة، ثم التفت سليمان إلى عبير وبابتسامه هادئة:

- شكرًا يا بيرو.

عبير:

- يا خبر.. ماتقولش كده.. بيت أختك هو بيتك.. حبيبي ده انت تشرف في أي وقت.

ثم تغادر في هدوء وعيناها تتفحصان الغرفة تريد أن تستشف ما يدور بينهما،

سليمان يقول وقد جفت ملامحه:

- بعد كل العمر ده يا ترى إنت بتعمل إيه يا مجدي؟ مزعل مراتك ليه؟ وضاغط على نفسك بهواجس مالهاش أي لزوم في حياتك ليه يعني؟ عشت قصة حب زمان وفشلت؟ في ستين ألف داهية يا عم.. ثم يقول: نسيت أقول لك قبل الشاي عايزك تكون عادل مع نفسك وبيتك، وبلاش تظلم الكل وأولهم نفسك.

وهنا فقط ينحني مجدي على الكرسي هامسًا:

- ماكنش حب يا سليمان، كانت خيانة.. وأكمل هامسًا والكلمات تخرج من شفتيه كأنها قطرات المياه نقطة نقطة: تعرف يعني إيه خيانة؟

سليمان:

- ومين اللي خانك؟ خطيبتك ولا صاحبك اللي عرفته عشرين سنة؟

مجدي وهو يلتقط أنفاسه بالتدريج، وفي صعوبة:

- والله ما أعرف مين اللي بدأ بالخيانة فيهم، هل هي باعت حبي ليها؟ ولا صاحبي اللي باع العمر اللي بيني وبينه؟

فجأة سليمان يتحرك نحو الباب وهو يهمس قائلا بعد أن رفع نظارته من فوق عينيه وأخرج منديلا لينظف عدساتها: لحظة، ثم أحكم إغلاق الباب وهو يقول: لا صاحبك خانك ولا خطيبتك باعت حبك، اللي خانك كان قلبك اللي اتعمى لما حس بالحرمان،

فلما لقى باب قدامه دخل بسرعة جريْ وماكنش فارق معاه يكون ده باب جامع ولا باب بيت دعارة، وبعد كده أثبتت الأيام أنه الاختيار كان خطأ من البداية.. ثم استطرد قائلا بعد أن جلس على الكرسي الذي كان يجلس عليه قبل ثوان: اللي خانك كان عقلك اللي بيحفظ حكم ومواعظ وقرآن من غير فهم ولا تطبيق ولا عمل، دي مشكلتك في اللي فات من عمرك.. ثم يلتفت سليمان إليه وهو يقول: اللي خانك يا صاحبي كان عقلك اللي ما قدرش يميز بين الصح والغلط، يعني إيه الدين يقول تخيروا لنطفكم، وإنت تروح تخطب واحده بتدور على عريس من فيس بوك؟ يعني إيه الدين يقول وجعل بينكم مودة ورحمة، وإنت تقول لي كان بيني وبينها بوس أحضان عالسلم وفي الاسانسير وعلى الكوبرى في وسط الشارع؟ ده كلام يا عم؟ وعلي فكره أنا عرفت الكلام ده من مراتك عبير، وهنا فقط اتسعت عينًا مجدي دهشة وهو يقول في ذهول: - مراتي؟ ثم يردف قائلا: يا نهار إسود.. ومراتي عرفت منين؟

سليمان وقد استشاط غضبًا:

- من مرات حد من اصحابك يا سيدي، إنت ناسي إنك اتكلمت كتير عن عهرها معاك قدام الدنيا كلها، أيام الموضوع ده لما كان لسه جديد.. ثم يبتسم في مرارة وهو ينظر إلى الأرض قبل أن يهمس في خجل: يا راجل دَّه انت كنت بتنشر عالفيس إن إيديك كانت بتوصل لأي حتة في جسمها وهي في حضنك.. ويهز سليمان رأسه متعجبًا قبل أن يضرب كفًا بكف ثم يهمس متعجبًا: يا نهار إسود دي كانت مهزلة يا إبني وإنت كنت بتتصرف وكأنك في غيبوبة أو تحت تأثير مخدر قوي طويل المفعول.

يقاطعه مجدي متوسلا:

- سليمان أرجوك إنت جاي تتكلم معايا؟ ولا جاي تجلدني يا صاحبي؟

سليمان في هدوء:

- ما دمت صاحبك بجد لازم أفوَّقك.. إرجع لبيتك ولمراتك ولأولادك، احضن عمرك اللي جاي قبل ما يضيع ويحصل اللي راح، صاحبك خانك لأنه شافك ضعيف قدام ظروفك وقدام شهوتك لما كشفت له نفسك، وخطيبتك كمان شافتك غريق وسط دوامه كبيرة وإنت مش عارف تعوم، ولما مدت إيديها تنقذك إنت كنت مش شايف الصح من الغلط، وهي على فكرة ماكنتش إنت هدفها، هي كانت بتدور ساعتها على أي حد يرحمها من جحيم العنوسة لأنها حتى لو انحرفت وأشبعت شهوتها بطريقة غير مشروعه كانت هتفضل برضه عانس، فكان وجودك قارب النجاة الأخير بالنسبة ليها قبل ظهور صاحبك اللي لقى فيها منفذ لشهوته، وشوية فلوس آخر كل شهر، من الآخر.. ما تزعلش من كلامي وسامحني، أنا دلوقتي مش باكلم جوز أختي، أنا باكلم صاحبي اللي شايفه بعد كل العمر ده بيغرق بس

المرة دي بنفسه، مش بخيانة وغدر من حد.. ثم ابتسم في دهشة وهو يقول: إنت فاكر عبير مراتك زي ريهام دي؟

نظر إليه مجدي مندهشًا قبل أن يقول:

- وكمان عرفت اسمها؟ مين قالك عليه؟

سليمان في دهشة:

- يا عم إنت ناسي إننا أهل، وكل الناس كانوا عارفين حكايتك دي، الجيزة كلها عرفت الموضوع، الناس قالوا إنك كنت ناقص تعمل لوحه من قماش على مدخل البلد تكتب عليها الخيانة عار لا يمحى، وتمضي تحتها باسمك بلون أحمر مجدي مصطفى سليمان، وجاي تسألني دلوقتي بعد كل السنين دي أنا عرفت منين؟

وهنا يتنهد مجدي قائلا:

- ياللا.. ربنا يسامح كل اللي أجرموا.

فجأة ينظر اليه سليمان مندهشًا، وهو يتناول رشفة من كوب الشاي:

- مفيش حد ظلمك يا ابن عمي، إنت اللي ظلمت نفسك لما عشت عشرين سنة ضعيف وحقوقك حتى قدام أهلك وناسك مهضومة، وعشت نفس العمر ده وإنت متغمي زي التور في الساقية ومش قادر تحدد مين مخلص لك ومين خاين ليك، وفي الآخر رايح تسيب الديب مع الغنم وتلطم بعدها لما الديب يجوع كده كده كان لازم ياكل من الغنم، وياكلك انت كمان لو غفلت عنه، وإزاي تربط قلبك وحياتك ومستقبلك بإنسانة عايزه أي حد تتجوزه وخلاص؟ كل اللي يهمها في الدنيا حد جنبها عالسرير؟ أنا مش عارف إنت ازاي كنت نايم عمرك ده كله؟ ثم ضحك فجأة وهو يقول في مرارة:

- معلش يا صاحبي إنت كنت نموذج حي لأهل الكهف اللي نامو 309 سنة مرة واحدة.

ثم هدأت فجأة نبرات سليمان وحدة حديثه عندما وجد مجدي في صمت وذهول وعيناه تتوسلان في صمت، لعل سليمان يلقي بالسوط من يده ويكف عنه طلقات لسانه النارية التي اندفعت إلى صدر مجدي، قبل أذنيه وهنًا أدرك سليمان أن مجدي لا يمكنه الآن إلا أحد أمرين إمًا أن يمحو الماضي تمامًا من ذاكرته ليتخلص من تأثيره القاتل على حاضره، أو أن ينكفئ على ماضيه فينطوي مدمرًا بذلك حاضره ومستقبله وربما علاقته بزوجته وأولاده، ثم قال سليمان فجأة:

- تعالى ننزل المسجد نصلي العصر جماعة، واطفي بقى السيجارة اللي خنقت أمي بيها يا أخي حرام عليك وفلوسك اللي بتضيعها في الهوا عالفاضي ومن غير مبرر ولا أنا غلطان يعني؟

وهنا يبتسم مجدي ويربت على كتف صاحبه، ثم يستأذن في أن يتوضأ أولا قبل أن يغادر بيته، وهو يعقد النية من داخله على أن يعود إلى الحياة من جديد زوجًا وفيًا لزوجته، وأبًا حنونًا يحيط أبناءه بجناحين من الرحمة والحب، لعله يجد في بيته وأسرته وحياته ما يخرجه من ظلمات كهف الماضي الذي حبس نفسه وقلبه وعقله فيه عدة أعوام، ربما تكون تلك اللحظة هي آخر لحظة يتوارى فيها قلبه خلف قضبان الذكريات المؤلمة، ويبدأ بعدها مع الحياة والناس صفحة جديدة، وبعد أن فرغ من الصلاة غادر المسجد وانتظر سليمان بالخارج، وعلى وجهه ابتسامة عريضة حتى خرج سليمان فقال له مجدي بصوت هادئ، ينم عن راحة نفسية عميقة وطمأنينة لا حدود لها:

- تعرف يا سليمان.. أيام الأزمة اللي حصلت لي قبل ما أتجوز كنت لما أقف

في الصلاة أحيانًا كنت باسرح لدرجة إني أقرا النصف الأخير من التشهد بدل الفاتحة، كأني بصلي صلاة جنازة، حتى لو كانت الظهر أو العصر.

رمقه سليمان بنظرة عجيبة امتزجت فيها الدهشة بالاستنكار، قبل أن يقول متعجبًا:

- يا ساتر يا رب للدرجة دي يا مجدي؟ حتى وإنت بين إيدين ربنا مش قادر تنسى الدنيا ولو شوية دقايق، يا أخي اتق الله ده انت قدام ملك الملوك ملعون أبو اللي ينسيك ربك.

وانقضى لقاء مجدي وسليمان بوداع مجدي لصاحبه، قبل أن يتوجه مجدي إلى بيته وهو يعقد العزم على أن يسحق الماضي بكل ما فيه من عذابات تشيب لها رؤوس الأجنة في أرحام الأمهات، أو تنوء بحملها الجبال الشاهقات، لكن مجدي كان يعلم أن الإنسان أقوى مخلوقات الله، وإلا ما كتب الله له البقاء على الأرض بعد أن كان وحيدًا عليها حين هبط آدم من الجنة عندما عصى ربه وارتكب خطيئة الشجرة المحرمة عندما أغواه الشيطان، ولكنه بعد ذلك أدرك حقيقة الحياة على الأرض وأنها اختبار فمن صبر وأطاع حصد خيرًا، ومن كفر وعصى وجد ما يستحق.

كان مجدي يتذكر كل هذا في طريق عودته إلى بيته، فلم يسمع أصوات المارة وآلات تنبيه السيارات، والصياح والضجيج والصخب الذي اعتاد أن يسمعه كلما خرج إلى الشارع بدون سيارة، لكنه عاد إلى بيته منشرح الصدر كأنما ولد من رحم الحياة مرة أخرى، بعد أن فجر سليمان في نفسه جراحًا عميقة غائرة وترك له الفرصة ليطهرها بماء التسامح والعفو أن يغفر لنفسه خطيئتها، وأن يعفو عمن ظلمهم وظلموه، وأن يتسامح مع أيامه ويحيا بقلب جديد مع بشر ليس لهم ذنب سوى أنهم أحبوه وأخلصوا له، وكانت

أهمهم زوجته عبير التي رأته كعادته عندما قال لها وهو على باب الشقة ولا يزال يقدم ساقًا ويؤخر أخرى:

- بيرو فينك؟ وحشتيني.

عبير وقد ارتفع حاجباها دهشة:

- مالك ياراجل؟

فيضحك بقوة وهو يغلق الباب ويضع يديه على كتفيها في مرح:

- مالي وأم عيالي كمان هو حرام ادلع مراتي؟

تجيب في خجل وهي تنظر إلى الأرض:

- تدلعني؟ إنت دماغك عالية أوي ليه كده؟ ياراجل إطلع من دول.

فيضحك بقوة وهو يطبع قبلة على جبينها قبل أن يواصل حديثه المرح:

- ماهو أنا لو طلعت من دول مش هعرف ادخل تاني ولا إيه؟

عبير في دهشة ممزوجة بسعادة تتوارى خلف غضبة مصطنعة:

- يعني إيه الكلام ده؟

- يعني باحبك وعايز أعوض الفترة الصعبة أوي اللي فاتت من حياتنًا دي، وياريت يا بيرو تسامحيني عن كل اللي فات ونبدأ مع بعض حياتنا كأننا لسة متجوزين النهارده.

وعندها فقط خيم الصمت على الزوجين لثوان وتلاقت العيون لتسمع القلوب ضجيج حديثها الصامت، وما هي إلا لحظات حتى مزق مجدي ستائر الصمت بقوله:

- هما الولاد فين؟

عبير تقول في صوت يقطر حنانًا:

- الولاد نايمين يا مجدي.

ويضحك مجدي هامسًا وهو يميل برأسه إلى وجهها:

- خلاص اعملي أحلى صينية بسبوسة بالمكسرات لأن نفسي أدوق البسبوسة من إيديك الحلوين.

وتنظر إليه عبير وهي تقول أجيب معاها كيس شيبسي عائلي بالمرة؟

ثم يضحك الزوجان، ثم تتصافح أيديهما بقوة قبل أن يقول مجدي:

- يخرب بيت فقرك لسة فاكره أيام العزوبية؟

عبير:

- يا راجل حرام عليك، الله لا يرجعها أيام، أنا بس باهزر معاك لأنك وحشتني.

وهنًا يحك مجدي ذقنه بأنامله قبل أن يسأل في مكر وهو يوجه إليها سؤال ايحمل لهجة خاصة:

- وحشتك ازاي يعني؟

وتضحك عبير بقوة:

- إزاي يعني؟ إنت تاني؟ ثم تكمل بصوت هامس: يعني مش فاهم إزاي؟

وهنا يرقص قلب مجدي طربًا قبل أن يقول:

- كده يبقي هنأجل البسبوسة دلوقتي تعالي علشان نقول كلام ألذ بكتير.

ولم تمضِ سوى بضع دقائق كانت عبير بين أحضانه، ساد صمت طويل شعر مجديَ بعده أنه يتذكر في هدوء ليلة زفافهما قبل سنوات مضت، وعاد

مجدي بعد تلك الليلة إلى حياته كأنه لم يكن قد ولد إلا في هذا الشهر، وقضى مجدي عدة أيام تملؤها البهجة والمرح، كان تقريبًا قد شفي من جرح الماضي الغائر في نفسه، لولا أن الأقدار لم تمنحه الفرصه ليهنأ بحياة هادئة على مدى عامٍ واحد حين استيقظت زوجته ذات ليلة من نومها تشعر بقليل من الأرق، وإذ بها تجلس في هدوء، والظلام يلف أرجاء المكان في صالون شقة الزوجية لا يهب ذلك المكان المظلم بصيصًا من الضوء إلا شعاعًا ينبعث من المطبخ الأمريكي القريب من الصالون الذي تجلس فيه، وكانت مصادفة قدريه أن تركت المطبخ في تلك الليلة مضاءً على غير عادتها، ولكنها تقاوم فكرة سيطرت على عقلها تخشى عاقبتها، وإذ بها تقف على قدميها فجأة وهي تحبس أنفاسها متجهه إلى سرير مجدي وهي تمشي على أطراف أصابعها، لقد قررت أن تبحث في هاتفه المحمول عن رقم صديق مقرب لأن بداخلها سؤال أو عدة أسئلة حائرة تبحث عن إجابة لعلها تشفي ما يدور بداخلها من أنين النفس التي تعطشت إلى البحث عن الحقيقة الغامضة وراء توتر وقلق وانشغال زوجها عنها فيما مضى، ولم تمضِ إلا دقائق وهي تبحث حتى وجدت ضالتها، مستر خالد 012، وهنًا فقطَ التقطت عيناها في لحظات رقم الهاتف وقد تحولت إلى كاميرا فوتوغرافية للمرة الأولى، ثم حفظت الرقم على هاتفها باسم آنسة داليا، وبعدها بدقائق دخلت إلى فراشها وهي تنظر إلى زوجها النائم في دهشة وإشفاق مما كان يحمله الماضي، ثم ابتلعت لعابها في صعوبة وهي تخطط لأمر ما قبل أن تتهادى إلى أذنيها فجأة تواشيح صلاة الفجر فتظاهرت بأنها غارقة في النوم قبل أن يوقظهما رنين الهاتف لأداء صلاة الفجر كما اعتادت منذ فترة، وبعدها أيقظت مجدي ليصلي ويستعد للذهاب إلى عمله كعادته كل صباح، وبعد أن غادر مجدي الشقة انشغلت عبير ببعض الأعمال المنزلية البسيطة من تنظيف وتجهيز

طعام وغيره، ثم فتحت التليفزيون لعلها تجد ما يملأ بعض وقتها، وشاهدت فيلم "مع سبق الإصرار"، حيث كان نجمها المفضل محمود ياسين يؤدي شخصية غير نمطية، وفجأة آذان الظهر يقطع عرض الفيلم ونهضت عبير لأداء الصلاة لكنها قررت مشاهدة الفيلم- كاملا على الكمبيوتر من خلال شبكة الإنترنت- وقبل أن تدق أجراس الساعة الثالثة عصرًا قررت عبير تنفيذ ما صممت على السعي إليه، وغادرت شقتها في هدوء ونزلت إلى الشارع وفي دقائق دخلت أحد المحال التجارية وفي هدوء قالت للبائع:

خط موبينيل من فضلك.

رد البائع:

- مميز؟ ولا عادي حضرتك؟

عبير:

- أي حاجة مش فارقة.

ثوان والبائع يسلمها علبة بلاستيكية صغيرة:

- 25 جنيه حضرتك.

أعطت البائع ما طلبه وهي تغادر المكان على الفور، وتشير إلى تاكسي متجهة إلى بيت أخيها سليمان بعد أن أبلغت مجدي تليفونيًا أن زوجة أخيها تريدها في أمر عاجل، وأنها سوف تعود بعد قليل مع الطفلين ياسر وهيام بعد إحضارهما من بيت خالهما، وعندما وصلت إلى بيت أخيها استقبلتها رباب- تلك الفتاة القصيرة البيضاء- بترحاب بالغ، وهي تجد في وجه عبير شحوبًا واصفرارًا يثير القلق:

- هو فيه إيه مجدي مزعلك؟ ولا انتوا متخانقين ولا إيه فهميني؟

هزت عبير رأسها بحركة من شفتيها بلا حديث توحي بالنفي، وما زالت صامتة:

- رباب أنا جاية هنا علشان حاجة لا يعرفها مجدي ولا حتى سليمان نفسه.

وهذا ما دفع رباب إلى أن تصر على معرفة حقيقة الأمر، هنا تنهدت عبير وقالت في حزن:

- أنا حاسة إن مجدي ليه ماضي مع بنت مش قادر يتخلص منه، ومسيطر عليه في ليله قبل نهاره يا رباب.

ثم نظرت إلى زوجة أخيها نظرة المستغيث لمن لا يرحم فهي تطلب عونًا ومشورة ممن ليس بيدها شيء من الأمر، ولم تسمع به قط، إلا أن رباب أبدت تعاطفًا مع أخت زوجها، وبعد أن شرحت عبير ما يدور برأسها أمام رباب لم تجد منها سوى نظرات صامته مشفقة وكأنما تنطق بغير لسان:

ربنًا معاكي ويرشدك للصواب ويطمن قلبك.

وبعدها بثواني كانت عبير قد استبدلت رقم الهاتف الخاص بها، بالرقم الجديد، وأجرت اتصالا بالصديق خالد تسأله قائلة في هدوء وثبات حتى لا يثير الأمر قلقًا وارتباكًا:

- آلو مستر خالد معايا؟

خالد:

- سلام عليكم مين حضرتك؟

عبير:

- أنا عبير مدام مجدي يا مستر خالد ممكن استأذنك في رقم مدام نهى مراتك؟

وهنا يقول خالد على الفور:

- حاضر تحت أمرك.. ثواني معايا.. اكتبي حضرتك 010... ثم أكمل إملاء الرقم وهو يسأل نفسه في ذهول" رقم مراتي؟ وإيه المناسبة؟ ثم يغلق فمه وهو يمد شفتيه ويرفع حاجبيه إلى أعلى قبل أن يجيب نفسه عن سؤاله قائلا والدهشة لم تفارق ملامحه هي: - عبير عايزه رقم مراتي ليه؟ والله كل شيء دلوقتي جايز.. ويجرى خالد اتصالا بزوجته ليسألها: نهى هي عبير مرات مجدي مش كان معاها رقمك؟ وهنا ترد نهى: كان القديم يا خالد.. ثم تكرر مبتسمة القديم يا حبيبي اللي كان 012 ويتناسى خالد الأمر الذي لم يلق إليه بالا بعد أن اتصل بزوجته، ولم يدر ما هي أهمية هذا الرقم، أو ما سوف يترتب على سؤال عبير عنه بعد ذلك، ومضت عدة أيام لتمنح الأقدار عبير فرصه ذهبية لتنفذ ما أرادت حين أقدمت على الاتصال بنهى زوجة خالد وحصلت منها على رقم الهاتف الخاص بريهام، ورغم دهشتها لم تعترض نهى على أن تمنح عبير زوجة مجدي رقم الهاتف الخاص بريهام، إلا أنها سألت عبير سؤالا:

- مدام عبير ممكن أعرف عايزة رقم ريهام ليه؟ أنا خايفة خالد يزعل مني معلش آسفة.

وهنا ترد عبير في هدوء:

- عايزة أعرف يا نهى إيه سبب انفصال ريهام ومجدي.

نهي في دهشة:

- وهل تفتكرى هي بسهولة كده هتقول لك؟ ولا أصلا ممكن تقبل إنها تقابلك أو حتى تتكلم معاكي؟ أنا فاكرة إنه كان بينها وبينه مشاكل كبيرة لأن انفصالهم ماكانش طبيعي يعني وبعدين انتي تعرفي هي اتجوزت مين بعد مجدي؟

وهنا ترد عبير في شغف: مين يا نهي؟

لكن نهى تدرك أن بالأمر خطورة قد تهدد علاقتها بزوجها خالد، فترد في هدوء:

- إبقي إسأليها انتي بنفسك.

ثم تتعلل نهى بعذر وهمي وتنهي المكالمة على الفور بعد أن انتابها شعور بالندم المصحوب بالقلق البالغ لما تتوقعه من مشكلات قد تتسبب فيها بفعلتها تلك، ولكن عبير أدركت حرج موقف نهى، فطمأنتها بأنها لن تتكلم مع ريهام إلا بعد فتره طويلة حتى ينسى خالد أنها طلبت منه رقم زوجته، قبل أن تصل من خلالها إلى ريهام، لكن عبير لم تمنح نفسها وقتًا حتى للتفكير في ما يجب أن تفعل أو لا تفعل، وفي اليوم التالي قررت أن تتصل بريهام لتدرك منها ما هي الحقيقة وراء كل ما ترى في حياتها بسبب ريهام، وأمر علاقة زوجها الغامضة بحياة هذه المرأة، وزوجها التي تكدر صفو حياة عبير ومجدي وأخيرًا هاتف ريهام يرن بعد أن كان مغلقًا منذ فترة:

- آلو.. ردت ريهام في صوت جاف لا يوحي بأي أنوثة على الإطلاق ثم كررت: آلو سلام عليكم.. وكأنها تخطف الكلمة من فم ذئب وتحاول الفرار بها بعيدًا، كانت تبدو لاهثة كما لو كانت تصعد سلمًا في عمارة شاهقة، ثم قالت أخيرًا: مين معايا؟

عبير:

- أنا عبير فتحي.. ثم واصلت حديثها: حضرتك مدام ريهام سمير؟

ريهام تجيب:

- أيوه أنا، حضرتك مين بالظبط؟ ومين عرفك رقمي؟

عبير:

- أنا مراة مجدي يا مدام ريهام، وعايزة أقابلك ضروري.

ريهام في كلمات تخرج كأنها تعتصر نفسها اعتصارًا قبل أن تنطق كل حرف تحملت زفيرًا حارقًا يتبع كل كلمة لكنها ردت بجفاف:

- خير؟ فيه إيه تاني؟ عايز إيه مجدي بعد اللي شفته منه؟

عبير فجأة:

- أنا عايزة أقابل حضرتك لو سمحتي، دي أول مرة أطلب من حد حاجة وأنا مش واثقة إذا كان هيقبل أو يرفض، ويا ريت ماترفضيش يا مدام ريهام، ده رجائي الأخير.

وهنا فقط وافقت ريهام:

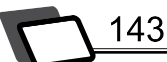
- حضرتك دي أيام امتحانات وأنا مش فاضية الأسبوع ده بس ممكن الجمعة الجاية نتقابل، لكن يا ترى ليه؟

عبير:

- لما نتقابل يا مدام ريهام هتعرفي كل حاجة المهم إمتى؟ وفين؟

ريهام:

- نخليها الجمعة العصر فوق محطة مترو أنفاق الشهداء، لأني ساكنة في



اسكندريه ولما انزل القاهرة من السهل إننا نعرف نتقابل في ميدان رمسيس، لأنه مكان مفتوح، وبعدها نشوف حضرتك عايزة مني إيه بالظبط.

وهنا فقط ارتفع حاجبا عبير دهشة وهي تقول:

- إسكندريه؟ وهتسافرى كل ده علشان تقابليني؟ أنا مش عايزة اتعب حضرتك.

ريهام:

لا مافيش تعب.. كده كده أنا نازلة القاهرة لبنت عمي في دار السلام، وهافضل معاها كام يوم، وبعدين أنا بس اللي محيرتي حضرتك جبتي رقمي منين.

عبير:

- من مراتواحد صاحب مجدي جوزي اسمها نهى.

وهنا ينقبض وجه ريهام وهي تقول لنفسها ممكن تكون مرات فريد أو مرات خالد اللي هي بنت عمه، لأنه مجدي قال إن في أصحابه القريبين ليه جدًا واحد متجوز بنت عمه، يمكن أنا كلمتها ونسيت؟

وأنهت السيدتان المكالمة على أنهما ستلتقيان في ميدان رمسيس عصر الجمعة، ومضت عدة أيام حاولت عبير فيها ألا تلفت نظر مجدي إلى أي جديد في حياتهما الزوجية، أو تعاملها اليومي معه، كانت تصر على أن تبدو طبيعية تمامًا حتى يأتي لقاء الجمعة، وينقضي، لأنها كانت تعلم أنه سوف يغير كثيرًا في حياتها مع زوجها فتلك الحياة إما استقامت أو استحالت بعد هذا اللقاء، كان هذا الخاطر هو ما زرعه الشيطان في نفس عبير حين توجهت إلى محطة مترو البحوث بعد أن كانت في ذلك اليوم تقوم بزيارة أبيها المقيم

بأحد الشوارع الرئيسية بمنطقة بولاق الدكرور بالجيزة، والذي اختار لنفسه مسكنًا بالقرب من مقر عمله حيث عيادته الخاصة بشارع التحرير بالدقي، وبعد ثوان، عبير تهبط على السلالم الكهربائية بالمترو، لكنها لا تعي شيئًا مما يدور حولها، حتى بعد دخولها المحطة والحصول على التذكرة وتخطي الحاجز الحديدي الإليكتروني وركوبها عربة المترو، لا يعنيها ولا تكاد تسمع ما حولها من ضجيج، كل ما تخشاه وتحسب له ألف حساب مقابلتها لريهام، والتي لم تتبق عليها سوى دقائق معدودة، وها هي عربة القطار تقف في محطة الشهداء حيث ميدان رمسيس، والآن عربات المترو تفتح أبوابها، لحظات بطيئة تمضي يسيطر ترقب حذر على نفس اثنين من النساء في لقائهما الأول، عبير تصعد السلم المؤدي إلى ميدان رمسيس، تجرى اتصالا هاتفيًا:

- آلو مدام ريهام حضرتك فين؟

- أنا هنا يا مدام عبير واقفة قدام الصيدلية اللي على يمينها محطة المترو.

عبير:

- خلاص أنا جيت يا ريت حضرتك تقولي لي لابسة إيه.

ريهام:

- أنا لابسة قميص موف وإيشارب موف وجيبة سودا وماسكة كتاب في إيدي رواية لنجيب محفوظ "اللص والكلاب" قلت أتسلى فيها على ما توصلي.

- بس خلاص.. شُفت حضرتك أنا خلاص آهو.. دقيقة وابقي معاكي.

نظرت عبير إلى ريهام، إنها سمراء الوجه واسعة العينين مستطيلة الوجه ذات فم واسع وعينين عميقتين شديدتي السواد، متوسطة الطول، وإن كانت

تميل إلى الطول قليلا لكن ملامحها شرقية توحي بالطابع الريفي، حتى في نسق ثيابها، وصوتها يخلو من الأنوثة ولكنه ليس خشنًا، وتميل إلى البدانة قليلا، وجهها لا يخلو من بقع سوداء صغيرة، هكذا بدت ريهام في عينيّ عبير التي تراها ريهام قصيرة القامة بيضاء البشرة وذات شعر أصفر ناعم، بدا لونه من خصلة فارقت غطاء الرأس، بينما كان شعر ريهام شديد السواد مثل لون عينيها، ويبدو شعر ريهام لامعًا إلا أن عبير كانت تبدو ذات وجه مستدير وخدود ممتلئة وأنف دقيق وشفاه صغيرة كشفاه الأطفال، وظهرت عبير في عيني ريهام تحمل ملامح رقيقة، وهذا جعلها تطمئن إلى لقائها قبل أن تبادرها عبير بقولها:

- أنا زوجة مجدي مصطفى، وعرفت إنك كنتي خطيبته زمان، وإن كان بينكم قصة حب مش طويلة نعم.. لكن كانت عميقة جدًا حسب ما سمعت، ممكن لو سمحتي أعرف سبب انفصالكم كان إيه لو ده مش هيضايق حضرتك ولا حضرتك عندك مانع؟

وهنا ردت ريهام بسؤال مماثل ولم تعطِ عبير إجابه عن سؤالها:

- مدام عبير ممكن أعرف سؤالك ده سببه إيه؟ وليه جيتي تقابليني أصلا؟

عبير في هدوء تام:

- أنا جيت لك لأني باحب جوزي.

ريهام في دهشة واستنكار:

- والله؟! وتبتسم ساخرة ثم تستطرد.. فعلا؟!

عبير في ثقة:

- طبعًا وجيت لأنه تعبان من ساعة ما خسر صاحبه اللي ما اعرفش اسمه إيه بالكامل ولا أي معلومات عنه، لأني ماعرَّفتش مجدي إني سمعته وهو بينطق اسمك واسمه وهو نايم، وتكمل عبير في نبرة حزينة.. الله يسامح كل ظالم وخاين بقى...

ريهام تقاطعها في صرامة:

- ابقي اسألي جوزك يا ست الكل أنا كنت مخلصة ليه قد إيه؟

عبير في دهشة:

- مخلصة ليه تقومي تروحي تعملي علاقة مع صاحبه من وراه؟ لا والله فعلا، ومنتهى الإخلاص كمان إن الناس تعرف أن العلاقة تطورت لدرجة إنها وصلت إنها تبقى جريمة أخلاقية؟ ثم تصرخ ساخرة: يا حلاوة! لا إخلاص بجد يا مدام.. وتواصل عبير في سخرية: حقيقي اللي اختشوا ماتوا صحيح.

ريهام في عنف:

- صاحبه هو اللي قرب مني في لحظة كنت فيها زي الطير المدبوح، بعد ما جوزك يا مدام تخلى عني بضعفه قدام نفسه واستسلامه لظروفه اللي كان ممكن يتغلب عليها لو شاريني ومخلص ليَّ زي ما كنت أنا مخلصة له.

عبير:

- عشان يثبت إنه شاريكي يقوم يلغي كرامته وإنسانيته واحترامه لنفسه؟ علشان واحد فرض عليه ما لا يحتمله بشر؟ تعالي هنا وخليك على طول واعمل كذًا وسوِّي كذا

مين اللي متجوز التاني؟ هو اللي كان هيتجوزك ولا أبوكي اللي كان هيتجوزه؟ يا مدام

مجدي إنسان طيب لكنه مش ضعيف، أنا عارفة إنه متردد وده بحكم تنشئته اللي كانت قاسية أيام أبوه الله يرحمه، لأنه كان راجل صعب الطباع حسب ما سمعت عنه.

وهنا بدأ الملل يتسرب إلى نفس ريهام فقالت في هدوء:

- طيب يا مدام عبير حضرتك عايزة مني إيه دلوقتي أنا بعد إذنك نفسي أعرف باختصار.. ثم شبكت ريهام يديها أسفل صدرها وهي تتنهد في ضجر قبل أن تقول أنا إيه علاقتي بحياتك مع جوزك دلوقتي؟

شعرت عبير بمدى حرج موقفها، وأن تصرفها لم يكن له مبرر عندما قررت مقابلة ريهام، فاعتذرت لها وانصرفت على الفور، لكنها قبل انصرافها طلبت منها ألا ينقطع التواصل بينهما لأنها تريد أن تعرف حقائق عن مجدي، ظنت عبير بشكل خاطئ أنه قد لا يعرف هذه المعلومات سوى ريهام، وانصرفت كل منهما إلى حيث تقيم، ولم تسأل عبير ريهام عن سبب بقائها في الاسكندرية رغم زواجها من رجل عرفت عنه سابقًا أنه يقيم في عين شمس، عندما اتصلت بنهى زوجة خالد صديق زوجها مجدي الذي لم يكن يعلمٍ ما تفعله عبير من أجل ألا تنهار علاقتها به، ولكنها تعلم إنها سلكت مسلكًا ربما يؤدي بها إلى هلاك محقق لو علم مجدي بالأمر وانصرفت ريهام وهي تسترجع في ذاكرتها ملامح عبير ورقة صوتها وهي تحدث نفسها:

- فعلا عرفت ليه دلوقتي مجدي كان بيدور طول عمره على بنت جميلة، لكنها ابتسمت ابتسامه مكسورة قبل أن تواسي نفسها بلا صوت: لكن برضه خسرك يا بت يا ريرى ومافيش واحده تانية هتعوضه عنك أبدًا، ثم تذكرت ريهام مجدي وهو بين أحضانها أيام الخطوبة البائدة حين كانت تشعر

بأن قلبه يرتجف وتتسارع نبضاته كأنه بيت من زجاج على شاطئ بعيد هبت عليه رياح عاتية في ليلة شتاء باردة، بينما كان حبه في دمها أقوى من إعصار يضرب قاربًا في عرض البحر فيحوله بما عليه إلى أشلاء متناثرة، وفجأة تعود ريهام إلى وعيها بعد أن غاصت بقلبها وعقلها في ما مضى لتعود إلى الزحام قبل أن تشير إلى سيارة أجرة:

- دار السلام يا اسطى؟

ومضت إلى حيث تقيم الأيام الثلاثة المحددة سابقًا مع بنت عمها، ولكنها لم تكن تنسى هذا اللقاء العابر الذي أوقد نارًا لم تكن قد انطفأت جذوتها في القلب بعد، فلم تنس يومًا- وربما إلى الأبد- أن مجدي كان أول الطارقين لباب قلبها الذي بقي موصدًا لأكثر من أربعة وثلاثين عامًا حتى حانت الفرصه ليجمعها به اللقاء الأول في يناير قبل عدة أعوام، وفي اليوم التاسع عشر من ذلك الشهر، فلم يفصل بين ذلك اللقاء وبين زيارته لبيت أهلها سوى ثلاثة أيام، فكان قارب نجاة أخيرًا من العنوسة حطمته عواصف الفقر وأعاصير القدر حتى صار أشلاء متناثرة، ثم تلاشى وابتلعته أمواج الحياة، لكنه لا يزال يترك في قلبها ذلك النقش الفرعوني الخالد على جدران القلب لأول همسة رقيقة، وأول لمسة اشتهاء، وأول شعور صادق بالحب يضيئ قلبها الذي كان كهفًا مظلمًا توارت بداخله أكوام من ذكريات وآمال لم تنل حظها من الحياة، ولم يكتب لها البقاء، وبقيت نفسها الكسيرة تنوح على أطلال الماضي حتى اخضرت الأيام فجأة مع بزوغ شمس الأمل عندما حانت لحظة اللقاء الأول عند مسجد القائد إبراهيم حين أعلن القلب ثورة داخلية على الحرمان، وأنه قد حانت فرصة لحياة طال انتظارها عندما وهبت الأقدار قلبها ذلك اللقاء، ولم تكد تمضي عدة دقائق قبل أن تعود ريهام إلى صوت السائق:

- نازلة فين يا مدام؟ احنا خلاص جنب محطة المترو.

ريهام:

- أنا رايحة شارع الفيوم يا اسطى، معلش كله بحسابه.

وينطلق السائق إلى شارع الفيوم وما هي إلا دقائق ويتوقف الرجل فجأة:

- فين بالظبط يا مدام؟ حضرتك نازله فين؟ أنا مش هاقدر أدخل أكتر من كده أعذريني حضرتك لأني عندي مشوار مهم.

ريهام:

- قدام يا اسطى عند محل العصير الجاي عاليمين ده، آيوة بس كده.. اتفضل حضرتك. أعطت السائق ما طلبه، وبعد ثوان تهبط ريهام من السيارة وإذ بها تفاجأ بهدى ابنة عمها عبدالله في انتظارها وهي تحتضنها بحرارة.

هدى:

- على فكرة انتي ندلة يا بت، والندالة في دمك، كده يا جزمة تحرميني منك المدة دي كلها؟ واحشاني يا بنت الإيه ده أنا ما شوفتش وشك من آخر مرة جيتي فيها هنا مع خطيبك المدرس بتاع الجيزة.

ريهام تنظر في صمت دون حديث وهي تتنهد في مرارة وهي تصعد درجات السلم المؤدي إلى الشقه في الطابق الثالث:

- والنبي يا هدى بلاش كلام يا حبيبتي دلوقتي، استنني عليَّ لما آخد نفسي ونرتاح كده والكلام بيني وبينك مش هيخلص.

انقبض قلب هدى فزعًا لما رأت عليه ريهام من انكسار وحزن بالغين، فالتزمت الصمت حتى انتهت الفتاتان من تجهيز العشاء، ثم قامت هدى إلى

المطبخ مرة أخرى وهي تنادي:

- ريهام.. الشاي بتاعك سكره ازاي؟ كام معلقه يعني؟

- تلاتة.. وتعالي علشان عايزاكي يا هدى.

وبعد لحظات صمت مضت في بطء شديد:

- مالك يا ريهام يا حبيبتي؟ إنتي قلقتيني عليكي.

- أنا اتطلقت يا هدى.

اتسعت عينا هدى دهشة، وقالت في غضب عارم يعتريه الحزن وصوتها يقطر ألما،

هدى في دهشة:

- إيه؟ اتطلقي؟ من إمتى؟ وإيه اللي حصل؟ وازاي أنا ما اعرفش؟

ريهام:

- اتطلقت من فترة بعد ما رفعت قضيه والمحكمة حكمت لي بالتطليق للضرر.

هدى:

- يا نهار إسود! محكمة وقضيه وتطليق للضرر؟! الله يخرب بيتك يا اسمك إيه، هو مش كان اسمه مجدي باين؟

ريهام:

- لا كان اسمه مدحت.. وأكملت ريهام في مرارة وعيناها تنظران إلى الأرض: الله يسامحهم الاتنين بقى، لا أخدت من الأول تضحية علشان يكمل معايا ونعيش في أمان الله، ولا من التاني ثقة فيا لأنه كان بيشك حتى في صوابعه.

هدى:

- لا اله إلا الله، معلش حبيبتي، بس أنا كده لازم أعرف كل حاجة، أنا حاسة من كلامك إني كنت في كوكب تاني بعد كل التطورات دي، هو إيه اللي حصل بالظبط؟ تعالي الأول أعرّفك هتنامي فين، وأنا مش هسيبك الليلة غير لما تحكي كل اللي جواكي.. ثم قرصت خدها في حنان وفي مرح تغلفه ابتسامه حزينة: اتطمني قاعدة على قلبك طول إجازتك دي وانتي عارفاني بقى ما اتوصاش.

ابتسامة باردة ارتسمت على شفتي ريهام، ولم تنطق بحرف واحد.

انطلقت عبير إلى شقتها بالهرم، بعد لقائها القصير مع ريهام وهي تسأل نفسها: يا ترى مجدي حبها ليه لدرجة إنها تفضل مسيطرة على كيانه طول السنين دي؟ حتى وأنا معاه ومش مقصرة في أي شيء من واجباتي كزوجة، بارعاه كأنه ابني، لكن يا ترى لي في قلبه مكان ولا كل السنين اللي فات دي كنت باحلم وصحيت من نومي؟ ولا هو كان بيمثل دور الزوج السعيد المخلص لبيته وزوجته وأولاده؟ ثم نظرت إلى السماء ولم تنفرج شفتاها سوى عن كلمة واحده فقط "يارب"، وبعدها تنهدت بعمق قبل أن تطرأ على ذهنها فكرة شرعت في تنفيذها على الفور، ولذلك غادرت محطة المترو عند البحوث حيث نهاية شارع التحرير بالدقي إلى منطقة بولاق الدكرور، واتجهت على الفور إلى ميدان الطوابق بشارع فيصل، وأجرت مكالمة تليفونية:

- آلو مدام نهى؟

نهى:

- مين معايا؟ وبعد لحظات:

- أنا عبير مرات مجدي صاحب مستر خالد يا مدام نهى، ممكن أقابل حضرتك لو تكرمتي دقايق مش أكتر؟ عايزاك ضروري لو تكرمتي.

نهى:

- أوكيه حاضر شوية وهاكلم حضرتك أقول لك أنا فين.

عبير عند أول الشارع وقبل أمتار من شقتها التي تقيم بها تغير المسار فجأة إلى شارع جانبي موازٍ لشارع الهرم الرئيسي، وعند مكان اللقاء عبير تقترب من أحد المحال:

- لو سمحت من فضلك واحد عصير قصب بس ياريت أكبر حجم عندك.. الهاتف يرن: أيوه يا مدام نهى أنا على أول الشارع، حضرتك فين؟

وبعد ثوان، امرأة في منتصف الثلاثينات بشوشة الوجه بيضاء البشرة وديعة الملامح

- أنا آهو يا عبير.. إنتي يعني نسيتي ملامحي خلاص؟ زعلانة منك يا وحشة، كده نبقى جيران وماتفكريش مرة واحده تزوريني؟ ثم تنقبض ملامح وجه نهى رغم ابتسامتها، وتتبادلان القبلات، فينك يا عبير إيه يا بنتي الغيبة دي؟ ونظره تملؤها الدهشة قبل أن تواصل حديثها: وبعدين تعالي هنا قولي لي إيه حكاية مدام دي؟ فيه بين الأخوات مدام برضه؟

- معلش يا أم؟ ثم بترت عبارتها لتسأل نهى فجأة وملامحها المرتجفة قلقًا توارى ابتسامه شاحبه هي بنتك اسمها إيه؟

نهى في دهشة وبصوت مرح:

- يالهوي عليّ.. اسمها ريهام يا حبيبتي.

عبير في ذهول تام:

- معقول ده؟!

نهى:

- مالك يا عبير؟ أنا قلت حاجة غلط؟ ثم تمازحها قائلة: تحبي أغير الاسم؟ نمشيها رانيا لو يريحك؟

عبير في وجوم بعد أن جفت ملامحها:

- مش دي المشكلة، أنا أساسًا كنت هاسألك عن ست بنفس الاسم.

وبعد صمت طويل، نهى تقول في هدوء:

- تبقى أكيد خطيبة مجدي جوزك الأولى بتاعة اسكندرية.

وهنا فقط اتسعت عينا عبير دهشة:

- هو انتي تعرفيها؟

- أنا ما اعرفهاش، لكن سمعت عنها من خالد لما كان مجدي لسه خاطبها، وبدأت المشاكل بينهم بعد ما أبوها قال له وهما في دار السلام عند ولاد عم ريهام، إنت لازم تنقل شغلك وحياتك البحيرة.. وساعتها...

بترت نهى كلامها فجأة عندما صرخت عبير:

- البحيرة؟ ودار السلام؟ ثم تكرر في استنكار دهشة ممزوجة بالغضب: انتي بتقولي دار السلام؟ ثم صمتت عبير ومالت برأسها إلى الأرض وهي تحدث نفسها عشان كده كانت جايه من إسكندرية وقالت إنها رايحة دار السلام.

فقالت نهى وقد أفزعها تحول ملامح عبير المفاجئ إلى الغضب المثير للرعب:

- هو انتي ماكنتيش تعرفي حاجه عن جوزك ولا إيه؟

عبير وقد استشاطت غضبًا:

- أعرف إيه وأهبب إيه بس؟ الله يسامحك يا مجدي، وأنا كنت فاكرة إني قدرت أنسِّيه كل اللي فات من عمره، وإني كنت الوحيدة في عقله وقلبه، ثم استطردت في صوت هامس وهي تهز رأسها بحسرة: يا نهار اسود.. ثم نظرت إلى نهى وعيناها تتوسلان في صمت قبل أن تسألها: أعمل ايه يا نهى؟

- هتعملي إيه يعني؟ تخربي بيتك بإيدك مثلا؟ إنسى كل حاجة وكأن مافيش أي حاجة حصلت، لأن فعلا مافيش حاجهة، كان ماضي وانتهى والحمد لله إن جوزك تجاوز الأزمة دي على خير، لأنه كان موقف صعب جدًا، أنا لما شفت مجدي عندنا في البيت بعد الأزمة دي صدقيني والله صعب علي كان في حاله ما يعلم بيها إلا ربنا.. ثم استطردت: من يومها خالد أنهى علاقته بمدحت.

نظرت إليها عبير في دهشة قبل أن تقول:

- مدحت؟ النهارده يوم مش طبيعي، مدحت والبحيرة ودار السلام وإسكندريه أنا حاسة اني باحلم.. ثم هزت رأسها نفيًا: لا أنا مش باحلم ده أنا في كابوس ومش عارفه أفوق منه، إيه كل ده؟

هنا فقط شعرت نهى بما فعلته دون قصد عندما فجرت جراحًا ربما لا تلتئم مرة ثانية، لكنها قالت في نبرات هادئة تقطر حكمة ومودة صادقة:

- أرجوكي يا عبير عيشي حياتك طبيعي وبلاش تنكدي على نفسك وعلى جوزك وتهدمي حياتك علشان أوهام مافيش ليها أي أساس من

الصحة، والله جوزك طيب وأنا عارفاه كويس، أنا فاكرة يوم جوازي لما حضر فرحي أنا وخالد، الناس شافوا فرحته في عينيه وقالوا إنه كان فرحان لصاحبه أكتر من فرحته لو كان ده يوم جوازه، بلاش تخسرى اللي جاي وساعديه يعيش حياته وما يرجعش تاني للماضي اللي كسر قلبه..

وفجأة عبير تنظر إلى نهى والغيرة تنهش قلبها:

- كسر قلبه؟ قصدك إيه؟

الفصل السابع

ارتبكت نهى وشعرت بأنها قد تواجه ما لا يحمد عقباه، ثم تعللت بأنها تأخرت وتخاف أن يعود خالد من العمل فلا يجدها، فاعتذرت لعبير وانصرفت بعد أن ألقت عبير بعفويتها الزائدة في أتون جحيم مستعر من الشك والقلق، ولم تمض إلا دقائق حتى شعرت عبير بأن الأرض تدور تحت قدميها، تكاد تسقط مغشي عليها وقدماها لا تقويان على حملها لكنها قاومت بشده ما يغلي في عروقها من دماء الغيرة قبل أن تواجه في شراسة ما يدور بعقلها وقررت أن تلتزم الصمت حتى ترى ما سوف تظهره الأيام مما أخفت القلوب سنوات لم يشق بها سوى زوج كان أطيب من أن يظلم أحدًا، لكن ظلمه أقرب الناس إليه صديق العمر وفتاة أحرقت باقي العمر.

وما هي إلا ساعة حتى وصلت عبير إلى شقتها وهي كسيرة الفؤاد، لا تعلم ما تخفيه لها الأيام المقبلة، وعندما خلت إلى نفسها انهارت وراحت في نوبة بكاء هستيرية، ولكنها حمدت الله أنها كانت بمفردها لأن أطفالها في ضيافة أخيها سليمان، ومجدي ما زال في عمله ولا تعلم متى يعود، حاولت أن تملأ فراغها بأي شيء، لكنها لم تجد شيئًا، تتنقل بين قنوات التليفزيون بلا جدوى، تحاول أن تسمع موسيقى بلا جدوى، ليست لديها رغبة في شيء، حتى الدردشة مع الصديقات على فيس بوك لا تجد لها جدوى، إنها الآن في انتظار مجدي ولا ملاذ لها إلا المطبخ، انهمكت في تحضير الطعام لعلها

تخرج من تلك اللحظة القاسية التي لم تشهدها علاقتها بمجدي منذ أن تمت خطبتها له قبل عدة أعوام، أخيرًا اكتفت بتقشير الجزر لإعداد البسلة التي كان مجدي يعشقها بديلا عن الملوخية الأسكندراني التي حرمته الأقدار منها منذ سنوات بعيدة.

أنهى مجدي مراجعة وحدة كاملة من المنهج مع طلاب الثانوية العامة، وغادر القاعة التي اعتاد أن يشرح فيها دروسه للطلاب بعد أن شعر بالإجهاد، وما إن استقل سيارته حتى انطلق بسرعة غير عادية ولم يكن يدرى ما هو السبب الذي يدفعه إلى ذلك، وبعد قليل يواجه اختناقا مروريًا في طريق العودة إلى بيته فيهدئ من سرعته حتى كاد يتوقف، وتمر الدقائق والأصوات الصاخبة تصم الآذان، وتأفف مجدي الذي مصمص شفتيه في استياء ثم أشعل سيجارة وغاص بفكره قليلا يعود إلى ماضيه الذي كان وما زال يهدد مستقبله بعد أن بدأ يهز أرجاء الحاضر دون وعي منه، إنها تلك اللحظة التي التقي فيها ريهام فوق كوبرى ستانلي، وبعد قليل وقف مجدي وريهام بعد مشوار طويل وعندما اقترب منها ليخطف قبله نهرته ريهام بوجه زادته الابتسامه الخجولة إشراقًا في تلك اللحظة، قبل أن تمتد يد مجدي إلى جسدها حين استبدت به الرغبة واحترق قلبه من فرط نشوته حتى بدا كالمخمور، فتسللت يده إلى جسدها واعتصر خصرها ثم غاصت يده لتصل إلى المزيد غير عابئ بتأوه ريهام واستنكارها لما يفعل قبل أن تقول في صوت هامس في تمنع جائعة:

- عيب يا وله إحنا في الشارع يا مجدي يخرب بيت جنانك.

وهنًا صرخ مجدي مازحًا:

- يالهوي يا أمه.. إمتى بقي نستحمى؟

وتعالت ضحكاتهما، كانا عاشقين يعتصران الحياة ليرتشفان رذاذ لذتها التي تمنحهما إياه في بخل كافر لا يجود إلا بما لا يروي ظمأ نمله في صحراء قاحلة، لكن مجدي لا يستسلم للحياة القاسية، ويحيط خصر ريهام ملتمسًا دفء قلبها قبل أن يغادر المكان عند الغروب استعدادًا للسفر في المساء إلى القاهرة قبل أن يلتقي رفيق العمر الذي كان يتلهف إلى سماع الجديد من أخبار مجدي وريهام، كما يتلهف المظلوم إلى سماع كلمة البراءة بعد عذاب طويل في غياهب السجون، عاد مجدي وهو يكاد يرفرف بجناحين وعندما التقى صديقه مدحت، أجابة بعد أول رشفة من كوب الشاي:

- قالتها يا مدحت.. ثم يكرر: قالتها والله يا صاحبي.

مدحت مبتسمًا وهو يشعل سيجارة:

- قالت إيه يا مجدي قول إنت يا صاحبي.

مجدي وقلبه يرفرف:

- قالت لي باحبك يا ولة، قالتها وإحنا في شارع النبي دانيال.

مدحت:

- مبروك عليك يا عم.. ضحك مدحت في ارتياح بالغ: الله يسهل لك، وإحنا عالمهل، ثم قال وفي عينيه ابتسامة حزينة تخفي مشاعر دفينة لا تفوح منها سوى رائحة حقد عفنة: البنت دي بتحبك أوي على فكرة، والله بت غلبانة، يا عم ربنا أنعم بيها عليك بعد طول صبر.

يعود مجدي من الحجرة الثانية بعد أن بدل ثيابه قبل أن يقول:

- على فكرة يا مدحت البنت دي فعلا ممتازة، دي قالت جملة يا إبني عمرى ما أقدر أنساها طول عمرى.

نظر إليه مدحت بلا اهتمام كما تعمد أن يبدي له في الفترة الأخيرة، قبل أن يسأله:

- قالت إيه يا مجدي إطربني يا عم.. ثم ضحك ساخرًا: الله يسهل له.

مجدي:

- تخيل البنت بتقول لي أنا هانسيك نسوان العالم كله.

ويبتسم مدحت في مرارة، وهو ينظر إلى الأرض قبل أن يرتشف رشفة من كوب الشاي:

- قدها وقدود يا أبو إسكندر،ثم ينظر إلى مجدي لكن عيناه تخفي الكثير، ثم قال: والله إنت طيب وتستاهل كل خير والعيشة مع البنت دي فعلا هتعوضك عن أي حاجة، يلا بقى طفي النور لأني عايز أغلق درج المعالق، عايزين ننام ورانا شغل بكرة، وإنت عارف الواحد بيكون ناقص يبوس إيد نفسه علشان بصحي بدرى في البرد ده.. ضحك الصديقان واحتواهما سرير واحد وغطاء واحد كعادتهما منذ سنوات طوال،

وبعد لحظات يتحرك الطريق فجأة ومجدي غارق في خيالاته وماضيه الغامض، وتتعالى أصوات السيارات وآلات التنبيه من حوله وينطلق مجدي بسيارته بعد أن يتنهد في صعوبة كأنما يفر من تلك الذكريات الأليمة التي صارت صديقًا حميمًا كلما خلا إلى نفسه، وما هي إلا دقائق حتى كان مجدي يقف عند باب شقته لا تكاد قدماه تحملان جسده المنهك، وما إن دخل إلى شقته حتى فوجئ بهدوء تام على غير العادة، وينطلق صوته مارقًا في فضاء الشقة الواسع ممزقًا ستائر الصمت:

- عبير.. إنتي فين؟ وإيه الهدوء العجيب ده؟ الولاد لسه عند سليمان ورحاب؟

عبير من داخل المطبخ:

- ثواني يا مجدي.. خرجت وعيناها تشعان ببريق حزين وقد بدا عليهمًا الاحمرار، يلقي مفاتيح السيارة ويسترخي على مقعد وثير في الصالون متأوها:

- آه يا انا يا أمه.. ثم يسأل عبير: إيه يا بنتي فيه إيه مالك؟ يخيم الصمت، مجدي يكرر: مالك؟

تنفجر عبير كالقنبلة:

- لسه بتحب ريهام يا مجدي؟

اتسعت عينا مجدي دهشة، وانتفض مذعورًا كمن لدغته أفعى، وهو يصرخ مندهشًا: - ريهام؟ ريهام مين يا بنتي؟ وجبتي الاسم ده منين؟

عبير:

- ريهام سمير الشناوي يا مجدي، خطيبتك اللي كانت من إسكندرية وانفصلت عنها قبل ما تعرفني بكام شهر، وسمعت اسمها منك وإنت نايم هي وشخص تاني اسمه مدحت.. ثم سألته في نبرة يمتزج فيه الحزن بالغضب: مين ريهام؟ ومين مدحت ده؟

نهض مجدي من مكانه ودار حول نفسه ثم شبك أصابعه أمام وجهه قبل أن يتنهد مجيبًا:

- ريهام كانت خطيبتي، وكنت باحبها، لكن ده كان من سنين طويلة قبل ما أتجوزك ورفضت أصارحك باي حاجة تخصها، لأني اعتبرته ماضي

وانتهى، والزمن كفيل أنه يدفنه جوايا، انتي مين قال لك اسمها وعنوانها؟ وإيه اللي خلاكي تتكلمي عنها دلوقتي؟

- مع الأسف يا مجدي حياتك اللي انقلبت فجأة هي اللي أجبرتني اسأل واعرف،

مجدي:

- طيب ليه مافكرتيش تكلميني أنا؟ وسألتي مين قبلي؟

- خفت تكذب عليَّ، أو تفتكر أن أنا ممكن أصدق إنك نسيتها، وعشت ليَّ ولبيتك ولأولادك، يا خسارة كنت فاكرة إنك حبيتني بصدق.

زفر مجدي وهو يضرب كفًا بكف قائلا:

- لا إله إلا الله، يا بنت الناس مين قال لك إن النبش في القبور هيحل حاجة ولا هيرجع ميت؟ وبعدين إنتي ماتعرفيش حاجة عن ريهام، إنتي حاجة وهي حاجة تانية خالص، دي إنسانة كانت مختلفة جذريًا عن أي حد عرفته في حياتي، كان كل همها تتجوز، بدليل إنها اتجوزت واحد كان صاحبي.. ثم نظر إليها مستعطفًا قبل أن يقول: كان صاحبي يا عبير، عارفة يعني إيه؟

- عرفته كام سنة يا مجدي؟ وليه هي باعتك وراحت اتجوزته؟

- عرفته 23 سنة، وراحت اتجوزته لأنه كان محتاج لزوجة تكون لها وظيفة وقرشين آخر كل شهر يساعدوه في حياته، ودي كانت ميزتها الوحيدة اللي ربنا أكرمها بيها علشان تلاقي فرصة جواز وتتستر بعد ما فرص جوازها بقت ضعيفة زي كتير من البنات في مصر لما بتعدي سن التلاتين، خصوصًا لو كان جمالها محدود، واحنا كمان حتى الرجالة في مصر بيكون ليهم وقت

محدد وبعد كده الفرص بتقل وتبقى ضعيفة جدًا، عرفتي باعتني واتجوزته ليه، لأني كان عندي مشاكل مادية واجتماعية، الهانم في الوقت ده اعتقدت أن المشاكل دي هتفضل للأبد، ومش هتتحل أبدًا.. ثم يصرخ مجدي في وجه زوجته: عرفتي باعتني ليه؟ لأنها بتتعامل بلغة السرير يا مدام، يهمها إنها تتجوز وخلاص، أي جواز، ولو كان حد له سوابق ولا مدمن مخدرات، المهم تلاقي ضل راجل، عرفتي باعتني ليه يا عبير؟ ثم يستطرد قائلا: باعتني لأني ساعتها كنت باواجه ظروف معقدة وهي افتكرت إني مراوغ أو باتهرب منها، لكن الحقيقة إني كنت باحاول أوازن بين مشاعرى ناحيتها، وإني ممكن أخسر الجميع بسببها، بيتي وأهلي وكرامتي، إنتي ماتعرفيش أبوها ابن الجزمة عمل معايا إيه؟ كان نفسي أشوفه بعدها وساعتها كنت هاعرفه هو يساوي إيه في نظري، كنت هاخليه عبرة على مدى التاريخ، أقل واجب كنت هاعمل منه مسخة لكل راجل واطي... وبتر عبارته فجأة قبل أن يسألها: إنتي مين قال لك إسمها بالكامل؟ ثم ينظر إلى الأرض وهو يهمس قائلا: شكلها هتخرب بيتي أول وتاني، لا وثقت فيّ في كل اللي راح، ولا ناوية ترحمني في اللي جاي، ردي يا عبير.. صرخ مجدي في غضب وهو يمسك بذراع زوجته يجذبها إليه في عنف: عرفتي اسمها بالكامل من مين؟ وتفجر عبير القنبلة الثانيه في تلك الليلة لتدمر كل شيء:

- مجدي أنا قابلت ريهام وكلمتها.

- إيه؟ قابلتي ريهام؟ واتكلمتي معاها؟ فين؟ وإمتى؟ صرخ مجدي حتى كادت الجدران تنهار، ثم ضحك في عنف وهو يرفع رأسه صائحًا: الله الله يا حلاوة، ده أنا بيتلعب بيا من كل ستات الأرض، هي تخوني مع صاحبي، وانتي بعد كل العمر ده بتلعبي من ورايا؟ دي بقت مهزلة مراتي بتلعب بيا،

ويضرب كفًا بكف، ثم ينفجر غضبًا: إزاي يا مدام يا محترمه تخرجي من غير إذن جوزك وتروحي تقابلي واحده مافيش بينك وبينها أي علاقة ولا أي مبرر إنك تتكلمي معاها؟ ثم تعالي هنا، قولي لي.. ومال إليها هامسًا وعيناه تنظران إلى وجهها نظره تخلع القلوب من موضعها رعبًا: إنتي رحتي تقابليها ليه؟ هل عشان تقولي لها أنا مرات الراجل اللي انتي كنتي بتخونيه مع صاحبه زمان وعايزه اعرف سبب خيانتك ليه بعد كل السنين دي؟

عبير وعيناها مغرورقتان بالدموع:

- أنا يامجدي؟

مجدي في غضب عارم:

- لا أمي.

احتبست الكلمات في حلقها وهي تنطق باكية:

- رحت علشان أعرف مين فيكم صاحب قرار الانفصال؟ إنت ولا هي.

مجدي :

- يا سلام! لا كده ارتحت أنا، وده يفرق معاكي في إيه بقى؟ عبير في نوبة من البكاء، لكن مجدي لا يرق لحالها، بل يواصل حديثه العنيف: تفرق معاكي في إيه؟ ردي عليَّ، وليه رحتي بدون علمي؟ ثم ضحك ساخرًا حتى كاد يبكي: طيب حتى اضحكي عليَّ قولي لي رايحه عند بابا.

مجدي:

- أنا عمرى ما خدعتك من يوم ما عرفنا بعض، ووافقت إني أكون مراتك، أنا رحت علشان أعرف منها لو كانت هي سبب الفراق يبقي إنت بتتعذب بيها، وساعتها كنت هابعد عنك، ولو كنت إنت سبب الفراق يبقى ساعتها

كنت هاساعدك إنك تتخلص من عذاب الضمير، وأحاول أوجد أو حتى أختلق مبرر ولو كان وهمي يساعدني أطلب منها تسامحك، يمكن ضميرك يستريح وترجع لي بقلبك وكيانك زي زمان.

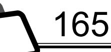
مجدي يضحك في مرارة:

- قلبي ده نفسي أولع فيه وداني في ستين داهية، يا أحب بنت مغرورة وأنا لسة طالبِ يا إما أتعلق ببنت وبعد ما تسكن دمي اكتشف إنها وخداني سلم علشان توصل لصاحبي لدرجة أنه في يوم خطوبتنا ألاقيها بتقول لي أنا حاسة من جوايا أنه علاقتي بيك إنت ومدحت مش هتكون نهايتها طبيعية، ثم يتنهد في مرارة: النهاية مكانتش طبيعية، خانتني معاه بنت النجس، إتسعت عينا عبير دهشة، لكن مجدي تجاهل نظرتها ثم أردف قائلا: عارفة نجس ليه؟ وقبل أن تنطق عبير بحرف واحد، أكمل مجدي: لأن صاحبنا كان عارف أن بنته ماشية شمال مع واحد تاني، ومطنش، يعني لامؤاخذة... ثم يهدأ قليلا قبل أن يقول استغفر الله العظيم، وآخرتها أتجوز واحدة بعد كل ده بتشك فيَّ؟ وكمان بتروح من ورايا تفتش في أوراق ودفاتر الماضي القديم؟! كلكم ولاد ستين... يرمق زوجته بنظرة نارية، وهو يصرخ: ملعون أبو اللي يدي قلبه لواحدة ولو كانت أمه.. ثم يلتقط مفاتيحه وهو يتجه نحو الباب قائلا في غضب: أنا سايب لك البيت وماشي، مش طايق أشوف أي حد، ملعون أبو اليوم اللي فكرت أتهبب وأتجوز فيه ده أنا كنت غبي لما فكرت أنه فيه ست عاقلة.

عبير في مرارة تتابعه بعينيها في صمت قبل أن تقول متوسلة:

- مجدي إنت رايح فين؟

مجدي:



- هاروح في ستين داهية تاخدني، لما نبقي نحترم بعض يبقى ساعتها نشوف حياتنا هتمشي إزاي يا مدام، ثم إستطرد قائلا: أنا رايح البلد، وانتي براحتك عيشي أيامك وإبقي روحي إسالي عني من ورايا، ثم عاد فجأة إلى مدخل الشقة قبل أن يهمس غاضبًا: للدرجة دي ثقتك فيّ انعدمت؟ ليه يا بنت الناس؟ مش كفاية اللي شفته من دنيتي؟ جاية تكملي عليَّ؟ حرام عليكي والله اللي بتعمليه فيَّ ده.

ثم انطلق مغادرًا البيت ولم يستخدم المصعد الكهربائي، بل هبط درجات السلم في سرعة جنونية واستقل سيارته وقرر أن يتجه إلى بيت صديقه خالد لعله يستعيد بعضًا من هدوئه، لأنه شعر بأنه كاد يدمر بيته ويخسر زوجته بسبب انفعاله، وانطلق مجدي قاصدًا صديقه خالد لعله يجد عنده ما يسرى عنه تلك الضائقة التي ألمت به عندما واجهته زوجته بما أخفاه عن الجميع، حين أدرك بين يديها أن ريهام ما زالت تسكن فؤاده رغم مرور السنوات وتوالي الأحداث، ولم يفجر هذا الأمر في نفسه إلا الأحداث الأخيرة بعد أن علم بانفصالها عن رجل باعه ليقترب منها، لكن الثمن الذي باع به صاحبه كان قليلا، وصلت سيارة مجدي إلى منتصف الشارع الذي يقيم به خالد فغادر السيارة، وقصد أن يصل إلى البيت مترجلا، لأنه وجد نفسه في حاجه إلى أن يخلو بنفسه، وكعادته الأزلية وقف مجدي في منتصف الشارع ينظر حوله كما يفعل لص يتحين الفرصه ليسطو على مكان، ثم اقترب من سيارة على يمين الشارع واتكأ بجسده عليها، فقد كان يشعر بالإجهاد والأرق، لكنه أشعل سيجارة وبعد أن فرغ منها انطلق إلى حال سبيله، كأن شيئًا لم يحدث، وبعد دقائق يدق مجدي جرس الباب ويستقبله خالد بحفاوة بالغة كعادته:

- إيه يا إبني الغيبة الطويلة دي؟ يخرب بيت سنيتك؟ هو ده حق العيش والملح؟!

- ياعم ملح إيه وسكر إيه؟ سيبني في حالي يا خالد والنبي، وترتسم ابتسامة حزينة على شفتيه قبل أن يسأل: أخبار ولادك إيه؟ اقصد بناتك.

- يا سيدي مش فارقة، رانيا في المدرسة، وريهام في الحضانة، وعلياء نايمة جوة، اتفضل حبيبي أقعد، أخبارك إنت إيه؟ وفين مدام عبير والأولاد؟ إنت دايمًا براوي كده؟

-أهلا مدام نهى.

مجدي وهو ينهض متحاملا على نفسه لمصافحة زوجة صديقه، قبل أن يلقي بجسده على الكرسي وهو يتوجع ألمًا:

- مالك يا واد يا مجدي؟

- مافيش يا خالد، أنا عايز أي لقمة بعد إذنك لأني ميت من الجوع، وبطلت أكل شارع من زمان وإنت عارف.

- عايز لقمه؟ ده إنت عمرك ما عملتها من يوم ما اتجوزت! مالك يا مجدي؟ يخرب بيتك انت زعلان مع عبير ولا إيه؟ تكونش سبت البيت وجاي غضبان عندي؟ أنا مش أمك يا واد، أمك ماتت.

ثم ينفجر خالد ضاحكًا، مجدي ينظر إليه بغضب:

- خالد والله أنا مش مستحمل أي هزار من أي نوع، ما تبقاش زي فريد ممكن يهزر لو قاعد في صوان عزا، لو تكرمت شوف لي حاجه آكلها وهاقوم أريح ساعتين ولو ناوي تهزر...

خالد يرمقه بنظره ساخرة ثم يقول مازحًا:

-ها؟ هتعمل إيه يعني؟

مجدي ينفجر صارخًا:

- عليَّ الطلاق ودي أول مرة أحلف من زمان بالقسم ده، ممكن أسيبك وأسافر الفيوم حالا عند ولاد عمي.

خالد وقد جفت ملامحه:

- إهدى يا عم مجدي.. ثم يربت على كتفه: مالك يا مجدي؟

- أنا كنت هاطلق عبير النهارده، تصور إنت بقى!

خالد:

- يا ساتر يا رب، ليه يا ابني كده؟ يخرب بيت جنانك، إيه اللي حصل؟

- تصور يا خالد؟ عبير تتصل بريهام وتروح تقابلها من ورايا؟

خالد يمط شفتيه وعيناه تتسعان دهشة قبل أن يرد في ذهول:

- ريهام مين؟ مرات مدحت؟

- قصدك ريهام خطيبتي اللي خانتني وراحت من ورايا عملت علاقة مع مدحت.

خالد في هدوء يهمس وهو يبتسم في مرارة:

- يا سيدي مش فارقة، يغوروا كلهم في داهية وزي ما قلت لك زمان وإحنا لسه بندور عالجواز، فاكر؟

مجدي:

- قلت لي إيه يا خالد؟ هو أنا فايق لك؟ ما تخلص في الكلام وتجيب من الآخر!

- قلت لك ساعتها لما بتقول لي البنت بتاعة سراي القبة، جملة واحدة، فاكرها؟ ولا تحب أفكرك؟

وهنا يبتسم مجدي بعد أن هدأ قليلا:

- قلت لي يا عم إرمي لسة جاي كتير، يعني في الزبالة صح.

وهنا يضحك خالد وهو ينظر لمجدي:

- يا ابن الصرمة دماغك سم.

ثم تتعالي ضحكاتهما قبل أن يستطرد مجدي:

- يا ابني أنا فاكر كلمتك لما كتبت لك عالشات أن أبوريهام عايزني أعيش معاه في إسكندرية بقية عمري إجباري، فاكر إنت الكلمة دي ياخالد؟

وهنا يتنهد خالد قبل أن يسأل:

- قلت إيه أنا ساعتها؟

مجدي:

- إنت كتبت لي عالشات كلمة واحدة "أحمس"!

ويضحك خالد حتى تدمع عيناه قبل، أن يقول:

- يا ابن اللعيبة، ده انت بلوة.. ثم يستطرد قائلًا: أنا حاسس إنك مش بتنسى حاجة أبدًا من مواقف الناس معاك.

مجدي:

- هي دي كانت مواقف؟ دي مقالب زبالة، الله يخرب بيت الفيس واللي اخترعه، أروح للراجل إبن العاهرة يقوم يقول لي ورق و100 ألف جنيه، ده كان راجل مجنون ابن مجنون يا عم الحاج.

وهنا ينفجر خالد ضاحكًا قبل أن يطلبها من مجدي، وهو يشير إليه محدثًا صوتًا من أصابعه:

- طيب ما تكملها يا مجدي.

مجدي بابتسامة تغلفها الدهشة:

- أكمل إيه يا إبني؟

وهنا يكمل خالد بنفسه:

- قول مجنون ابن مجنون حفيد مجنون.. لم يكمل خالد الجملة وكان قد سقط على الأرض عندما فقد توازنه من شدة الضحك، قبل أن ينادي زوجته نهى بسرعة: شوية والنبي.

مجدي في دهشة وهو يهز رأسه مبتسمًا:

- فعلا الفلاحين عندنا قالوها.. في ستين داهية حورية متربية في حضن حية.

وهنا تقول نهى:

- وهي مش حورية ولا حاجة يا مجدي، دي إنسانة رخيصة حولت نفسها لسلعة، وكانت بتدور على أي مستهلك قبل ما تنتهي صلاحيتها، حتى قدام نفسها، ولا أنا غلطانة؟

ينظر مجدي والحيرة تأكل قلبه ويهز رأسه:

- ماحدش عارف مين غِلط في حق مين يا بنت عمي؟ المهم دلوقتي أنا عايز أعرف عبير مراتي جابت رقم ريهام من مين؟ وازاي تتجرأ وتروح تقابلها من ورايا؟ أنا قربت أتجنن.

فجأه نهى تفجر القنبلة:

- آسفه يا مجدي مراتك خدت مني الرقم.

وهنًا يضرب خالد كفًا بكف وهو يصيح في دهشة:

- يا خبر يا مجدي! تصور نسيت أقول لك إن المدام كلمتني وخدت رقم مراتي وأنا ماكنتش مهتم إنك تعرف؟ أنا مش عارف إزاي نسيت؟!

مجدي في دهشة:

- ماكنتش مهتم؟! إنت فكرتني بفؤاد ابن خالتي الله يسامحه هو التاني، لما مدحت راح يقول له هاروح أخطب ريهام، بس خايف مجدي يزعل، فلما كلمت أنا فؤاد بعدها قال لي ماكنتش مهتم يا مجدي بإني أبلغك، ومن ساعتها ولغاية النهارده قطعت علاقتي بفؤاد لأنه لا حافظ على كرامتي ولا احترم مشاعري، ده كلام يا خالد؟!

خالد:

- يا عم طيب، نتغدى الأول وبعدين أبقى ازعل براحتك.

مجدي في دهشة وشعور عارم بالحسرة:

- طيب عليَّ الطلاق مره تانية ما أنا واكل، ولو جادلت معايا هاقسم يمين مغلظ إني مش داخلك بيتك تاني يا عم خالد؟ ومش شارب شاي كمان سلام عليكم.

أكمل مجدي جملته وهو يهم بالانصراف، ولم تفلح محاولات خالد لتهدئة مجدي، الذي غادر المكان غاضبًا وهو يتجه إلى الجيزة وقد بلغ منه الغضب مبلغًا، ولم يفكر حتى في ما سوف تفعله زوجته التي ثار عليها عندما نكأت بفعلتها جرحه الدامي أبدًا.

استيقظت ريهام عند الظهيرة، وظلت تتلوى في فراشها وهي تستمتع بالدفء في ذلك اليوم الممطر العاصف، والذي استعادت به ذاكرتها نوات الإسكندرية الحبيبة إلى قلبها والتي تشعل ذكرياتها في قلبها حنينًا جارفًا لتلك المدينة كحنين الأطفال إلى فرحة ليلة العيد حين ينام الطفل محتضنًا ثيابه حتى الصباح كأنما هي جزء من قلبه الأخضر بلون الجنة النقي كالندي عند الفجر، ولكن لم يدم الحلم طويلا، فقد أفسد عليها تلك اللحظة الحالمة ضجيج في المطبخ أحدثته ابنه عمها وهي تعد طعام الإفطار قبل أن تقتحم الحجرة كما يقتحم رجال الشرطة أوكار المجرمين، حين ركلت باب الحجرة بقدمها وهي تحمل مائدة من المعدن عليها بعض أطباق الطعام قبل أن تقول في مرح:

- ممكن الملكة تقوم تغسل وشها على ما الوصيفة تجهز الفطار الملكي؟ وبابتسامة رقيقه نظرت هدى إلى ريهام وهي تطلق صفيرًا مرحًا كأنه اشاره إليها: صباح الفل.

ريهام تتأوه متثائبة وهي تقاوم النعاس، وتنهض في تردد:

- صباح الفل يا قمر أخبارك؟

- أخبارى؟ ثم تبتسم في سخرية: طالع عيني من الصبح وسيادتك غرقانة في العسل وسايبة الشقه تضرب تقلب من إمبارح، أعمل معاكي إيه؟

- إعملي لي شاي بحليب، ثم تنفجر ريهام ضحكًا.

هدى:

- حتى وانتي لسه صاحية بتقلشي؟ يخرب بيت فقرك.

وتغادر الحجرة في هدوء لإحضار باقي طعام الافطار، وتنظر ريهام من

شرفة الشقة فيتهادى إليها ضوء الشمس- في غلالة ذهبية- رقيقًا، لينسج عالمًا من الرومانسية العبقة، يرخي سدوله على المكان قبل أن تقول ريهام بلا صوت:

- كنت فاكرة الليل في حياتي آخره نهار، وإني لما ألاقي الحب هتبقى السعادة في حياتي أنهار، لكني لما سلمت قلبي لأول حب صارت حياتي كلها عذاب ومرار.. ثم هزت رأسها في يأس: بعد كل العذاب اللي عشته وتقولي لي غاوية ألش وهزار؟ يا ما كتير شايفينهم الناس حياتهم جنة لكنهم في الواقع في قلب النار! ثم تنظر خلفها فتكتشف أنها وحيدة، فلم تقل سوى: استغفر الله العظيم، ثم نادت بصوت عال: هدى.. يلا علشان نفطر وأنزل، لأني احتمال أسافر بكرة، مش هكمل هنا الأيام التلاتة كلهم.

ولم تمض إلا لحظات حتى انتهى إفطارهما، لتفاجئها هدى بقولها:

- ريهام ليه انفصلتي عن مجدي مع إني سمعت إنه كان بيحبك بجنون؟

ريهام في ضجر:

- يااااااه استغفر الله يا بنتي حرام عليكي.. ثم نظرت إلى هدى تستعطفها: ارحميني من اللي فات، ملعونة الأيام السودا اللي جمعتني بيهم.

هدى في دهشة:

- بيهم؟ تقصدي مين ؟

- أقصد مجدي خطيبي الأولاني ومدحت جوزي هو كمان.

- اللي طلقك؟ قصدك اللي اتطلقت منه بعد ما رفعت عليه قضية طلاق؟ نهارك مش فايت ليه يا بنتي، إحكي لي ده أنا أختك هو أنا مش في نظرك زي أميمة.

ريهام في نظرة حانية:

وأكتر يا حبيبتي والله، وأكتر، وإنتي أكيد عارفة ده يا هدهد.

- طيب مادام كده بقى قولي لي ليه سيبتي مجدي؟ وليه عملتي مقارنة بينه وبين مدحت؟

- لأنهم كانوا ولاد بلد واحدة من أرياف الجيزة، وكانوا أصحاب حوالي عشرين سنة ويمكن أكتر، ولما قابلت مجدي علشان يتعرف عليَّ، في البداية كنت مرتاحة له جدًا، مش قادرة أقول لك كنت ملهوفة عليه قد إيه، كأني كنت أعرفه من سنين طويلة، مع أنه كان معرفة فيس بوك، اتقابلنًا في الدردشة على الفيس وبعدها اتقابلنا، وبعد المقابلة بكام يوم...

هدى:

- ها؟ كملي.

تتنهد ريهام:

- راح اتقدم لبابا، وكان مرحب بيه، وكان مرتاح له، لكن مجدي بعد أول لقاء عمل مشكلة كان متفق مع عمك إنه هيعمل خطوة معين، وبعدين في الاتفاق قال لو قدرت ماشي، ماقدرتش خلاص يا جماعة يبقي أعمل المتاح.

هدى:

- كانت إيه الخطوة دي؟ حاجة خاصة بالشبكة والفرش؟

ريهام:

- لا كان اتفاق على مبدأ، ولكن مجدي من أولها زرع الشك في قلب بابا، وانتي عارفة عمك من ناحية الكلام والالتزام، مِوَسْوِس.

هدى:

- لكن كانت إيه المشكلة اللي خلت الموضوع يوصل للنهاية دي؟

ريهام:

- المشكلة يا هدى إن مجدي خلف وعده مع بابا، أنه ينقل شغله إسكندرية وحياته كلها هناك عندنا، وبعدها بابا تسامح معاه لما أنا ضغطت عليه وماما وأميمة كمان ساعدوني، لكن بعد كده بدأ مجدي يتردد في كل شيء وحتى في اللقاء الأول نفسه كان متردد إنه ينزل إسكندرية يشوفني لأول مرة.. تخيلي؟

هدى:

- أتخيل جدًا، بس أنا عندي تحفظ مش جايز مجدي ظروفه كانت صعبة؟

ريهام:

- صعبة ازاي يعني؟ ثم ابتسمت فجأة وهي تقول يخرب بيت شيطانك فكرتيني بمجدي الله يسامحه بقى، كانت كل كلمة يقوم معلق عليها بالجملة دي "ازاي يعني".

هدى:

- باقول لك إيه هاجيب كام تفاحة نتسلى عليهم، شكل الكلام لسه فيه كتير أوي.

ريهام:

- كتير أوي لكن متعب أوي، ومش عايزة أقلب على نفسي المواجع.

هدى تبتسم في مكر:

- يا بت بلاش مُحن وكهن حريم، آدينا بندردش، أيوووه عليكي يا بنت عمي.

ريهام تضحك رغم حزنها الذي يشع من ثنايًا ضحكاتها المنكسرة:

- لا بنت النيل عالفيس اللي سابت البحر وراحت للنيل، وكان ممكن تلاقي نفسها مكملة حياتها كلها على أرض البدرشين، ولا العياط، ثم تنظر ريهام إلى الأرض وتكمل في نبرة يائسة: ياللا الحمد لله على كل حال، ثم تسأل هدى فجأة: المهم انتي عاملة مع خطيبك؟

هدى في مرح:

- كله تمام.. ثم تواصل: أنا باقول لك إيه ماتهربيش، كملي، إنتي قدام الميكروفون، واعتبريني بثينه كامل في... وفجأة هدى تلوح بيديها في حركة مسرحية "اعترافات ليلية تا تا تا طا.. ثم تضحك بقوة وتقبل صديقتها ريهام قبل أن تقول: والنعمة واحشاني.

واصلت ريهام حديثها:

- وِجَه مجدي يخطبني، وقبلها بأيام زارني في إسكندرية، وفاكرة إنه عزمني ساعتها على بيتزا بالبسطرمة، في مطعم قريب من المنشية، وكان بيقول عليها "بضزريما بالبتنجان" من باب التريقة، يعني المهم أنه كان جاي إسكندرية عشان يقول لي خلي الشبكة والخطوبة تبقي فاتحة ونمشيها بدبلتين، وأنا يا هدى حسيت إنه خايف ومتردد يجيب شبكه كاملة وبعدين يخسرها، لكن اللي حصل منه بعد كده كان شيء بشع مش قادرة أتصور أنه يعمل كل ده، رغم أنه كان بيحبني جدًا.

هدى:

- بشع ازاي يعني؟

ثم ضحكت بصوت عال وتلاقت أياديهما في الهواء ورغم ابتسامتها المنكسرة، أكملت ريهام:

من بعد الخطوبة زارنا مجدي في إسكندرية كام مرة، ومنهم مرة كان معاه فيها مدحت جوزي نفسه، اللي كنت باعتبره في الوقت ده أخويا زي ما كان يعتبر أخو مجدي، إلا إني حسيت في يوم الخطوبة نفسه بشعور غريب، وقلت لمجدي عليه مع إني كنت مكسوفة جدًا وأنا باكلم مجدي لما قلت له أنا جوايا إحساس أنه علاقتي بيك إنت ومدحت مش هتبقي نهايتها طبيعية، وكان رد مجدي ساعتها تقصدي إيه نفسك يبقى مكاني يعني؟ ضحك وهو بيقول لي إحنًا لسة فيها، أخلع البدلة السودا والكرافتة الفيروزي اللي انتي مختاراها بنفسك ونعتبره هو العريس، وساعتها قلت لمجدي

ما تحترم نفسك يا وله، يا واد ده أنا باحبك وبموت فيك منٍ قبل ما أشوفك، ثم تابعت حديثي وأنًا أراقب من بعيد نظرات مدحت ليّ، وعينيه اللي بتشع ألم وحزن رغم إبتسامته اللي مالية ملامحه، وقتها قلت لمجدي إنت مجنون أنا باحبك إنت، وباهزر معاك، وف اليوم ده لاحظت في عيون مدحت نظرات كانت صعبة جدًا عليَّ، ويمكن مجدي لاحظها، كانت نظرات مدحت رغم ابتسامته وفرحته كلها حزن وعينيه بتبكي من جوة، وهو بيحاول يكون طبيعي، كأنه كان بيندم أنه ساب حلمه يضيع من بين إيديه بسهولة، بس ماقدرش يجرح صاحبه.

ثم توقفت عن الحديث فجأة عندما قطعت هدى الحوار:

- طيب وإيه ذنب مجدي في إنه يتولد جوه مدحت شعور بإنه بتيمناكي لنفسه؟ بعد ما انتي قلتي أنه رفضك لأنه ماعندوش عمل مستقر في بداية علاقتكم إنتوا التلاتة مع بعض.

- ذنبه أنه إدي الفرصه لمدحت يعرف كل خباياه وظروفه الاجتماعية والمادية، حتى مشاعره ناحيتي كانت في الأول متأرجحة وفيها تردد، وكان مدحت بيستشف ده من خلال كلام مجدي عن الحيرة والصعوبات وبعد المسافة بين عين شمس وإسكندرية، لغاية ما سكن دمي وسكنت دمه، وحسيت إن مجدي من جواه قلبه سجد في محراب حبي، وكان قلبه كده بيخليه يتحرك ويتصرف كأنه بيعبدني، ماكانش يقدر يسيبني أزعل لحظة ومايحاولش يصالحني، كان بيخترع في أي لحظة سبب يضحكني أو يخليني سعيدة، حتى لو سمعني موسيقي لعمار الشريعي، ولا ياسر عبدالرحمن ولا خالد جودة، لأنه كان مغرم فن وكان بيعشق بليغ حمدي ونجيب محفوظ.. ثم نظرت ريهام إلى وجه هدى في صمت وهي تبتسم بلا حديث وتمص شفتيها ثم تهز رأسها ندمًا على الماضي:

هدى:

- أيوة كده هو ده يا واد إنت يا إسكندراني يا مسيطر.

- سيطرة إيه بس يا بنتي؟ باقول لك كنت باضعف قدام مجدي لدرجة أنه لما كان بيلمسني كنت باحس وأنا في حضنه بأمان مالوش حدود ودفا رهيب، ومع أول بوسة منه حسيت إني كنت هافقد الوعي، ولما إيديه لمست جسمي حسيت كأني أرض عطشانة من سنين، المية بتغمرها لأول مرة وبتديها معنى مختلف بيعبر عن الحياة بإحساس جديد وطعم جديد، تخيلي يا هدى- ودي حاجة أول مرة أقولها قدام مخلوق في الدنيا- مجدي بعد أول بوسة على الشاطئ حاول يشيلني، وفعلا كررها واحنا عندنا في العمارة، نزلنا من الأسانسير وماكنتش عارفة هو قاصد إيه، لكن فجأة يا بنتي رزعني بوسة تاريخية، يخرب بيت كده، وفجأة شالني فعلا ومشي بيا وهو شايلني كام

متر كده، كنت حاسة إنها بروفة ليلة الدخلة، حضن وبوسة وبعدها شالني، ومش هاقول لك الباقي بقى لأني خايفة عليكي، ده كلام ماتعرفوش غير ست جربت وداقت طعم حضن الرجالة، كنت بين إيديه ساعتها ولا الفرخة الدايخة.. ثم ألقت ريهام برأسها على الوسادة وهي تقول في صوت هامس ونشوة عارمة: يخرب بيت سنينك يا هدى فكرتيني يا بت بلحظة مافيش ست في الوجود تنساها، لما تلاقي إيد غريبة لأول مرة في عمرك بعد حرمان سنين بلتمس حتة حساسه في جسمك، ثم تأوهت قائلة في صوت هامس وهي تغمض عينيها وتضغط بأسنانها على شفتها السفلى: يا لهوي يا أمه.. ثم احتضنت ريهام الوسادة وأغمضت عينيها قبل أن تضم الوسادة بين فخذيها

هدى:

- يخرب بيت سنينك يا بت دوختيني، أنا حاسة إنها طالبة معايا سيجارة حشيش دلوقتي إنتي ناسيه إني ماجربتش الجواز؟ بالراحة عليَّ شوية كفاية حنان ودلع.

ريهام، بعد أن أفاقت من لذة الذكريات حين تذكرت مدحت فجأة، وبصوت خشن:

- دلع إيه بلا نيلة قطيعة تقطع الجواز عاللي عايزينه، خدنا إيه غير وجع القلب؟

هدى:

- طيب وبعدين كملي، ده إنتي شوقتيني أشوف مجدي ده على فكرة.

ريهام:

- يا ستي آهو راح لحاله الله يسهل له بقى، لأنه قبل ما يسيبني حطمني.

هدى:

- ليه؟ هو عمل إيه علشان تقولي كده؟ ظلمك يعني ولا إيه؟

- ظلمني وظلم نفسه كتير يا هدى، كان جاي على نفسه كتير أوي بس بعد فوات الأوان

لأنه لما شغلي اتنقل البحيرة بعد وفاة خالي عادل اللي كتب باسمي شقة تمليك هناك وقلت أروح أعيش فيها لأني كنت باخدمه أيام مرضه الأخيرة بعد ما طلق مراته، وكان عايش يا عيني لوحده في البحيرة، بابا عرض عليه واحنا هنا عندكم إنه ينقل شغله هناك، وبعدها وافق مجدي، ورجع خاف من الغربة تقريبًا يعني، وقال أنا مش هاقدر أنقل لأن الحكومة رافضة، وبعدها كان فيه ناس بالواسطة بتمشي أمورها وإنتي عارفة.. لكنه أصر على كلامه وأنا قلت له لأني كنت باحبه أسيب شغلي علشانك قال حرام هاحطم مستقبلك، قلت له طيب انقل شغلي الجيزة يا مجدي، الحكومة قالت صعب ولأني باحبه قلت له أسافر لك كل أسبوعين مره لحد الجيزة رايحة جاية قال حرام عليَّ أبهدلك، طيب تسافر إنت رايح جاي قال لا برضه أنا اللي هتبهدل كده، وطبعًا ساعتها بابا اتربي في قلبه الرعب، وصمم ينسفه، مع أنه راح لبابا البيت واتفق معاه ينقل شغله النوبارية، لكن بابا كان خلاص قفل باب قلبه من ناحية مجدي، وقرر يدمر أي أمل، لأن مدحت في الوقت كان بدأ يقرب من بابا، ويلمح له بإنه عايز يتجوزني، وأنا ماكنتش أعرف إلا بعد كده بفترة طويلة، ومن ساعتها عمك سمير بدأ يفكر ازاي يجبر مجدي على أنه يبعد عني، ومن غير ما أنا اعرف، علشان يحافظ على إحساسي، وساعتها بقى كان مين اللي في الصورة وقريب من كل ده تخيلي انتي مين يا هدى؟

هدى:

- مش محتاجه ذكاء يعني أكيد مدحت لأنه أقرب صاحب لمجدي.

ريهام:

- معاكي حق يا هدى، المشكلة أن بدأت مشاعرى ناحية مجدي تضعف، في الوقت اللي بدأ فيه مدحت يمثل بالنسبة ليَّ طوق النجاة الحقيقي، رغم إني أتوسلت لمجدي أكتر من مره يفضل في القاهرة حتى لو غير مكان شغله، لكنه رفض، وبعد ما نقل شغله الجيزة وفي القرية الصغيرة بتاعتهم عمل المستحيل، لكن بابا كان خلاص قرر إن مدحت يكون البديل، لأنه شايف أنه ملتزم بوعوده، ويقدر يسعدني ويعوضني عن غياب مجدي اللي حاربت الدنيا كلها علشان أكمل معاه، لكن هو خذلني وخاف على كرامته علشان مايبقاش قدام نفسه ساب حماه يتحكم فيه، مع إني قلت له أروح معاك الهند بس تثبت بالفعل مش بالكلام إنك باقي عليَّ، لكن إنتي عارفة دماغ عمك لما فكر ينسف مجدي فكر شوية وبعدها بكام يوم بس عمل نقطتين ضمن بيهم أنه مجدي مش هيكمل وقدر مجدي برضه يتجاوزهم، لكن أنا اللي كنت بدأت أخاف منه، لذلك كان الكل منتظر إني أرفض مجدي علشان يقولوا لمدحت ألف أهلا وسهلا بالفارس النبيل اللي كنت واثقة أنه هيقدر يحقق اللي غيره ماقدرش يعمله، وساعة ما قررت أتخلى عن مجدي ماكانش فارق معايا حتى إنه يموت، كان مدحت أصبح بديل لمجدي في حياتي، وقبلها قلبي.. وفي تلك اللحظة نهضت ريهام وهي تنظر إلى هدى قائلة: أنا مسافرة دلوقتي حالا.

هدى:

- يخرب بيت جنانك، شكلك أتعديتي من حد فيهم، ماكنتيش كده يا بنتي إيه القرارات المفاجئة دي؟! هو انتي فاكره نفسك ساكنه في السيده زينب؟ ده سفر اسكندرية إعقلي.

ريهام:

- والله لأسافر حالا، نفسي أكون دلوقتي على طريق صحراوي وعلى سفر، حاسة إني هاكون مرتاحة أكتر، معلش يا هدهد تتعوض بقى، والأيام جاية كتير، وابقي ردي الزياره دي لأني نفسي أعيش معاكي يومين في بيت عمك سمير، وحشوني ولاد أميمة

منذر وياسين، إنتي عارفه بقى الخالة تعتبر أم لو ربنا حرمها نعمة الأطفال، ولا إيه بقى؟

رق قلب هدى لحال ريهام فلم تبدِ اعتراضًا على سفرها، وغادرت معها الشقة لتودعها،

وفي دقائق معدودة كانت ريهام متوجهة إلى الإسكندرية وعقلها لا يكف عن التفكير في ما حدث من تسلسل للأحداث في حياتها بصورة درامية، تمزج بين الرومانسية والكوميديا والتراجيديا، في مرحلة زمنية واحدة لا تتخطي عدة أعوام، كان أعمقها تعقيدًا وغموضًا عام الزواج الأول، قبل أن يجمعها القدر بمدحت حمدي تحت سقف واحد، لم تنس تلك الليلة التي شربت فيها خمرًا وسجائر محشوة بالحشيش ورقصت في تلك الليلة على إحدى أغنيات محمود الليثي كما كانت تتمنى، فزادت تلك الليلة الحمراء احمرارًا كأنها إحدى راقصات الملاهي الليلية المحترفات، ولم تكن تلك الليلة هي الأولى في حياتها مع مدحت، فقد جمعتها به عدة لقاءات ما عادت تذكر منها سوى ثلاثة لقاءات، ولم تكن في ذلك الوقت قد انفصلت عن خطيبها السابق مجدي!

الفصل الثامن

أصابت ريهام نوبة بكاء هستيرية، بعد أن صارحها مدحت بأنها تسكن دمه منذ تلك اللحظة التي جمعته بها الأقدار يوم 31 يناير، حين زار مدحت بيتها لأول مرة مع فؤاد محمد راضي، عندما تقدم مجدي لخطبتها، وتكررت اللقاءات مرة تلو الأخرى وامتدت المكالمات الهاتفية بينهما لساعات طوال، ولم يكن مجدي يعلم عن ذلك شيئًا، حتى خلا مدحت إليها عند الغروب واقتنص قبلة باردة على خدها بعد أن أسلمت قلبها لعاصفة مشاعره الجارفة التي هدمت صداقة العمر، وجاء اللقاء الثالث ليدمر كل شيء عندما خارت قوى ريهام النفسية وعجزت عن مقاومة مشاعر مدحت الذي امتدت يداه إلى جسدها، فكانت أصابعه المرتعشة تبحث عن اللذة عندما أصبحا وحيدين بلا ثالث، كما تبحث الكلاب الضالة بين العظام عن بقايا لحم يسد الرمق إلى أن تحين الفرصة ويلتهم الذئب فريسته الجائعة في فراش وثير دافئ، وهنا فقط لم يعد لمجدي وجود في قلبها أو عقلها، عندما باعت قلبها بلا ثمن لمن لا يريد منها سوى جسد يطفئ لهيب شهوته وبعض الجنيهات القليلة كلما مر بضائقة مالية.

كانت تعلم ذلك، لكنها أبت أن يقف قطار حياتها منتظرًا ذلك الحاضر الغائب حتى يعود من مواجهته الشرسة مع القدر الذي لم يمنحه الفرصه ليحقق انتصارًا ذا قيمة قبل خمسة وثلاثين عامًا مضت، ولم يحقق فيها

شيئًا، هكذًا كان مجدي في عينيها الذابلتين من فرط الإعياء ومشقة السفر قبل أن يتوقف شريط الذكريات الممتد عندما استسلمت للنوم بعد أن غادرت السيارة القاهرة قاطعة الطريق الصحراوي إلى الإسكندرية في ظهيرة ذلك اليوم، ولم تستيقظ ريهام إلا عندما هدأت السياره لتتوقف في منتصف الطريق عندما أراد السائق أن يلتقط أنفاسه، رنين الهاتف يعيد ريهام إلى الطريق والسفر بعد نوم طويل وبعد ثوان معدودة:

- آلو ماما أنا في الريست، وباقي خمس دقايق ونتحرك، وأول ما أوصل هارن لك.

- ماشي يا ريهام خدي بالك من نفسك يا ماما، لا إله إلا الله.

تثاءبت ريهام قبل أن ترد:

- محمدًا رسول الله سلامي لبابًا وأميمة والعيال يا ماما، وحضرى لي شوية ملوخية من ايديكي الحلوين يا ست الكل، البت هدى مقضياها ديلفيرى ربنا يكون في عون اللي هيتجوزها، ده أنا كنت حاسة معاها إننا عايشين في معسكر ولا مدينة جامعية.. سلام بقى.

وصلت ريهام إلى بيت أبيها قبيل صلاة المغرب، استلقت المصعد الكهربائي إلى الطابق الثامن حيث تقيم الأسرة، وبعد دقائق معدودة الأم نبيلة عند الباب:

- مرحب يا ريرى حمدًا لله على السلامة.

وتبادلت مع ابنتها عناقًا حارًا، دخلت الفتاه مجهدة لا تكاد تسمع إلا طنين أذنيها من فرط الإجهاد والأرق:

- ماما أي لقمة عالسريع على ما آخد شاور دافي.

الأم مندهشة:

- شاور دافي؟ الله يرحم أمك اللي كانت بتستحمي في طشت.

تتعالى الضحكات وبعد دقائق تجلس ريهام بمفردها على مائدة الطعام، الأب تأخر بعد الصلاة للمشاركة في عقد قران ابنة صديق، أمجد- الأخ الوحيد- في عمله الذي يبيت فيه كثيرًا حتى الصباح، أو يكمل السهرة مع الأصدقاء، والأخت الصغرى في بيتها، وريهام لا تهب شيئًا قط اهتمامها في تلك اللحظة، تخلد إلى النوم بعد سفر طويل وتمضي ساعات ويعود الأب.

الأب:

- يا ريت بعد إذنك شوية شَيّ في الخمسينة كده.. ويسترخي على كرسي يتوسط صالون الشقة كالمعتاد، ويتأهب لمتابعة مباراة لكرة القدم، وفجأة: نبيلة.. ريهام وصلت؟

- أيوة يا سمير، ودخلت جوة، وفي نبرة حزينة وصوت خفيض: مسكينة البنت دي حظها قليل يا قلب أمها، لا اتهنت في خطوبة ولا في جواز.

سمير:

- كل شيء مكتوب يا نبيلة.

نبرة يائسة تفوح من ثنايا الكلمات قبل أن يتابع الرجل صامتًا ضربة جزاء دون أن ينفعل أو يعلق كسابق عهده أمام مباريات كرة القدم، نهض سمير لينام، وعند الفجر استيقظ مع الابتهالات كعادته، في خطوات هادئة وعلى أطراف أصابعه فتح بهدوء حجرة الفتاة التي تغط في سبات عميق، وهي لا تكاد تدرى بما يحدث حولها حتى بعد أن أزيل عنها الغطاء أعاد أبيها الغطاء إلى ما دون رأسها، ثم قبل جبينها في هدوء وقلبه ينفطر ألمًا، ثم نظر

إليها في حسرة وانصرف، ولكنه ما إن دخل حجرته حتى وقف عند الشرفة ينظر إلى الشارع وهو غارق في أحزانه، منصتًا إلى ابتهالات لم يسمع منها إلا جملة نصر الدين طوبار "دعوتك يا مفرج كل كرب ولست ترد مكروبًا دعاك" سمير في نبره صامته لا تخلو من حزن دفين قبل أن يهز رأسه أسفًا:

- سامحيني يا بنتي خايف عليكي تتبهدلي من بعدي يا ترى مين يرعاكي بعد ما أموت؟

أعمامك كل واحد في بلد شكل، وأخوالك كل واحد فيهم الدنيا واخداه حتى من نفسه، وأخوكي ربنا يشفيه، وأول واحد خبط على بابك وكان قلبك متعلق بيه كدب عليَّ وقال هعمل وأسوي ولا عمل ولا اتهبب على عينه، وإتحملت منه ومن ظروفه اللي بهدلته وبهدلتنا معاه اللي مايتحملوش حد، وصبرت كتير عشان خاطرك، رغم مراوغته ليَّ وللكل إلا أنه كان ضعيفق ظروفه، ولعب بيا بدل المرة مليون مرة، ورغم كده اتحملت علشان مش مستحمل قدام نفسي أكون سبب في كسرة قلبك وإني أشيل ذنب إني أبقى حتى قدام نفسي حرقت فرحتك، لكن هو نفسه كان أضعف من أنه يثبت أنه قد المسئولية، وساب نفسه يتحول لكوره في رجل أهله والدنيا والظروف، كان لازم أحميكي منه سامحيني يا بنتي معلش، ربنا يتولاكي من بعدي.. ثم تمضي لحظات حزينة وثقيلة قبل أن ينظر سمير إلى زوجته: نبيلة أنا رايح أصلي الفجر.. ثم غادر الشقه وأوصد الباب خلفه قبل أن ينظر إلى الباب ويضم شفتيه وهو يهز رأسه في أسى ويتمتم استغفر الله العظيم، استرها معايا يارب نفسي أموت وأنا متطمن عالبنت والواد.

وما هي إلا لحظات حتى استقل المصعد مغادرًا المنزل بعد أن نزع نظارته عن عينيه المغرورقتين بالدموع لينظف عدساتها ويعيدها إلى مكانها، ومضي

صامتًا إلى مسجد قريب وبعدها عاد إلى الشقة ليذهب إلى عمله بعد أن أوصى زوجته:

- إبقي خلي ريهام تطمنّي عليها لما تصحى، وأوعي تصحيها النهارده أجازه خليها براحتها.

ومضى الرجل إلى عمله ولا شيء يشغله في دنياه إلا مصير ابنته المطلقة وابنه المريض الذي يواجه ظروفا صحية، ذلك الفتي الذي لم تتخل عنه خطيبته حتى في أحلك الظروف عندما تدهورت حالته الصحية إلى حد كانت معه حياته مهدده بالخطر أثناء فترة خطوبة أخته الكبرى من مجدي، الذي لم تكن تربطه به علاقة وثيقة، ورغم كل ما حدث كان مجدي يكن له احترامًا وتقديرًا دون سبب واضح أو مبرر منطقي.

انطلق مجدي بسيارته مغادرًا بيت خالد منطلقًا إلى ميدان الرماية بالجيزة في طريقه إلى حلوان لزيارة بعض الأقارب هناك، وقد أسلم أذنيه وكيانه إلى نغمات أغنية للمطرب لؤي، وكان يردد مع صوت المطرب بعض كلماتها: "هنعيش حبنا دنيا لوحدنا أنا وإنت كل الناس هنعيش عمرنا ولا مليون سنه هتغير الإحساس"، وعندما انطلقت السياره متجاوزه سرعتها 130كيلو متر في الساعة، عاد مجدي بعقله إلى ذكرى واحد مايو قبل أعوام طويلة وعندما دقت الساعة الثالثة عصرًا عندما كان في بيت ريهام يوم خطبته لها، وقبلها بساعات كان قد وجه الدعوة للكثيرين من الأصدقاء والأقارب فلم يلب دعوته سوى فؤاد ابن الخالة وصديق العمر آنذاك مدحت وزوج الأخت الصغرى غانم عبد الفضيل، والذي كان الرجل الوحيد من أقاربه بالقرية الذي حرص على أن يرافق مجدي في ذلك اليوم الغريب بكل تفاصيله، حيث سبقه بثلاثة أيام لقاء خاص مع ريهام كان دافعه حرص مجدي أن

يكون الأمر تدريجيًا وأن تكون خطوبة في إطار محدود وبأقل التكاليف، إلا أن ريهام التي كانت تتوق إلى الفرحة والسعادة أصرت على أن تقيم حفل زفاف لم يكدر فرحته سوى ظروف وفاة ابن أخت مجدي في تلك الفترة، ورغم ذلك تحدت ريهام قسوة الظروف ودفع مجدي لها ما طلبته لشراء مصوغات ذهبية لتكون الشبكة التي اختارتها بنفسها، لتسعد قلب الأم الجريح والذي لم يذق الفرحة منذ عدة أعوام بعد زواج أميمة، وبدأت مراسم حفل الزفاف وسط فرحة عارمة من الجميع إلا أن مدحت كان يوارى خلف ابتساماته الحائرة حديثا آخر نطقت به عيناه دون أن تتحرك الشفاه، وقد لاحظ مجدي ذلك لكنه لم يعلق بشيء فقد التمس العذر لصاحبه الذي طال انتظاره لقطار السعادة، فظن مجدي بتلك النظرات أن مدحت ربما يواسي نفسه ويطمئنها بأن الفرج قريب وأنه آت لا محالة، لكنه لم يكن يتصور أو يخطر له ببال أن مدحت تأكل قلبه الحسرة بعدما أبعدته الأقدار عن ريهام التي كانت قد بدأت صورتها ترتسم في عقله وحديثها يترك في نفسه أثرًا لا يقوى مدحت على البوح به لأحد، ما جعله يحارب الدنيا من أجل أن تبقى ريهام أمام عينيه حتى ولو كانت بين أحضان مجدي الذي احتضنها فعلا يوم خطبته لها، ولم يعلق أحد على هذا الأمر فلم يلاحظ الأمر إلا قليل من الناس، لكن مدحت لم يترك هذه الفرصه لمجدي دون تعليق حين قال:

- إيه يا مجدي يخرب بيتك الحضن ده في الخطوبة، أمال في الدخلة هتعمل إيه؟ هتاكلها؟

مجدي في براءة وهو يقول:

- يا عم مدحت أنا كنت بانفذ التعليمات بالحرف، وإنت كنت معانا وشفت الزحمة كانت عاملة ازاي، كنا ولو اللي في صلاة الجمعه في الحرم النبوي.

ضحك مدحت ساخرًا:

- اللهم أوعدنًا يا عم الحج.

- إوعدنا بإيه بالظبط يا مدحت؟

يضحك مدحت في مرارة:

- بخطوبة ولا حج، أي حاجة يا عم في السنين السودا اللي مش ناوية تتعدل معانا دي.

مجدي:

- بإذن الله تتعدل يا مدحت وربنا يكتب لك كل خير حبيبي.

وبعد ثوان يتوقف مجدي بسيارته لدفع رسوم المرور، قبل أن يجري مكالمة هاتفية:

- آلو آلو أيوه يا فريد إنت فين... وبتر عبارته فجأة يا فريد يا... "الهاتف الذي طلبته غير متاح"، ويتأفف مجدي غيظًا قبل أن يطلق زفيرًا حارقًا: هو ده وقته؟ استغفر الله العظيم ياللا مش مهم، كده كده هعدي عليك يا عم فريد.

ويمضي مجدي ساعات وساعات حتى تذكر مكالمة فريد فحاول الاتصال به مرة أخرى، وإذ بفريد يغالب النعاس قائلا وهو يتثاءب:

- أيوه يا عم الامور إنت وصلت؟

- أيوه يا فريد أنا في البلد وعايزك ضرورى.

ويثاءب فريد:

- خير فيه إيه بس؟ مش هترحمني شوية ولا لسه تاني هندخل معاك في متاهات ومطبات؟

لكن مجدي يطمئنه:

- يا أخي عايز أقابلك وأشوفك، لأن مش هينفع كلام التليفون، لو سمحت بلاش هزار إخلص بقى أنا مش فاضي.

ثم ينهي المكالمة متوجها إلى بيت أخته الصغرى فريدة، ولم تمض سوى ساعة واحدة حتى التقى فريد ومجدي ليفاجئ مجدي صديقه:

- تصور يا فريد أنا سمعت إن مدحت حمدي حاول يقتل ريهام لأنه شك في تصرفاتها معاه؟

- إيه؟ ازاي يا ابني الكلام ده، الله يخرب بيتك إنت بتجيب الأخبار دي منين يا عم؟

- والله ده اللي سمعته وأنا جاي يا فريد وبعدين بلدك مش بتخبي أسرار عن غريب، فما بالك بقى لو كان إبنها؟ أكيد مش هتبخل عليه يعني؟ ثم يستطرد قائلا: وبعدين يا عم الخبر وصل الأهرام في صفحة الحوادث، إنت مش بتقرا جرايد ولا إيه؟

- لا بطلت من زمان يا مجدي، وإنت عارف ليه، أنا قدامك آهو الدنيا مدربكه فوق نافوخي، شغل وعيال وغير المكان الجديد والأجازات اللي بياخدوها الموظفين عندي، بتبقي على دماغي أنا علشان كده مافيش وقت أقرا أي حاجة، كفايه القرآن وفي رمضان كمان، أنا رايح البيت وراجع لك، ولو اتأخرت عليك منتظرك نشرب شاي مع بعض، ياللا سلام، ساعة ويدق جرس الباب: أيوة أنا خلاص جاهز يا مجدي اتفضل.

مجدي:

- عرفت إزاي إني أنا وصلت؟

- مش محتاجة فتاكة يا عم الأمور، أنا قلت لك منتظرك، وإنت قلت جاي.

ويتلفت مجدي يمينًا ويسارًا ثم يفاجئ فريد:

- همّا ولادك فين؟

- يا عم إدخل انت هتمثل ؟ ده بيتك مش محتاج تتعزم يعني.

وبعد لحظات يلقي مجدي بنفسه على أقرب كرسي متأوها، وهو يتمتم:

- أستغفر الله العظيم، هي دي آخرتها؟

- مجدي أرجوك سيبك من كل حاجة، وخلينا في سبب زيارتك دي.

- أبدًا والله متخانق مع مراتي، قلت أنزل أشوفك وأعدي على إخواتي، وأحضر فرح هنا يخص جماعه قرايبي، لكن بصراحه بعد اللي حصل ده أنا شايف أنه كان متوقع.

فريد وهو يحمل كوبين من العصير:

- هو إيه ده اللي كان متوقع؟

مجدي:

- إن تكون نهايتهم كده، لكن يا ترى الواد فين دلوقتي؟

فريد:

- يعني هيكون في دريم بارك مثلا يا فالح؟ أكيد بقي من رعايا وزارة الداخلية؟ الله يسامحه بقى.

يشعل مجدي سيجاره قبل أن يستطرد:

- عرفت إن الواد ده هيفكر في البت دي من يوم ما عملنًا رز بلبن في شقة العزوبية في عين شمس، قبل ما أرجع الجيزه تاني، زمان وأنًا لسه خاطبها.

- ياسلام وإنت كنت متوقع ده وساكت؟ يبقي كده بقى إنت مجنون أو...

قاطعه مجدي فجأة:

- يا ابني في اليوم ده اتخانقت معاها ومعاه، لما قال لها ازيك يا ريرى، إحنا بنعمل أكله وطالبين فيها دعم فني، وآخر المكالمة قال لها يا عسولة قدامي، ولما دمي اتحرق طلعت وأنا مروح سكني، ومسحت بيها البلاط، وقالت لي أنا آسفة، ولا يمكن أفرق بينك وبين صاحب عمرك، واستحالة اكلمه تاني، أتفاجئ بعد كده أنه فيه كلام تليفون وصداقة فيس بوك ومقابلات والدنيا ضايعة من ورايا.

فريد:

- وطبعًا كان بيقول لها كلام حب من وراك، وهي كمان زي فيلم اللمبي بتنتظره يطلع لها على الشجرة، ولا تفتكر كان بيعمل إيه يا فنان؟

- لا طبعًا أكيد ماكنش فيه شجر ولا غيره، شكلها كده كانت مقابلات في قلعة قايتباي ولا حاجة كده يعني، وطبعًا إنت فاهم الباقي يا عم فريد.

- قصدك كلام ناعم؟

- أمال يعني هيشرح حالات تقديم الخبرعلى المبتدأ وجوبًا وجوازًا؟ ولا هي بنت الدايخه هتكلمه في إيه مثلا نظرية إقليدس يعني؟ ثم نهض مجدي وهو يمسك الكرسي قبل أن يسأل فريد: أعمل إيه يا أخي؟

- إعمل صينية كنافة ها ها.

- ضحك فريد وهو يهز رأسه في دهشة، لكن مجدي قاطعه في صرامة:

- فريد لو هتقضيها كده همشي والله، فجأة ينطلق مغادرًا: أنا مش طايق نفسي.

فريد:

- ليه يا حبيبي؟ لسه بتحب ريهام؟ ولا صعبان عليك مدحت؟ ده انت تبقي غبي جدًا لو شغلت تفكيرك بحد فيهم لحظة واحدة، مش كفاية منكد على مراتك وعيالك حرام عليك.

مجدي:

والله مش عارف أقول لك إيه يا فريد، عشرتي مع الواد ده، ولا إحساسي ناحية خطيبتي، اللي نسفتني من حياتها كأني كنت إزازة بيبسي اتشربت وخلصت، ولا كأني...

قاطعه فريد:

همًا فعلا الاتنين زبالة مش إنت، هدِّي نفسك واستريح شوية.

مجدي:

- زبالة مين يا عم؟ دي حتى الزبالة ناس بتستفيد منها، دول مش أكتر من رمم، مافيش بيستفيد منها إلا الدود، وبعدين بيكون مصيره التراب، دول بقى من تراب على تراب إلى تراب...

فريد يقاطعه مرحًا كعادته دائمًا:

- طيب بس بقى عشان حلقي اتسد من العفرة اللي انت عاملها في الأأوضه دي، ثم يتصافحان في الهواء قبل أن يواصل فريد: يخرب بيت أمك بأثر رجعي، يا عم سيب الأمور لمن لا ينام ثم يستطرد: إنت اقضي ليلتك وروح الفرح وارجع صالح مراتك.

وغادر مجدي شقة فريد متجها إلى قاعة الزفاف حيث زواج إحدى فتيات عائلة الأم، وعندما وصل إلى القاعة مكث قليلا خارج القاعة ثم تهيأ للدخول وقرر في تلك اللحظة أن يهب نفسه المجهدة قدرًا من المرح والبهجة، فأخذ يتمايل برأسه مع الموسيقى، وبعد لحظات طلب من أحد مسئولي القاعة وهو يهمس إليه جانبًا، شيئًا غريبًا، عندما قال:

- باقول لك إيه يا باشا، اسم الكريم إيه؟

رد الفتى:

- أنا هشام، حضرتك تؤمر بإيه؟

- إسمع يا إتش، أنا عايز حاجه كدة هادية، وفي الحنيِّن، عايزك تدلع الموجودين كلهم ولو حتى حاجة من شغل ياسين التهامي.

وما هي إلا دقائق حتى كان مجدي مع العروسين وأبي العروس بين ضيوف حفل الزفاف، وهو يرقص بعصًا ذات يد مغطاة بنقوش ذهبية، وبعد أن أفرغ مجدي كثيرًا مما تحمله نفسه، عاد إلى بيته ونام حتى الصباح، وعندما التقى فريد صباح اليوم التالي لم يكن كعادته مضطربًا، لكنه بدا أكثر هدوءًا واستقرارًا عن ذي قبل، وعندما خلا إلى فريد صارحه بما يدور في نفسه، وما كان يشغله حتى أثناء نومه:

- تعرف يا فريد، كان نفسي عقاب ربنا للأفندي اللي اسمه مدحت ده يكون أعنف من كده.

فريد في غضب:

- ياساتر يارب بعد كل ده لسه مش صافي من جوه يا مجدي؟ ليه يا عم كل ده؟ تكونش لسه بتحب ريهام؟

مجدي في دهشة:

- يا ابني حب إيه؟ انت ناسي اني متجوز ومعايا أولاد؟

فريد في مكر يستفز مجدي بقوله:

- وهل ده يمنع؟

يتغاضى مجدي عن سؤال فريد الماكر قبل أن يستطرد:

- أنا بس افتكرت 23 سنة من عمرى يا فريد، وماتنساش إني كنت باحب ريهام اللي الأخ مدحت أنكر عليَّ مشاعرى ناحيتها، بعد ما اترميت في حضنه وبكيت بعد أول مشكلة، ولما فكر يقرب منها كان بيدافع عن نفسه، لما الناس هاجمته بإن مجدي لا حبها ولا حس بيها طول عمر..، ثم أخرج مجدي هاتفه المحمول وعرض عليه رسالة نصيه من ريهام كانت تقول فيها: "على فكره أنا اتأكدت إمبارح من إنك بتحبني بحنون".

جحظت عينا فريد وهو يقرأ كلمات الرسالة التي مضت عليها سنوات طوال قبل أن يصرخ فجأة:

- للدرجة دي يا مجدي؟ كنت بتحب البنت دي؟

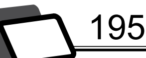
مجدي:

- أمال يعني أغمي عليَّ لما خالها كلمني آخر مرة وقال إنها رافضاك من باب الترفيه مثلا؟ لقيت نفسي فاضي فقلت أسلي نفسي شوية بإني أدخل في غيبوبه؟

فريد وهو لا يكاد يصدق نفسه:

- معقول ده ؟ دًا الموضوع كان كبير بقى.

مجدي:



- يا ابني كبير إيه؟ ده أنا وصلت ساعتها لنوبة صرع وتشنج وما فيش حد كان جنبي إلا واحد بس، تصور مين يا فريد؟

فريد:

- ولا يكاد يصدق ما يسمع:

- إوع تقولي مدحت!

وهنا يصرخ مجدي:

- قسمًا بالله العظيم تلاتة بالله العظيم هو وكمان هو اللي سندني لما لقاني عالأرض ودخلني السرير، واستمر معايا لما استرديت هدوئي، وفي الوقت ده كان على علاقة بيها وكان بيقابلها من ورايا، وكل ده ما كان له أي تأثير عليه، وعايزني أنسى كل ده وتقول لي سيبك من الماضي؟ عمر اللي فات ما يتنسى يا فريد.. ثم يستطرد: يا ابني ده خلى البنت تكرهني بعد ما كانت بتعاملني كأني جوزها، إنت متصور ده؟

فريد في دعابة وهو يمازح مجدي:

- يعني إيه زي جوزها؟ مخلف منها عيلين مثلا؟

مجدي وهو يبتسم في دهشة:

- يخرب بيت فقرك يا عم ارحمني.

- أرحمك إيه، دول عالم ولاد ستين كلب، وإنت اللي مش راحم نفسك، قال فريد والغضب يتطاير من قسمات وجهه فجأة: ولما هي كانت عارفة إنها مش عايزاك غدرت بيك ليه؟ وعلقتك بيها وبعدين سابتك بنت الدايخة هي التانية اللي اسمها ريهام دي؟

- يا عم فريد البنت لمحت أنه فيه حد بيحاول يقرب منها، وقالت إنه

زميل حد من صديقاتها ومن البحيرة، طبعًا ماتقدرش تقول مدحت، لأن في الوقت ده كانت ممكن تخسرنا إحنا الاتنين لأني ماكنتش هسكت وهي برضه بنت.

- بنت؟ دي بنت ستين كلب ودايرة على حل شعرها، وفعلا زي ما قال حديث النبي.

مجدي:

- عليه الصلاة والسلام.. ثم يسأل فريد متلهفًا: قال إيه الحديث؟

فريد:

- أنا مش متأكد من صحة الحديث ده، بس الحديث بيقول والقلب يزني وزناه الهوى،

يعني تمني الحرام يا عم الحج فهمت؟

- مجدي في انكسار:

- طبعًا فهمت يا فريد، بس هي كانت بتتمنى الحلال.

- ولما دخل على أهلها اتفق معاهم يرفضوك؟ بتتمنى الحلال تقوم تعمل علاقة معاه موبايل وفيس وتقابله من وراك كام شهر؟ على رأي دكتور كان بيدينا محاضرات أيام جامعة المنصورة، ده كلام معفص يعني كلام زبالة، ما تصحي يا عم مجدي بالله عليك شد البطانية اللي على مخك من سنين دي بقى.

ضاق صدر مجدي وطلب من فريد أن ينصرف بحجة الاطمئنان على أمر يخص أخته قبل أن يسافر لأنه قد ينشغل طويلا في المرحلة القادمة، وبعدها بلحظات اتصل مجدي بخالد وقال له:

- ناوي تعمل إيه يا خالد في موضوع مدحت؟

خالد يفاجأ بأن مجدي لا يزال مهتمًا بأمره بعد كل ما حدث، لكنه قال له:

- بعد اللي حصل منه معاك أنا ماليش دعوة بحياته للأبد، لأن حتى ماقدرش يحترم عشرتنًا كلنا معاه الأستاذ المحترم وبعدين اللي باع الجزء أفسد الكل يا مجدي، وبعدين إنت شاغلك ايه في موضوع محاولة قتله لمراته، هي مش خانتك معاه أكيد خانته مع حد تاني، واحده بواحدة يعني، ودي إنسانه متربية على كده، أبوها ديوث قبل بعلاقة محرمة بين بنته وبين صاحب خطيبها، وبعد كده يجوزها لجوزها اللي خان صاحبه عشانها، عايزها تطلع إيه يعني؟ دكتوره في جامعة الأزهر مثلا؟ أكيد أخلاقها شمال زي الأسرة كلها، ثم انحرف خالد بالحوار إلى اتجاه آخر عندما قال فجأة: مجدي تعال نتغدا عندي النهارده، إيه رأيك يا ريس؟ أظن مافيش عندك مانع.

لكن مجدي يعتذر ويطلب تأجيل اللقاء لأسباب لم يعلنها، وقرر أن يبقى وحيدًا لساعات

وبعدها بدقائق ينطلق مجدي إلى بيته، ولكنه يجرى اتصالا هاتفيًا بزوجته فلا ترد ثم تلغي المكالمة ويزداد قلقه من تفاقم الوضع، وتطور علاقته بزوجته إلى ما هو أسوأ لكنه يتجاهل لأنه كان قد وصل إلى حد أنه لم يعد يبالي بشيء قط، أصبح مستسلمًا لأمواج الحياة تأخذه حيث شاءت، ومتى شاءت، ثم يجرى مجدي اتصالا هاتفيا آخر ليطمئن على ما يدور بالجيزة، حيث زوجته وأولاده، رغم وجوده بالقرية التي لا ينوي أن يغادرها الآن لأسباب لا يعلمها سواه، لأنه كان برغم السنوات لا يزال حتى تلك اللحظة يدور في فلك الذكريات المرة للخطوبة المشئومة التي كانت وصمة عار كلل

جبينه حتى الآن، وربما طيلة عمره، ما يزال عالقًا بعقله ووجدانه ذلك اليوم الأخير قبل الزفاف، عيناه تحتضن عينا ريهام ويداه تغوصان في يديها قبل أن يقول في استسلام:

- أنا عندي اقتراح بلاش شبكة مباشرة يا ريهام علشان نمشي أمورنا كلها بالتدريج، لا ينسى إنها ربتت على كتفه في حنان أم يخفي وراءه ملمسٍ الأفعي الناعم قبل أن تهمس إليه: مجدي حبيبي عايزة أفرح بيك ويبقي ليّ أولاد منك، وبعدين أنا خلاص شفت شبكتي وعجبتني، ومش عايزة أضيع فرحة أمي بشبكة بنتها لأن فرحتها عندي بعمري كله، هي مش أمي في منزلة مامتك برضه؟ ولا أنا غلطانة؟ ثم نظرت إليه في ضراعة وهي تحيط وجهه بكفيها قبل أن تهمس في رقة بالغة وحنان مخدر: مجدي حبيبي إديني فرصه أفرح بيك ومعاك، وادّي قلبك فرصة يدوق طعم الفرحة.

فلم يجد الفتى الذي قست عليه أيامه مفرًا من القبول التام للأمر، قبل أن تكشف له الأيام أن موافقته المبدئية على الانصياع لرغبتها كانت البداية الحقيقية لأن تمحو تلك الفتاة أي إرادة لمن كانت لا ترى فيه إلا مرحلة عابرة من حياتها، تشعر فيها بأنوثتها وتجرب من خلال تلك المرحلة المنقضية حتمًا برغبتها طعم الحب، ولغة الجسد واللحظات المسروقة والقبلات المختلسة، إلى أن تقرر لمن تكون جسدًا وقلبًا وروحًا.

عاد مجدي إلى بيته وهو يلعن الأيام التي تركته لعاهرة فيما مضى، ليترك لها قلبه فسحقت معه كرامته وعقله، ثم ألقت بها جميعًا عند أول سلة من سلال الذكريات ليتحول في حياتها إلى صفحة ذابت أحرفها فلم تعد قراءتها أمرًا يسيرًا.

رنين هاتف ريهام يخطفها من أمام صفحات مجلة تقلب صفحاتها بلا اكتراث، بعد أن شاهدت أحد أفلام نجيب محفوظ تأثرًا بما اعتادت عليه أيام خطوبتها الأولى لمجدي، لكنها تخطف الهاتف وترد وقد تهلل وجهها بشرًا:

- يا بنت الإيه، فينك يا واطية كل الأيام اللي فاتت دي؟ وماتقدريش تكلميني ولا بتقضيها كلمني شكرًا وكده، فكي الكيس يا أبخل خلق الله وسمعينًا صوتك.

- أنا آسفة يا ريهام معلش كان عندي شوية مشاكل مع خطيبي واتحلت الحمد لله.

- طيب افتكرى بنت عمك اللي اتمرمطت في مشوار للقاهرة علشان تشوفك ازيك يا هدى.

- عاملة إيه؟ ريهام على فكرة عندي ليكي مفاجأة.

وتسأل ريهام في لهفة:

- خير؟ فرحيني.

- أنا عندكم هنا في إسكندرية ولسة واصلة حالا.

تصرخ ريهام كالأطفال:

- الله يا أختي يا عسل إنتي فين بالظبط يا بت؟

- أنًا عند محل المشويات اللي كنتي بتعزميني فيه كل ما أنزل إسكندرية.

- طيب أنا جاية أقابلك ونرجع سوا علشان هاشترى حاجة كده.

وترد هدى:

- خلاص في انتظارك.

وما هي إلا دقائق حتى عادت ريهام بصحبة ابنة عمها إلى الشقه لتقضيا معًا ليلة ممتعة من الغناء والرقص وأحاديث النساء قبل أن تناما ملء جفونهما، وفي الصباح تنفرد هدى بريهام بعد أن تناولتا الإفطار، وبقيتا معًا في حجرة ريهام تحتسيان كوبين من الشاي، وبقيت ريهام صامتة لفترة قبل أن تمزق هدى ستائر الصمت مازحة:

- ها يا بت يا ريرى مافيش جديد ولا إيه ؟

ريهام في ابتسامة باهته وبنبرة ساخرة:

- ولا جديد ولا مستعمل.

ضحكت هدى في مرح قبل أن تقول:

- مافيش أخبار عن المخفي طليقك؟

ريهام:

- يا أوختشي.. وهي تميل برأسها إلى الأمام: قطيعة تاخد الرجالة وسيرتهم، يا بت انتي مافيش وراكي غير الرجالة؟ ياكش يولعوا.. كلهم وترفع رأسها للسماء قبل أن تقول يا رب اسمع مني واخفيهم كلهم وريحني من غدرهم وشرهم.

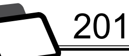
هدى:

- يا بت غدر إيه وشر إيه؟ هو فيه الزمن الرجالة دي الواحدة مننا من غير راجل ماتساويش كارت دعوة فرح فات ميعاده.

ريهام:

- أديكي هتتنيلي وتجربي الرجالة وابقي قابليني بعد أول شهرين جواز.

- بذمتك مش واحشك مجدي ولا حنيتي لأيامه؟



ريهام:

- يوووووه أنا قايمة وسايبة المكان ولو زودتيها هاسيب لك البيت كله.

- لا خلاص بس ماتزعليش، إنما بجد انتي برضه ماكملتيش حكايتك مع مجدي واحنا عندي في دار السلام، لسة أنا ماعرفش ليه برضه انفصلتوا، انتي ومجدي، وإيه دخل مدحت بالموضوع؟

تنظر ريهام إلى هدى في حيرة، وهي ترد:

- ما دمتي مصممة هاقول لك على كل حاجة، بس ياريت تسامحيني لأنك أختي وهتقدرى موقفي.

وصمتت هدى وهي تسند كتفها الأيسر عند طرف سرير ريهام قبل أن تقول ريهام:

- لما عمك طلب مجدي ينقل شغله البحيره مجدي وافق وكان هنا عندنا في الشقة وقف في البلكونة اللي برة واتصل بمسعد ابن خالته، وبمدحت جوزي اللي كان لسة في وقتها بيعتبره زي أخوه وبعدها قال لهم أنا هنا، وعم سمير اتفق معايا إني هانقل شغلي أول سنتين وبعدين لو سافرت أمريكا أنا وريهام مافيش حد له قرار في حياتي غيرى أنا ومراتي بس.. ولكن بعدها يا هدى وفي قمة احتياجي لمجدي لقيته مرة يهزر معاًا فيقول أنا سيد قرارى اعمل اللي يرضيني وبس، وبعدها يقول ربنا يسعدك معايا أو مع غيرى، وبعدها يقول لي ممكن اتجوز عليكي وأطبق الشرع، ويبقي العدد أربعة، ساعتها خفت يكون ناوي يبعد عني ومش لاقي عذر، وبلغت بابا بشكوكي في صدق مشاعر مجدي ناحيتي، وبعدها بابا قرر ينهي علاقتي بمجدي تمامًا، وفي الوقت ده كان مدحت بدأ يقرب مني فكنت بين نارين مش عارفة أعمل إيه؟ ولقيتني فجأة باتسرق من جوايا وبانجذب لمدحت غصب

عني لدرجة اني قابلته مرة هنا، وكنت أنا وهو لوحدنا.. ثم صمتت ريهام بعد أن تنهدت، فمصمصت هدى شفتيها وضغطت بأسنانها على شفتها السفلي قبل أن ترد:

- الله يكون في عونك يا ريهام موقفك كان شائك فعلا.

الفصل التاسع

واصلت ريهام حديثها:

- وبعد فترة بابا عمل لمجدي اختبار، وقال له مافيش حل قدامنا دلوقتي يا مجدي غير إنك تكتب كتابك وتدخل على ريهام، وتقضي الفترة ما بين نقل شغلك واستقرارك هنا سفريات كل أسبوعين مرة.

هدى:

- وطبعًا مجدي رفض صح يا ريهام؟ ثم واصلت حديثها أنا لو مكانه هارفض.

وردت ريهام:

- طبعًا رفض وساعتها بابا لما أنا أصريت أسبح ضد التيار وأواجه حتى نفسي قلت له يا بابا أنا محتارة، فأدرك عمك سمير إني خلاص تعبت وبعدها بيوم، اتصل بفؤاد اللي زارنا مع مجدي أول مرة لأنه ابن خالته، وفي مكان أخوه الكبير، وقال له يا أستاذ فؤاد بلغ مجدي أنه كل شيء نصيب، وساعتها مدحت كان بدأ يلمح لي أنا أنه عايز يتجوزني وإنه مش قادر يبعد عني، ويهمه أكون قدام عينيه حتى لو مع مجدي، المهم أنه مش قادر يعيش بعيد عني، وطلب مني أدي لمجدي فرصة أخيرة، وده حصل فعلا لأنه مجدي عمل تصرف مفاجئ.

- غلطانة يا ريهام، كنتي صارحتي مجدي بتحول مشاعرك من ناحيته،

وإن في حد دخل حياتك حتى لو اضطريتي تصارحيه بعلاقتك بمدحت.

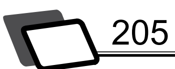
- يا سلام؟ بالبساطة دي؟ أنا كنت عارفة إن مجدي لو عرف بعلاقتي مع مدحت من وراه كان ممكن يقتل مدحت أو يقتلني أنا، وينتحر، باقول لك يا بنتي لما شعر بإني باضيع من إيديه كان هيتجنن، ده أنا سمعت من مدحت نفسه أنه ضرب دماغه في الحيط لما بابا بلغ فؤاد أنه الخطوبة انتهت، وساعتها قدم طلب للوزير نفسه تاني يوم، ينقل شغله هنا، ولقيت حد من الوزارة بيكلمني أنا شخصيًا والدنيا اتقلبت فجأة، وساعتها بابا رجع تاني يوافق إني أرجع لمجدي ومافيش بعدها أسبوع ولقيت مجدي هنا في البيت عندنا وبيثبت بكل صدق وبالفعل أنه بيحبني بجنون، لدرجة أنه وصل هنا وكانت رجله فيها جرح ولسه بينزف دم ،وخلع مجدي شرابه علشان يوريني ازاي التزامه مع بابا خلاه يضغط على نفسه علشاني، واتفقنا على كل صغيرة وكبير، وإن فرحي على مجدي كان هيبقي أول أبريل وكتب كتابي عليه أول يناير.

- يانهار مش فايت، وبعد كل ده ومفيش نصيب يا ريهام؟

تنهدت ريهام قبل أن تقول في مرارة:

- الشيطان غلبني يا هدى، وضليت، أأني كنت تعبت من كل اللي حصل لا قادرة أصدق مجدي في تصرفاته الغريبة ولا كلامه المتناقض، ولا قادرة أبعد عن مدحت اللي كنت فجأة باشعر بانجذاب مغناطيسي ناحيته، كل ما الدنيا تبعدني عن مجدي بتصرفاته اللي مش مفهوم منها إلا أنه مش قادر يكمل بسبب ماديات أو ضغوط الله أعلم بيها، ولا قادر يبعد علشان بيحبني أو يمكن بقيت كل حياته لكن حقيقي عشت مرحله صعبة

- هدى إنتي فين؟



- أيوه يا مرات عمي أنا هنا مع ريهام.

- إيه ده؟ إزيك.. كده يا ندله توصلي وحتى مافيش تليفون؟ إنتي كنتي فين من الصبح؟ ثم تضحك الأم بقوة وهي تتحاشي النظر إلى ابنتها قبل أن تقول: خفت عليكي تتوهي.. ثم تنظر إلى ريهام قبل أن تقول في نبرة حزن مكتوم: زي ما غيرك تاه من زمان يا بنتي.. وعينيها تجمع بين حزن وإشفاق ثم تحول الأم مسار الحوار: تحبوا الغدا إيه؟ أنا هعمل محشي، مين هيساعدني؟

- خمسه كده يا طنط وهاجيب لك اللي تنقرص دي.. ثم تتعالي ضحكاتها: وندخل ندغدغ الدنيا جوه إوعي تقلقي نفسك يا طنط، أنا بقيت خبره في المحشي.. ثم تعاود الجلوس وبعد أن غادرت الأم أكملت هدى حديثها: ها يا ريهام؟ ولما كله ماشي تمام إيه اللي حصل؟

- ها؟ تمام؟.. ابتسمت ريهام في مرارة ثم قالت: تمام إيه بس ما هو مجدي بيه هدها على دماغي ودماغ نفسه تاني.

وهنا تصرخ هدى:

- يا خبر، إزاي؟

- البيه راح ياخد رأي الناس لما بابا اتفق معاه، إنت توصل هنا بعد الجمعة ونكتب المغرب، يقوم يروح قايل لبابا باقول لك يا عمي ما هو الميعاد ده مش مناسب، يا نكتب قبلها بيوم يا بعدها بأسبوع ،علشان ظروف السفر والناس اللي هتحضر معايا، وفجأة بابا قال في نفسه بس، هي كده انتهت، وراح مبلغني أنه احتمال كتب الكتاب مش هيكمل.

هدى:

ياساتر يارب إيه الفال الوحش ده الشر بره وبعيد، أعوذ بالله وده كلام؟

معقولة دي؟

- آه والله يا هدى بابا بعدها كلمني مع إني حذرت مجدي بدل المرة عشرة بلاش تكلم بابا في مواعيد، دلوقتي كده بتخسرني للأبد، لكن مارضيش مجدي يسمع كلامي، وفوجئت بيه راح كلم بابا، وكان بابا يا هدى إيه؟ منتظر منه غلطة.

- وطبعًا عمي أكيد اتجنن ودمه اتحرق؟

وترد ريهام بابتسامه باهتة:

- عمك مجنون خلقة هو انتي يعني مش عارفاه؟!

هدى:

- طبعًا عارفاه ده أبو اللسعان.

ثم تضحك بقوه قبل أن تنهرها ريهام:

- بت احترمي نفسك ده عمك، عيب.

فتضربها هدى على فخذها:

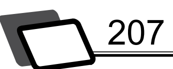
- باهزر يوه؟ ثم تكمل هدى: المهم عمي عمل إيه ساعتها؟ أنا كده عرفت هو انتي ليه اتطلقتي على فكرة.

وترد ريهام:

- ليه يا فيلسوفة؟

لكن هدى تنظر إلى الأرض وهي تمعن التفكير ويرتفع حاجباها قبل أن تقول:

- كملي طيب وبعدين هاقول لك.



واصلت ريهام:

راح بابا يا بنتي متصل بالحاج اللي حضر مع مجدي وقال له أنا عايز وصل أمانه اضمن بيه إن مجدي يدخل على بنتي في الميعاد اللي أنا أحدده، وطبعًا من ساعتها يابنتي الدنيا قامت.

وأكيد مالقيتش مكان تقعد فيه تاني.. ردت هدى وهي تضحك بقوة قبل أن تتصافح أيديهما في الهواء:

ريهام:

- يخرب بيت شيطانك ده انتي تنسى الواحد اسم أمه.

هدي:

- لا وعلي ايه ده كله يعني؟ أمك اسمها نبيلة تحبي أثبت لك؟ يا حاجة نبيلة إحنا جينا خلاص آهو حضرى خلطة المحشي هيا بنا ندق العمل.

وفجأة ريهام تصرخ في دهشة وهي تبتسم بعد عبوس طويل: يا بنت الإيه عرفتي الكلمه إزاي بتاعة ندق العمل دي؟ دي كلمه ليبية أصلا.

هدى:

- ما أنا عارفة إنها ليبية كان فيه حد زميل عمك الله يرحمه كان عنده ميكروباص اللي بتسموه هنا مشروع وكان بيروح ليبيا كتير وكنت باسمع منه كلام من النوع ده كتير لكن ليه بتسالي ريهام؟

- لا أبدًا ثم تنظر إلى الأرض قبل أن تستطرد قائلة:

- أصل المتنيل على عينه طليقي مدحت كان بيكررها كتير كان حتى بيقولها لما يكون بيني وبينه لحظة دلع في أول ما اتجوزنا قبل ما ... وبترت عبارتها فجأة قبل أن تقول في مرح: كده الغدا هيبقي سحور، عمك يطين

عيشتنا أكتر ما هي متطينة.

وانطلقت الفتاتان إلى المطبخ لإعداد الطعام، ثم قضيا معًا ساعة أمام الكمبيوتر القابع في صالون الشقة منذ أن تم شرائؤه قبل عدة أعوام ليغير حياة هذه الأسرة ويهب قلب ابنتها فرحة وانكسارًا ثم فرحة ثم عارًا، وهكذا الأيام، وبعد ساعات دخلت ريهام وهدى إلى غرفة ريهام، وظل امجد خارج المنزل كعادته مع الأصدقاء، وبدأت هدى تضرب على وتر الماضي الأليم في حياة ريهام وعادت إليها بقولها:

- برضه ماعرفتش منك يا ريهام مجدي عمل إيه لما بابا طلب منه وصل الأمانه أبو 100 ألف جنيه ده، وإيه كان سبب إصرار عمي على كلامه؟

- عمك كان فقد الثقة في مجدي تمامًا خصوصًا لما عرف أنه مجدي قال في لحظة غضب ملعون أبوه لابو بنته في يوم ماطلعتش له شمس المهم الرجل عرف الكلام ده بعدين.. وطبعًا مجدي كالعادة عرف كل الناس وانقسمت البلد كلها ما بين معارض ومؤيد وقليل جدًا كانوا مؤيدين لأنهم شعروا بخوف بابا من تصرفات مجدي، والمعارضين خايفين عليه حسب ما سمعت من مدحت بعد كده لأنه طبعًا كان ساعتها على اتصال معايا يوميًا تقريبًا ومش قادر يبوح لمجدي بمشاعره ناحيتي إلا أنه كان صابر لما يعرف المسرحية دي هتخلص إمتى، وبعد مجدي ما كلم بابا واتفق معاه أنه هيجيب وصل الأمانه وينزل هنا علشان يقابله ويكتب الكتاب، ساعتها بس أنا كنت طايرة من الفرحة واعتبرت اللي حصل بيني وبين مدحت نزوة.

- حصل بينك وبين مدحت؟

صرخت هدى في دهشة وهنا حجظت عينا ريهام وهي تضع يدها على فم هدى خشية أن يعلو صوتها، ثم قالت هامسة:

- يا بنتي أنا مش قلت لك قابلت مدحت من ورا مجدي وكان فيه بوسة طايرة كده؟

وهنا تتسع عينا هدى دهشة وهي تقول:

- بوسة طايرة؟ لا بقى كده المسائل ارتبكت عالآخر.

وهنا تجاهلت ريهام تعليق هدى الأخير، وهي تقول:

- المهم أنه بعد مجدي ما قبل ينفذ كلام بابا، تراجع في آخر لحظة وكنت أنا رايحة أتصور لكتب كتابي وفجأة اتصل بابا وقال لي مجدي رفض، وكدة مافيش نصيب، وفي اللحظة دي يا هدى الدنيا دارت بيا ولقيت نفسي باطلب مدحت وطلبت منه يقابلني وتاني يوم كان معايا واترميت في حضنه وبكيت من قلبي.. هدى صامتة وهي لا تصدق ما تسمع ويصور لها عقلها كابوسًا يجثم على صدرها قبل أن تواصل ريهام: ساعتها بس لقيت نفسي باقول لمدحت نفسي أروح معاك مكان بعيد جدًا يا...

هدى في ذهول:

- يا إيه؟ ردي يا ريهام يخرب بيت سنينك السودا.

- قلت له يا حبيبي يا هدى، بس ماكنتش بتكلم من قلبي ولا عقلي مدرك في الوقت ده أنا باعمل إيه فجأة، لقيتني مع مدحت في مكان هادي وحصل اللي عمرى ما تخيلته. - اللي هو إيه يا ريهام وقعتي قلبي يا بت حصل إيه؟

فجأة ريهام تنظر حولها وهي تغلق الباب قبل أن تقول:

- اللي مافيش حد يعرفه غير ماما.

- يا بنتي ردي إيه اللي حصل أنا كده قلبي قرب يقف.

- إن مدحت... ثم صمتت ريهام قليلا وهي تنظر إلى الأرض خجلا قبل أن تقول

إن مدحت نام معايا، لأننا كنا في لحظة ضعف ومافيش حد فينا حاسس هو بيعمل إيه.

- الله يخرب بيتك يا ريهام، معقول ده أنا حاسة باحلم يا خرابي مش ممكن.

صرخت هدى وهي تقفز مذعورة من مكانها قبل أن تشد ريهام هدى من يدها وهي تقول:

- إعقلي يخرب بيتك هتفضحينا.. المهم أن المصيبة حصلت وضعفت قدام انكسارى بعد اللي حصل من مجدي ،والشيطان ساعتها مسح عقلي لغاية ما فات أسبوع والتاني ولقيت نفسي ضايعة وتايهة ومش عارفة أعمل إيه، ولا أروح فين، ولا أكلم مين، وفجأة...

وهنا قالت هدى:

- دلوقتي بس اقدر أقول لك إنتي اتطلقتي ليه؟

ردت ريهام فجأة وهي في قمة الدهشة:

- ليه؟ واشمعنى دلوقتي بتجاوبي على السؤال ده يا هدى؟

- اتطلقتي لأنك وهمتي نفسك بإنك حبيتي مجدي، وصدقتي مدحت لما وهمك أنه أولى بيكي من غيره، كنتي يا دوب بتدورى على أي جواز والسلام، معلش سامحيني ريهام رغم أنه ده خطأ لكنك برضه في كل الأحوال معذورة من حقك تفرحي زي أي بنت في سنك، لكن الطريق والعياذ بالله كان كله شوك تحت رجليكي.

لكن ريهام تجاهلت نظرة هدى لها في تلك اللحظة ثم أكملت حديثها كأنما تهرب من حصار فرضته عليها نظرات هدى المفعمة بالإشفاق عليها، قبل أن تواصل ريهام:

- المهم يا ستي قلت لنفسي هابعت رسالة لمجدي على صفحتي على الفيس بوك وكان معنى الرسالة اني خلاص باودع الماضي وهبدأ حياتي من جديد، وفجأة لقيت مجدي تاني يوم عندي هنا في البيت ومن تلقاء نفسه راح قابل منصور إبراهيم جوز أميمة أختي، وطلب منه يقابل بابا، ولما دخل هنا البيت عمل المستحيل مع بابا وساعتها قلت حتى لو اتجوزت مجدي مشاعره ناحيتي كفيلة أنه يغفر لي الغلطة دي، ويسامحني فيها، إلا أن بابا رفض يقبل أي عذر من مجدي بعد اللي حصل منه، لكن تصورى أنه مجدي صعب عليَّ.

هدى تتنهد وهي ترد في مرارة:

- والله انتي اللي صعبانة عليَّ كل ده ولسة عايشة؟ وبعدين يخرب بيتك كملي وديتي نفسك في داهية، وهو كان مجدي لسه عنده نية يكمل بعد كل ده؟ ده موقف أنا عمرى ما شفته يا بنتي، ولا في المسلسلات التركي ولا الأفلام الهندي، إزاي واحد بيواجه كل ده بيقاوم؟ وازاي انتي بعد اللي قلتي عليه ده ولسه ساكتة؟ أنا مش عارفة إيه التجربة الغريبة دي؟ في الآخر برضه مافيش نصيب مع مجدي يااااااه لكن يا ترى مجدي لما نزل من البيت وعارف أنه أبوكي رافضه خلاص كده انتهت حكايته؟

- لا طبعًا لأنه لما كان لسة عندنا هنا منصور جوز أختي حاول باستماتة يقنع بابا أنه يقبل عذر مجدي ودخل جوة عندي في الأوضه هنا وكلمني، وأنا كنت ساكتة ومافيش في عيني غير دموع الحسرة والحيرة والرعب، إن

مجدي يضيع ومدحت يتخلي عني بعد اللي حصل بيني وبينه ودي كانت تبقى كارثة العمر كله، لكن ساعتها كنت ساكتة تمامًا حتى بعد ما نزل مجدي وأنا شايفاه ناقص يبكي وبيضرب كف على كف لكن بابا قال له لو انتحرت أو كهربت نفسك مش هتتجوز ريهام، ونزل مجدي وكل ذرة في ملامحه بتبكي من الندم والآسى، وعينيه بتستعطف وتتوسل اني أكون معاه وأتمسك بيه لغاية ما ربنا يخلق لنا في قضائه رحمة، لكن خلاص ساعتها كل شيء كان انتهى تمامًا ثم تنهدت في عمق وهي تطلق زفيرًا حارقًا قبل أن تتأوه: ياااااه منك لله يا هدى قلبتي عليَّ المواجع وخليتيني افتكر اللي أنا...

ثم بترت عبارتها بعد أن قالت هدى:

- اللي انتي إيه يا ريهام؟

فنظرت إلى هدى في أسي قبل أن ترد في انكسار:

- اللي أنا مستحيل أنساه يا هدى، أول حب وأول جواز، وأول طلاق، كله ورا بعضه.

هدى:

- مش عارفة أقول إيه بس يا ريهام.

- ماتقوليش حاجة لأن حتى بعد آخر مرة شفت فيها مجدي حاولت معاه إني أقنعه يطمن بابا وينقل شغله هنا، برضه كنت باحاول معاه وكأني باعمل صدمات كهربية لقلب مريض مات بالفعل، تمسكًا بالرمق الأخير لكن...

هدى في انكسار:

- لكن إيه يا ريهام؟ هوكان لسه فيه أمل بعد كل ده؟

ريهام بعيون دامعة:

- أنا كان لسه جوايا شمعة واحده قلت يمكن تنور ظلام الكون اللي عشت فيه أربعة وتلاتين سنة يا هدى، وقلت أدي لمجدي فرصة أخيرة، ولو كانت للمرة المليون، لكنه خاف من كلامي واعتبر 'ن دي فرصه للسيطرة عليه والتحكم في حياته، وده خلاني خفت يا هدى.. ثم صمتت قليلا وقالت في غضب وهي تصرخ بصوت عال: خفت من نواياه ورفضته بالتلاتة، رفضته ومش عايزة اسمع اسمه تاني.

ثم انخرطت في بكاء مرير وكانت قد دخلت إلى حجرتها فظلت معها هدى حتى هدأت قليلا ونامت، وقضت هدى ليلتها حتى الصباح حائرة مرتبكة تضرب الأرض بقدميها حينًا، وتنظر إلى ريهام أحيانًا، ثم تدور حول نفسها مرة تلو المرة، وفجأة زفير حارق، وتخرج إلى شرفة الشقة وهي تنظر إلى السماء قلبها يصرخ دون صوت:

- يا الله ما هذا الذي تحياه تلك البائسة؟ كيف يحتمل بشر كل هذا؟ قلبها لم يعرف الحب وعندما صادفه لم يهنأ به، وجسدها مدنس بالخطيئة، وعندما استقامت لها الحياة حرمتها شكوك زوج خائن من أن تشعر حتى بالاستقرار ولو لعدة أعوام، مسكينة يا ريهام قالت عينا هدى تلك الجملة وهي تنظر إلى الفتاة التي لم تستغرق في النوم إلا عندما غلبها النعاس من فرط الإجهاد بعد أن انفجرت في نفسها أوجاع لم يئدها الزمن، وربما لا يستطيع أن يفعل، وبعد صراع داخلي مرير تقرر هدى أن تنام، ألقت هدى بجسدها إلى جوار ريهام على سرير واحد كما كان يفعل مجدي ومدحت من قبل حتى فرقتهما الأيام عندما مزق الأول بكارة قلبها، وسحق الآخر عذريتها، ليتركها بلا رجل، بلا أمل في أسرة وحياة، وبلا حياة.

في صباح اليوم التالي نهضت ريهام وهي في حالة أفضل مما كانت عليه

بالأمس، ثم قررت أن تغادر الشقة إلى الشارع متخذة ذريعة لا تصدق عندما نادت أمها:

- ماما أنا نازلة الشارع أجيب شوية حاجات للغدا يا ماما، وعايزة اشترى مستيكة.

وهنا فقط اتسعت عينا هدى دهشة وهي تكرر:

- مستيكة؟

- أية يا بنتي يعني لبان.. تحاملت لتبتسم وهي تواصل الحديث: هو أنا باتكلم هندي؟

وعندما غادرت الشقة تسللت هدى إلى حجرة عمها وقد جفت ملامحها قبل أن تتلاقى عيناها مع وجه زوجة العم، والتي قرأت في وجه الفتاه بلا كلمات تساؤلات حائرة لا حدود لها، فقالت لها لتقطع عليها طريقًا مجهدًا تلتمس فيه هدى حقيقة الأمر:

- أكيد كلمتك عن سبب موافقتنا على جوازها من مدحت صح؟

- طبعًا يا مرات عمي لأنك عارفة إني يمكن أقرب لها من أميمة.

دارت الدنيا بالأم نبيلة التي لم تعد ترى أو تسمع شيئًا، وشعرت بظلمة مفاجئة تغشى الدنيا من حولها كأنما تقترب من فقدان الوعي قبل أن تشير إلى هدى:

- إسنديني يا بنتي عايزة أكون في مكان فيه هوا، واعملي شوية عصير بسرعة يسترك ستار العيوب وغفار الذنوب.

اتسعت عينا هدى دهشة وهي تهرول إلى المرآة بعد أن كانت تقف عند باب الحجرة قبل أن تقول في هلع:

- حاضر يا طنط مالك؟ ألف سلامه عليكي.

وما هي إلا دقائق حتى أحضرت هدى عصيرًا مثلجًا وارتشفت المرأة قليلًا منه قبل أن تنظر إلى الفتاه بعينين ملأهما الامتنان والشكر، وهي تهمس إليها:

- يسترك ستار الولايا وافرح بيكي قريب يارب، ويطمني عليكي يا بنتي.

اغرورقت عينا هدى بالدموع فلم تتمالك نفسها لكنها أخرجت منديلا لتجفف دموعها:

- معقول كل ده يحصل؟ وانتم فين من ده كله؟ لغاية ما توصل الدنيا بريهام لكل ده؟ عملتي إيه يا مرات عمي وإيه كان رد فعل عمي لما كل ده حصل وهي مخطوبة؟

نبيلة في انكسار وعيناها تنظران إلى الأرض:

- واحنا كنا هنعرف منين يا بنتي؟ كله مقدر ومكتوب؟ كانت ليلة سودا ويوم إسود لما دخل بيتنا غراب البين اللي اسمه مجدي ده، هو والملعون التاني مدحت، الأولاني عشمنا وخلي بينا لما ساب الدنيا تلطش فيه، وأهله يبهدلوه، وهو يبهدلنا معاه، والتاني خان صاحبه بعد عشرين سنة واحنا قلنا ما صدقنا نستر البنت وخلاص، وآهو ضل راجل أحسن من مافيش.. ثم تنهدت في مرارة وهي تنظر إلى الفتاة الواقفة عند رأسها نظرة المستغيث وعيناها مغرورقة بالدموع: ضل راجل يا بنتي ولا ضل حيطة، ولكن اللي خان صاحبه واحنا ادينا له الأمان ماقدرش هو نفسه يديها هي الأمان، بعد ما خان العيش والملح وغدر بصاحبه وبينا وساعتها يا بنتي..

هدى والدموع تنساب من عينيها:

- ساعتها إيه بس يا مرات عمي؟

تمالكت الأم نفسها قبل أن تستطرد:

- ساعتها وفي لحظة ما البنت صارحتني باللي حصل بينها وبين مدحت، انفجرت فيها ولأول مره في عمرى من سنين طويلة أوي أضرب ريهام على وشها، وهي في سنها ده، لكن أنا ماقدرتش أملك نفسي وضربتها يا بنتي بجنون وهي بتصرخ وبتقول يا ماما أنا كنت في لحظة ضياع تخيلي بنت في لحظة بتستناها كل بنت العمر كله لحظة كتب كتابها على حد بتحبه بجنون تلاقي فجأة في لحظات كل شيء ضاع والحلم مات والفرحة اتبخرت؟ تعمل إيه في كسرة القلب دي لما تلاقي الدنيا اسودت في وشها وبقت أضيق من خرم الإبره صرخت ريهام يا هدى وهي بتبكي بحرقة بين إيديا وبتقول لي ياماما لقيت نفسي بين إيدين مدحت بعد ما طلبته وجه لي، هنا ماقدرتش أقاوم إني أترمي في حضنه وأبكي وماكنتش حاسة بنفسي ولا باللي أنا باعمله، لقيتني باسلم له نفسي وأنا حاسة إني في كابوس، وهو كان بيحبني من غير ما يشعر وحاسس جوه نفسه أن وجود صاحبه في حياتي حاجز بيني وبينه وفي اللحظة دي الحاجزاتهدم والبركان انفجر يا ماما.. ثم تكرر في مراره شفتي يا بنتي مصيبتنا اللي مافيش حد كان حاسس بيها غيرنا؟ وتمسح الأم دموعها بمنديل قبل أنا تكرر قالت لي يا بنتي وأنا باضربها بجنون، البركان انفجر يا ماما البركان انفجر، وساعتها يا هدى يا بنتي عشت أسبوع وانا مش حاسة بطعم للدنيا لا نوم بانام ولا كلام باتكلم، كنت حاسة إني باغرق ومافيش حد مد لي إيده، ومن ساعتها يا بنتي وانا ماعرفتش من الدنيا غير طعمها المر اللي مش طايقاه!

واعتصر الحزن قلب هدى قبل أن تبتلع حزنها قائلة:

- وعمي كان رد فعله إيه يا مرات عمي في المصيبة دي؟

نهضت الأم من مكانها وهي لا تكاد ترى شيئًا قبل أن تقول في حزن:

- عمك؟ نظرت للفتاة والقهر يسحقها سحقًا قبل أن تعود إلى الماضي: عمك في يومها كان راجع من شغله تعبان نفسيًا لأن فيه حد من أصحابه توفى، وقبل ما اعرف صدمته بالخبر اللي وصله ساعتها إنه يخرج عن شعوره، قلت له فجأة بعد ما دخل أوضته وقفل بابها عليه مالك يا سمير؟ وساعتها لمحت في عينيه حزن مالوش حدود افتكرته عرف، ولما سألته هنتصرف ازاي في المصيبة دي؟ رد عليَّ فجأة وقال مصيبة إيه؟ ما خلاص كل حاجة انتهت، فقلت فجأة وانا أنظر إليه بغضب: يعني إيه انتهت. ثم صرخت فيه وانا مش مدركه إني ممكن أدمره: يعني هتسيب بنتك تضيع؟ وفجأة لقيته اتحول لشخص تاني عمرى ما شفته بعد جواز 36 سنة، وكأنه بقى إنسان جديد نظرته ليَّ كانت كلها رعب وهو بيهزني وبيصرخ فيَّ، مالها بنتي انطقي؟ لقيت نفسي وانا بين إيديه وصوابعه خلاص بتنغرس في لحمي باقول له، بنتك غلطت مع مدحت صاحب مجدي خطيبها، فجأة الراجل وقع من طوله ولقيته بيصرخ يا خبر إسود، وبعدها انفجر فيَّا وهو بيقول غلطت ازاي؟ قلت له، فجأة ضعفت قدامه يا سمير، بعد ما انت كنت السبب في فشل جوازها من مجدي، لما أهنته قدام نفسه وقدام الناس.

هدى:

- معقول يا مرات عمي يعني هو عمي ماكنش يعرف؟

- لا يا بنتي ساعتها ماكنش لسه عرف، الكلام وصل له مني ومن غير ما أقدر الحالة اللي هو فيها لدرجة إني لقيته فجأة بيلطم على وشه وبيقول اتخرب بيتك يا سمير يا شناوي، اتخرب بيتك وحياتك كلها ضاعت على

إيدين بنتك ومراتك.

- طيب وريهام كانت فين في الوقت ده؟ وهل كانت مستعدة تواجه عمي بغلطتها؟

- تواجه بقى ولا تهرب، ساعتها ماكانش في حاجة هتغير من الأمر شيء يا بنتي.

وبعدها يا مرات عمي، كان تصرفه إيه مع مدحت ده؟

- ساعتها يا بنتي عمك عاش في عزلة أكتر من تلات أيام، لغاية ما لقيته فجأة وانا داخله علية بصينية الشاي بيتصل بمدحت، ويطلب منه يقابله وتاني يوم فعلا مدحت زارنا هنا في البيت وأول ما فتحت الباب لقيت وشه في الأرض وماكنش بينطق وماقدرش يقول ولا كلمه غير كلمة واحده مش هانساها طول عمرى، أنا عايز اتجوز ريهام، وف اليوم ده ماعرفش عمك قدر يتمالك نفسه ازاي، رغم إن الواد كان واقف بين إيديه زي اللي سارق وانقبض عليه بالمسروقات، وواقف قدام وكيل النيابة وفي اللحظة دي عمك قال اقعد يا مدحت لإني عايزك، وقبل مدحت ما ينطق بحرف واحد عمك قال له إنت غصب عنك هتتجوز البنت لأنك غرقتنا ولازم تتصرف وإلا والله هتدفع التمن غالي جدًا، مدحت فجأة رد على عمك يا بنتي بكلام مختصر جدًا قبل أنا ما ادخل عليهم، عمي أنا مستعد نكتب الكتاب حالا والدخلة بعد أسبوعين.

هدى:

- إيه ده يا مرات عمي؟ طيب وفين مجدي في وسط الدوامة دي؟

ردت الأم في دهشة:

- يعني هو لو عامل اعتبار لمشاعر صاحبه من البداية كان غلط مع خطيبته؟ ولا كان فكر يقرب منها أصلا؟ الولد لقي نفسه فجأة مافيش قدامه بديل يا سعادتي يا صاحبي، وهو ساعتها اختار سعادته ومستقبله، لأنه ماكنش يقدر يتراجعأ وفي اليوم ده عمك قال له إنت تشوف حل مناسب للمصيبة دي، وكان متعصب عليه جدًا، والولد ساكت تمامًا ومش قادر حتى يرفع عينه في عين عمك، لكنه اتكلم بهدوء وقال له أنا هاقنع مجدي أن ريهام اتقدم لها عريس من منطقة قريبة منهم، وساعتها الظروف خدمت مدحت ومجدي سافر بعثة برة مصر، لكن عمك قال له أنا يا ابني هاحاول بكل قوتي أخليه يفقد الأمل في الموضوع، وكانت فكرة أنه يعيش بقية عمره في اسكندرية، ويكمل معانا هنا على طول دي اتفاق ما بين عمك وبين مدحت، وكمان عمك اتمسك بإنه يقول لمجدي في آخر مقابله بينهم شرطي الوحيد إنك تعيش هنا خمس سنوات متصلة تاخد فيها إجازه أسبوع في كل سنة تزور فيه أهلك، وأنا اللي أحدد لك الأسبوع ده يكون في أي شهر من شهور السنة، حسب راحة بنتي، ولو قبلت ده أنا ماعنديش مانع تتجوزها في أي وقت.

هدي في دهشة:

- يا خبر يا مران عمي ومجدي ساعتها كان رده إيه رضي بالكلام ده؟

الأم وهي تهز رأسها نفيًا وعيناها تنظران إلى الأرض في حسرة:

- مجدي ساعتها انفعل على عمك وخرج عن شعوره وقال له إيه الكلام ده يا عمي ده الكفيل في السعودية بيسمح بأجازة شهر أو اتنين في السنة عند الضرورة، حضرتك عايزني ابقي في بلدي وأسافر لأهلي أسبوع بس؟ بتعليمات منك كمان؟ وكمل كلامه بعد ما وقف فجأة وهو بيصرخ، ده

مستحيل، مين في الدنيا يقبل ده، تبقى مراتي وأهلها هما اللي بيتجوزوني؟ يبقى مش أنا اللي باتجوز بنتهم، وساعتها الولد وقف قدام عمك دقيقة وهو ساكت حسيت أن عينيه بتقول لعمك، آه يا راجل يا ناقص يا ابن الكلب، وفي الوقت ده تدخل الحاج رفعت قريبه وقال له يا مجدي الأمور تتحل بهدوء مش بالانفعال ده، إهدا كده وكل حاجة هيبقى فيها كلام وأخد ورد، وطلب منه يقعد وساعتها مجدي رفض يشرب في بيتنا حتى شوية مية، واقسم بالله ما هيشرب مية على أرض اسكندريه كلها، وخرج غضبان، واتجوزت البنت مدحت بعدها بشهرين وسبع أيام، بالظبط عشان نخرج من الورطة، وعاشت معاه لغاية ما حصلت المصيبة اللي انتي عرفتيها لما جوزها حاول يقتلها واتطلقت البنت، ومن ساعتها يا قلب أمها...

وبترت عبارتها فجأة، وكانت قد أجهشت بالبكاء قبل أن تقول هدى في حسرة، وهي تنظر من نافذة شرفة الشقة:

- مسكينة يا ريهام يا حبيبتي عانت كتير في حياتها الله يكون في عونها ويلعن أبو اللي كان السبب في كل اللي شافته المسكينة دي.

ثم عادت إلى المرأه الجالسة في أخر الحجرة وقد غامت عينيها من أثر البكاء، فاحتضنت هدى الأم محتوية رأسها بين ذراعيها، وهي تقول:

- هوِّني على نفسك، مصير ربنا يعوضها ويبعت لها سعادة تعوضها عن العمر كله، وده ممكن في لمح البصر.

نظرت الأم إلى الفتاة وفي عينيها شعور عميق بالامتنان والشكر لمؤازرة الفتاة لها في مصابها الأليم، وما تواجهه المرأة المكلومة من مصير أسود حاق بابنتها لأمر لا ذنب لها فيه- في نظر أمها- إلا أنها كانت تبحث- في عبث- عن زوج عبر شاشة بيضاء، فعصفت الحياة بقلبها وكيانها كله، وقضت

على مستقبلها، إلا أنها وبلا كلمات قالت في نفسها بنبرات تقطر حزنا: ربنا يعوضها؟ يعوضها ازاي بس؟ وهي عدت سن الأربعين وأصبحت مطلقة، ثم سألت نفسها ساخرة وهي تهز رأسها فيما يوحي باليأس التام: هي كانت لقيت حظها وهي لسة بنت لما الدنيا هتضحك لها وهي مطلقة؟ ثم نهضت فجأة قبل أن تقول وهي لا تكاد تقوى على الحديث: هدى أنا داخلة أنام لأني تعبت.

لكن الفتاه لم تترك زوجة عمها تنصرف قبل أن تجيبها عن سؤال تبادر إلى ذهنها فجأة، فقالت لها:

- يعني معنى كده يا طنط إن حكاية وصل الأمانه دي كانت بعد غلطة ريهام مع مدحت ولا قبلها؟

وهنا فقط تحاملت الأم على نفسها وهي تجتر ذكريات مريرة قبل أن تقول:

- كانت قبلها يا بنتي، لكن عمك ماكانش على باله أن اللي اتفق عليه هو ومدحت هيرفضه مجدي، هو كان متوقع إن مجدي يقبل لأنه كان بيحب ريهام جدًا في الوقت ده، وكانت هي كمان بتحبه وده اللي كان ظاهر في تعاملاته معاها لكنها لما شكت في تمسكه بيها وضعفه قدام ظروفه نقلت الإحساس ده لعمك، وعلى أساس كده الراجل اتصرف غصب عنه، لأنه كان خايف على بنته والشك في سلوكيات مجدي وتردده في قراراته كان بدأ يحاصر تفكير عمك، وبالفعل مجدي رفض موضوع وصل الأمانة.

مضت أيام متواصلة ومجدي لا يزال مقيمًا في الجيزة قبل أن يفكر ذات ليلة في مغادرة القاهرة بعد زيارة قصيرة إلى الجيزة حيث يقيم، بعد

أن استبدت بقلبه تباريح عشق ممزوج بالكبرياء تجاه زوجته التي أخطأ في حقها، لكن الأقدار لم تشأ له حتى في تلك اللحظة أن يتخذ قرارًا لكنه حسم أمره بعد قضاء ليلة لم ينم بها سوى دقائق معدودة وعندما أشرقت الشمس توجه إلى الجيزة دون أن يخبر أحدًا بنيته تلك منذ المساء، فانهالت عليه الاتصالات الهاتفيه لتطمئن عليه بعد اختفائه المفاجئ، لكنه عندما خلا إلى نفسه في شقته كان لا يشغله سوى أمر زوجته وطفليه، وظل يصارع كبريائه طيلة يومين كاملين قضي فيهمًا ساعات شاقة وعسيرة، حيث عاد إلى تناول الإفطار في الشارع كالمشردين والباعة المتجولين واعتمد على خدمة المطاعم في توصيل الطلبات للمنازل وحاول أن يعود إلى سابق العهد حيث أيام العزوبية، التي امتدت إلى منتصف عمره تقريبًا، لكنه لم يحتمل البقاء على هذا الحال طويلا فأجرى اتصالا هاتفيًا بعد تردد طويل بالدكتور فتحي بهنسي والد زوجته، الذي كان كريمًا معه إلى الحد الأقصى كما وعده قبل ذلك، أن يكون عوضًا له عن أبيه الراحل، ولم يأت المساء إلا وكان مجدي في بيت زوجته ولم يجد في تلك الليلة سوى الأب والأخ، بينما احتجبت زوجته ورفضت لقاءه في بادئ الأمر، وعندما التقى مجدي مع سليمان كان الخجل يعتريه لكنه تحامل على نفسه كأنما يكبح جماح جواد هائج يركض داخل صدره قبل أن يقول:

- سليمان انت عارف اني باعتبرك أخويًا بالله عليك يرضيك كده؟

- يرضيني ايه بس يا مجدي؟ ده انت خليتها خل يا راجل، أنا مش قلت لك قبل كده إفصل ماضيك عن الحاضر علشان تحمي المستقبل، ليه ماقدرتش تفهم كلامي وتعمل بيه؟

هنا فقط وقف مجدي منتفضًا قبل أن يقول في حزم:

- عبير غلطت يا سليمان.. ثم أردف قائلا في غضب عارم: إيه اللي خلاها تدور عالماضي وتفتش فيه وتروح كمان تقابل ست ماتعرفهاش من ورايا؟ ده كلام يا راجل؟

سليمان في نبرة تهكمية:

- الست دي كانت خطيبتك وبقت مرات صاحبك اللي باعك علشانها، أو بالأحرى اللي باعوك وبتمن بخس علشان كل واحد فيهم اشتهى التاني، وإنت لسة برضه حابس نفسك في ماضيك، أخرج من القوقعة دي يا مجدي قبل ما تضيع، على فكره بابا نايم وكان طالب أصحيه لما توصل.. ثواني وراجع لك.

دقائق ثقيلة تمر على مجدي الذي اشتاق إلى ولديه بعد حرمان دام أسبوعًا أو يزيد، لكنه حين رأي صورتهمًا على حائط شقة زوجته انتفض رعبًا خشية أن يفقد كل شيء فلم يقاوم أشواقه إلى أبنائه حتى نادى بصوت عال:

- سليمان انت فين بلاش تقلق عمي فتحي، وأنا ممكن اعدي عليك وقت تاني.

واذ به يفاجا بالدكتور فتحي والد زوجته الذي خرج على الفور من حجرته مبتسمًا بملامحه الهادئة كالعادة ونظارته الطبية الأنيقة، قبل أن يقول في ابتسامة شاحبة وهو يتنهد فيه:

- إيه يا مجدي إنت دايمًا بتخاف كده؟ ثم يضحك قائلا: يا ابني استهدي بالله وأقعد ماتخافش مافيش حقن ليك يا سيدي النهاردة.. ثم استطرد الرجل على فكرة يا مجدي صدقني يا ابني أنا كنت زعلان منك لما شفت عبير، لكن لما سمعت منها اللي حصل لقيت نفسي محتاج أسالك مين فيكم

اللي غلطان في حق التاني؟ إنت لما خبيت ماضيك عن مراتك؟ ولا هي اللي من خوفها على حياتها معاك بدأت تدور على الجزء المظلم في حياتك من غير ما تحاول تجرحك ولا؟

قاطعه مجدي قائلا: يا عمي أنا ...

لكن الرجل لم يهبه الفرصة للحديث عندما تحولت ملامحه فجأة قبل أن ينفجر صارخًا: - يمكن اللي غلطان لما جوزت بنتي لراجل ضعيف مش قادر ياخد قرار حاسم أنه يسحق ذكرى قذرة في حياته لإنسان خاين وواحدة رخيصة كانت عارضة نفسها على شاشه للبيع، وناقصة تكتب إعلان تقول فيه المنتج معاه شهادة ضمان، بادر بالشراء قبل انتهاء العرض، حرام عليك يا ابني تكسر قلب مراتك وتدمر بيتك علشان حاجة والله ما تستحق منك لحظة تفكير.

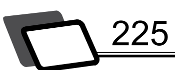
ثم نظر الرجل إلى وجه مجدي الذي التزم الصمت ولم يرفع عينيه عن موضع قدميه ولم يسمع منه طيلة اللقاء إلا أنفاسًا مضطربة وزفيرًا حارقًا وأصواتًا تصدر من شفتيه مستنكره تلك الأزمة التي وضعته فيها صراعاته الداخلية دون مبرر، وجعلته يقف في موضع الجاني مع أنه لا يدرك هل هو نفسه مظلوم أم ظالم؟

وفجأه هدأت ثورة الأب الذي نهض من مكانه وقال له مداعبًا:

- باقول لك معاك سجاير؟

وهنا نظر مجدي إلى والد زوجته مندهشًا، فوجد في عينه ابتسامه تحمل حنان الأب واسمى معاني التسامح قبل أن يربت الرجل على كتفه قائلا:

- ادخل صالح مراتك وكفاية بقى لعب عيال، والله أنا تعبت معاكم،



كفاية عليَّ المرضى بتوعي ارحموني بقى، ثم أنهى حديثه قائلا: بعد إذنك يا مجدي عندي شغل وسليمان معاك آهو، لو فيه حاجه رن لي، ثم قرص خده في حنان وهو يقول: دي الفرصة الأخيرة.. لو اتكررت منك تاني؟

لكن مجدي ابتسم في هدوء وعيناه تشعان ببريق يشكر الرجل في صمت على كرم أخلاقه قبل أن يودعه قائلا:

- ربنا ما يحرمني من كرم حضرتك يا بابا.

وبعدها بلحظات اقترب مجدي في حذر من حجرة عبير ومد يده إلى مقبض الباب لكنه تردد كثيرًا وبدأت يده ترتعش وأنفاسه تضطرب والعرق يتصبب من جبينه وقلبه ينتفض، لكنه فجأة هزم الخوف وضغط على المقبض قبل أن يهمس قائلا:

وحشتيني يا ...

قبل أن تقول زوجته في دلال:

- وحشتك؟ ثم تبتسم في مرارة: وإيه الدليل يعني؟ ما انت سبتني ورحت البلد آهو وغبت كل الفتره دي من غير تليفون حتى، وحشتك فين بقى؟ ثم استطردت والغيرة تمزق قلبها من الداخل تلاقيها هي اللي كانت واحشاك؟ وهنا فقط اتسعت عينا مجدي دهشة وصاح في غضب هي مين دي؟ ردي وبلاش هزار أنا مش ناقصك؟ لكن عبير التي أدركت قيمة حياتها وعطائها لبيتها ولزوجها قالت في مكر مصطنع أقصد فريدة يا سي مجدي؟ أم وحيد، وهنا يقترب منها مجدي وقد هدأت أنفاسه قبل أن يهمس في أذنيها وهو يلمس خديها بأصبعيه الإبهام: ياساتر عليك حرقتي دمي أنا افتكرتك تقصدي حد تاني، ثم يواصل مجدي: أنا بس قلت ابعد يمكن أعصابك تهدا.

لكنها علقت على كلمة سقطت من حديثه سهوًا:

- حد تاني مين يا سي مجدي هو انت فاكر يعني... ثم صمتت ليشتعل في صدرها لهيب كبرياء الأأنثى حين تشعربالجرح قبل أن تقول: فاكر إني هاقارن نفسي بإنسانى من أول يوم شافتك فيه قالت لك أنا ملكك طول العمر وقدمت لك جسمها قبل كلامها وكأنها بضاعة رخيصة في سوق النخاسة بتاع الجوارى قبل الإسلام؟ مش أنا اللي تقبل على كرامتها يا مجدي تتخطب لراجل وتقضي معاه وقت لذيذ وبعدها بفترة يلاقيها عامله علاقة مع غيره، وبعلم أهلها لحد ما تسلم جسمها لواحد وهي مخطوبة للتاني، الرخيصة اللي من النوع ده عار على أي ست إنها تتشبه بيها ولو كانت حتى عاهرة وحتى دي يوم ما حد يكلمها ويقول لها انتي عملتي كذا ولا كذا مع فلان أو فلان هتنفجر في وشه ومافيش على لسانها غير كلمة إخرس، مفيش ست عارفه قيمة نفسها تعمل اللي عملته البنت اللي إنت كنت هتضيع بيتك وأولادك علشان جرحها اللي لسه له أثر جواك، لكن أنا عارفة إن اللي يقدر يمحي ذكريات 23 سنة مع صديق عمره سهل جدًا ينسف علاقته بإنسانة اعتبرت غيره في حياتها محطة أو بالكتير مظلة كانت بتتدارى في ضلها من شمس الحرمان والقهر والعنوسة، وبعد كده كان لازم يبقى فيه تالت ورابع وعاشر كمان، وفي ابتسامة ماكرة: مش كده ولا إيه ؟

وهنا يبتسم مجدي وهو يصفق ويطلق صفيرًا عاليًا من بين شفتيه قبل أنا يقول في مرح وهو يبتسم: محاضرة رائعة يا أستاذ فؤاد المهندس، ثم اقترب منها قائلا في همس مشتاق تفضحه لغة العيون: حبيبتي يا ريت نرجع بيتنا بقي كده شكلنا بقي وحش أوي قدام الناس خصوصًا... ثم كتم ضحكته قبل أن يواصل قائلا: أقصد سليمان يا...

وهنًا تقول عبير في هدوء من اشتاقت لزوجها والحياء يمنعها من أن ترتمي بين أحضانه، لكنها تقاوم حتى قالت: يا إيه يا مجدي؟

فقال: يا شريكة عمري اللي جاي وعوضي عن اللي راح.

وهنا تلامست الأيدي وانطفأت الأنوار وغابًا عن الوجود ساعة.

بعد هذا اليوم عاد مجدي إلى بيته وعمله وزوجته بعد أن عقد العزم على ألا يعود إلى ماضيه القديم، مهما قست عليه أيامه وها هو يمتنع عن الغوص في بحر ماضيه تاركًا رياح الأيام تمضي به قدمًا إلى المستقبلٍ فعاد إلى طلابه ودروسه ومحاضراته وبيته، لكنه كان دائمًا يسأل نفسه سؤالًا حائرًا لا يجد إجابة له، هل كنت مخطئًا طيلة عمرى كما قال لي سليمان، عندما أفنيت عمرى في صحبة خائن فرضت الحياة عليَّ أن يكون رفيق دربي ثم يهدم حياتي فوق رأسي؟ أم أنني أخطات حين وضعت ثقتي في امرأة ليس لها بين القلوب عنوان؟

وكانت الأيام تمضي بين أفراح وأتراح وهدأ القلب الذي أجهده الدهر كثيرًا حتى عاود مجدي الاتصال بالأصدقاء وعادت إلى قلبه الابتسامة، وإلى روحه السكينة وإلى قسمات وجهه نور الرضا عن النفس والدنيا والناس حتى فوجئ في صباح يوم من الأيام باتصال هاتفي من خالد سالم، أحد أقرب الأصدقاء، بل والبشر قاطبة إلى نفسه، فتهلل بشرًا قبل أن يرد:

- آلو أيوة يا خالد، طبعًا يا عم حقك، شقة أكتوبر بقى صنعت منك رجل أعمال، بقينا نسمع صوت معاليك بطلوع الروح، فينك يا ابني من زمان؟

- والله يا مجدي مشاغل بقى وإنت عارف الدنيا هنا في القاهرة غير

عندنا في الريف تمامًا.. وقبل أن يواصل مجدي حديثه الساخر، فجأة خالد: على فكرة يا مجدي هاروح أزور مدحت حمدي النهاردة في السجن، من فترة كده كان فيه جلسة محكمة تخص قضيته وأنا ماقدرتش أروح كنت تعبان شوية.

فجأة جفت ملامح مجدي ونضبت البشاشة من وجهه لكنه تمالك نفسه قبل أن يرد:

- طيب يا خالد أنا عندي سؤالين بس، الأول أنا إيه علاقتي بمشكلة مدحت؟ السؤال التاني إنت رايح له ليه واشمعنى بتعرفني؟

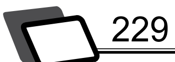
- هو إنت يعني نسيت اللي كان ولا إيه؟

- إنت هتعمل فيها ميادة الحناوي خلاص بقى اللي كان الزمان قتله ورماه.. ثم ينفجر ضاحكًا في سخرية أراد بها أن يتنسم عبق الماضي منذ عشرين عامًا جمعتهما معًا، وتابع: طيب سيبك من سؤالي الأول وخلينا في التاني رايح لمدحت ليه؟

- باختصار يا صاحبي أسأله ليه حاول يقتل مراته؟ وجوايا كلمتين نفسي أتكلمهم في وشه.

- ماشي يا صاحبي روح وإبقى طمني على أخبارك.

ثم أنهى مجدي المكالمة ونهض متجهًا إلى حجرة ابنه وانشغل باللهو معه لعله يجد ما يملأ فراغه حتى لا يعود إلى إدمانه القديم بالهروب من الواقع وتذكر الماضي، وقضى بقية يومه وهو يجعل من نفسه جوادًا لابنه ثم ينزل إلى براءة الأطفال العابثين غير مبال بشيء حتى حل المساء وعادت عبير وابنتهما هيام من رحلة تسوق كانت منذ فترة تنوي القيام بها.



توجه خالد في صباح اليوم التالي إلى المحكمة للاستفسار عن إجراءات زيارة سجين قضت المحكمة في شأنه بالحبس ثلاثة أعوام، لاتهامه بالشروع في قتل زوجته، وعندما انهي الإجراءات الخاصة توجه على الفور إلى منطقه سجون طرة، بشرق القاهرة وطلب بناءً على تصريح خاص مقابلة مدحت حمدي الذي كان يرفض لقاء أي زائر قبل ذلك، ويقضي يومه بين أقرانه في الأعمال اليومية، ويقضي ليله منفردًا يجتر ماضيه وما حكمت عليه به أيامه القاسية خلف قضبان حياة قضى معظمها بين الناس وفي الشوارع فتشرب تلك الحياة حتى صارت نسيجًا يمتزج بالجلد فيصبغه بصبغة سوداء، لا ترى من الدنيا إلا الضباب والفقر والبحث عن ما يسقط من متاعها بعد أن يكون قد أصابه العفن والعطب، وأصبح لا يصلح إلا لأولئك الذين لا يبالون بشيء إلا ما يسد رمق البطن ولقاء عابر مع ساقطة من النساء ويواري سوأة الجسد كورقة التوت، تلك الورقة التي كان ثمنها فيما مضى كرامة إنسان.

وعندما وصل خالد إلى مكان اللقاء الأول، وجد مدحت على هيئة لم يره عليها طوال حياته، فقد بدا غائر العينين شاحب الوجه مغبر الرأس، وقد استطالت لحيته لكنه بدا غير مكترث بشيء ولا يبالي لأمر، لكنه عندما واجه خالد والتقت عيناهما بدا صلبًا شديد البأس يقاوم السقوط الرهيب، الذي كان يعتصره من الداخل كلما خلا إلى نفسه، ولم تمض إلا لحظات قبل أن يمد خالد يده ليصافح مدحت، الذي لم يفكر حتى في أن يعانقه بعد غياب دام سنوات ثم ساد صمت طويل قبل أن يقول مدحت بحروف تخرج من بين شفتيه بائسة كهيئته في تلك اللحظة:

- صباح العذاب.. قالها مدحت ساخرًا وهو ينظر إلى الأرض قبل أن يردف هامسًا:

جاي ليه يا خالد؟ معقول ماتحضرش فرحي وجاي تشوفني هنا بعد كل السنين دي.

يتنهد خالد في عمق، وفي كلمات هادئة كعادته لكنها تقطر حزنًا:

- أستغفر الله العظيم.. ثم يستطرد: يا إبني أنا جاي علشان أتطمن عليك وأشوف لو عايز حاجة أقدر أخدمك فيها ولو عايز فلوس أو...

قاطعه مدحت قائلا:

- لا لا الحمد لله مستورة أنا بس كنت عايز سجاير مش أكتر.

نظر خالد إليه نظرة تمزج بين الإشفاق والعتاب، قبل أن يسأله:

- ليه عملت كل ده يا صاحبي؟ يعني خلاص كانت الدنيا اسودت في وشك؟

وهنا ينفجر مدحت غضبًا:

- أيوه كانت سودا لما عشت 35 سنة من عمرى لا لاقي شغل ولا لاقي جواز ولا فيه استقرار ولا فيه بيت، ولو فكرت أعيش في بلدنا كنت تشتغل إيه مدرس من أبو ميت جنيه؟ ثم يبتسم في مرارة قبل أن يقول: يا عم خليها على الله، ثم ينظر إلى خالد في حسره ويتنهد في مراره قائلا: ولا كنت مثلا هاقول إني هافتح فصل دروس خاصة وساعتها الحصة بكام؟ ما ترد يا خالد قل لي كنت ممكن أدي الحصة باتنين جنيه ولا أعيش مع أمي اللي كانت مسودة عيشتي كل ما تشوف خلقتي؟ يا أخي حرام عليكم بقى كفايه تظلموا حد من غير ما تسمعوا منه هو إيه اللي خلاه يعمل اللي كلكم شايفينه جريمة.

تنهد خالد في عمق:

- إهدا يا مدحت وإسمعني مش معنى إن ظروفك صعبة إنك تبيع ضميرك وكرامتك وتخون حد بيعتبرك أخوه.

- أنا مش متعمد أخون حد، صرخ مدحت ثم هدأت نبرته وهو يقول وعيناه عند أصابع قدميه قبل أن يدور في المكان هربًا من عيني خالد اللتين ترمقانه بغضب:

- لما لقيت قدامي فرصة مش هتتكرر تاني، جوازة بوظيفة وتعتبر ببلاش، لأن هدف عمرهم إنهم يستروا بنتهم، وكمان دي بنت، أنا كنت بتعامل معاها ولقيتها طيبة وبنت حلال...

وفجأه قاطعه خالد:

- آه استنى بقى شوية، ثم ساله خالد في دهشة: بنت حلال تعريفها عندك ازاي يا مدحت تقدر كده تقول لي في هدوء؟

نظر مدحت إلى الأرض ولم ينطق بشيء، لكن خالد فاجأه بالقول:

- بنت الحلال دي تعريفها عندنا إنها تكون محترمة صح؟

همس مدحت وهو يقاوم غضبًا هادرًا يسيطر على نفسه:

- صح يا خالد.

خالد:

- وهل من الاحترام إنها تكلم صاحبك وهي مخطوبة له في الجنس خلال شهر رمضان وأثناء ابتهالات الفجر يا مؤمن؟ فين الاحترام ده لما تقول لصاحبك تحب بدلة الرقص اللي ألبسها وأنا معاك يكون لونها إيه؟ ثم يواصل خالد وهو لا يدرى أن كلماته لها وقع السياط على نفس صاحبه: أي احترام ده اللي يخليها تسيب له جسمها يتعامل معاه كما لوكانت مراته؟

كده بقت في نظرك محترمة؟ ويسأل خالد مندهشًا قبل أن يعطي مدحت فرصه ليتقط أنفاسه: بس هل ظروفك تبيح لك إنك تسرق لأنك جعان؟ أو من كتر جوعك الجنسى والمادي تخالف شرع ربنا؟

وهنا ينفجر مدحت صارخًا:

- أنا مش باخالف شرع ربنا، أنا اتجوزت، لكن الناس متصورة إني ارتكبت جريمة زنا.

وهنا دار في عقل خالد ما لم ينطق به لسانه حين قال في نفسه:

- كنت هتوصلها بتفكيرك ده، ثم عاد خالد إلى واقعه فجأة وهو يسأل مدحت: أنا بس نفسي تجاوب السؤال ده، إزاي تبقى بتاكل مع حد في طبق واحد وتنام في سريره وبعدها ممكن تستلف منه فلوس علشان تروح تخونه مع خطيبته اللي لسة حتى مش مراته؟ وبعدين تطمع فيها إنت بعد كل اللي انت متخيله من خصوصية في علاقتها بيه؟

هي مش قديسة، يعني مش معصومة يا مدحت، وهو مش نبي هو كمان، كان ضعيف وكان بيحبها، وإنت بنفسك اعترفت قدام الناس وفجأة نلاقيك بتغير خريطة الأحداث لحسابك؟ بصراحة الراجل اللي قبل يعمل معاك كده واطي وإنت نفسك ندل أنا آسف. هنا يسأل مدحت فجأة موجها كلامه لخالد:

- راجل مين ده؟

خالد:

- حماك.. ثم يواصل قائلا: أقصد اللي كان حماك، وقبل منك كان حماه هو، ثم يكرر خالد اعتذاره: أنا آسف لأني كنت فاكر لما حبيت أزورك إنك شجاع وهتعترف بغلطتك في حق إنسان كسرته قدام نفسه، أوعدك إنك

لو طلبت مني حاجه هتلاقيها مهما كانت إلا حاجة واحدة بس.. لم ينتظر خالد إجابة، لكنه أكمل في صرامة بعد أن نظر إليه مدحت مندهشًا: إلا إني أديك الأمان وأدخلك بيتي تاني، لأنك حتى ماكنش عندك احترام لعشرتنا كلنا معاك لما خنت واحد مننا، ومع الأسف، كان أقرب واحد فينا كلنا ليك وماكنش يستاهل منك كل ده يا... ثم أكمل وهو يتنهد: يا اللي كنت صاحبي زمان، الله يرحم أيام زمان.

ثم رمقه بنظرة حارقة لم ينطق بعدها حرفًا واحدًا، ثم انصرف وهو يعقد العزم ألا يعود إليه مهما حدث، غادر خالد المكان واستقل سيارة أجرة متجها إلى بيته، وعندما دخل البيت كان على غير عادته يقاوم شعورًا بضيق الصدر جعل الكآبة تسيطر عليه، حتى لاحظت زوجته ذلك عندما صاح في وجهها بلا مبرر والغضب ينبعث من ثنايا كلماته وهي تخرج من بين شفتيه، وعندما سألته زوجته:

- مالك يا خالد؟ فيه إيه؟

- جاي من السجن.

- ياساتر يارب! سجن إيه بس؟ الشر برة وبعيد، فيه حد يروح مكان زي ده؟

- أيوه يا ستي رحت أزور مدحت صاحبنا لأنه كان اتهور وفكر يقتل مراته.

- ريهام؟ معقولة دي؟ قالت نهى في دهشة قبل أن تستطرد قائلة: بعد اللي عمله يفكر يقتلها؟ ثم تضرب كفًا بكف وهي تقول: دنيا عجيبة والله، سبحان الله، هي دي آخرة الغلط، فعلا ما بني على خطأ فهو خطأ.

يتأفف خالد وهو يكظم غيظه قبل أن يقول:

- سيبك بقي من اللي اتبنى واللي اتهد، عايز أتعشى علشان عندي شغل، كفاية اليوم ضاع في المشوار الصعب ده، وانتي عارفة الوقت دلوقتي ضاغط عليَّ لأن الأولاد منتظرين من فترة.

ثم تناول العشاء وانطلق كعادته ليواصل عمله، وهو لا يتذكر أين كان في الصباح، كان يهرب من تلك الذكرى المريرة التي أرقته وقتًا ليس بالقصير منذ عدة سنوات ولم يندم على تلك الزيارة التي لم تقدم جديدًا، لكنها أيقظت في نفسه شجونًا وأثارت مخاوف.

الفصل العاشر

رنين الهاتف يصك مسامع سليمان قبل أن تنادي زوجته في صوت ناعم وبهمس:

- سليمان.. يلا حبيبي اصحى أتأخرت على شغلك، الراجل اللي اسمه عبدالعليم المقاول ده اتصل عليك أكتر من مرة، ومجدي جوز أختك كمان.

أفاق سليمان من نومه مبتسمًا، ثم نهض ولم يغادر سريره وقال متثائبًا:

- هي الساعة كام؟ ثم تمتم قائلا: ومجدي عايز إيه عالصبح؟ ثم تنبه فجأة واتسعت عيناه: يا خبر ده أنا كنت مواعد مجدي نتقابل الساعة 10 الصبح ثم نظر إلى زوجته مبتسمًا، عاجبك كده؟ مجدي هيعمل لي فيلم عالصبح لأنه...

قاطعته زوجته:

- لأنه إيه بقى؟

- لأنه غاوي سينما يعني.. ثم ضحك قائلا: مش قصدي حاجة والله.

وفي لحظات كان قد جلس على المائدة يتناول إفطاره، لكنه لم يكمل إفطاره كما اعتاد، لقد نظر إلى حقيبة من الجلد يحتفظ فيها بأوراقه الهامة، ثم اقترب منها والتقطتها مغادرًا شقته وهو يودع زوجته معتذرًا:

- سلام بقى لأني مش ٍطالبة معايا خناقات مع مجدي ومراته عالصبح، وقبل أن يكمل السلم هبوطًا كان مجدي بانتظاره فألقى السلام، ثم استقل

السيارة قبل أن يقول: آسف يا مجدي معلش سهرت حبتين في الشغل.. ثم يسأله فجأة مين الحاج عبدالعليم المقاول ده؟ وازاي تدي له رقمي من غير ما أعرف؟

مجدي:

- يا عم ده راجل بلدياتي وكان عايش معايا في القاهرة في السنه السودا اللي عشتها هناك أيام ما كنت باشتغل في الحتة المقطوعة إياها وكنت ساكن معاه، علشان كده اخترته يعمل معاك الأساس بتاع حتة الأرض الجديدة؟ أيوة وآهو اللي نعرفه أحسن يا عم سليمان ولا إيه؟

- ماشي ياعم مجدي المهم أنا خلصت الرسومات والتراخيص كمان، وكده بقى نبدأ مبنى الإيجي مول يا معلم وعلى بركة الله.

ضحك مجدي وهو يردد في ارتياح بالغ:

- على بركة الله.

مضت عدة أيام قبل أن يقرر فريد زيارة خالد في بيته ربما لأول مره منذ سنوات، وعندما التقي به تبادل الصديقان الاطمئنان على بعضهما البعض وعندما حان موعد العشاء كانت فكرة بقاء فريد في شقة خالد قد أصبحت واقعًا يفرض نفسه إلا أن فريد اعتذر وقرر أن يغادر المكان لأنه كان يعقد النية على زيارة أخيه راشد في شقته الجديدة واخفي حتى عن خالد أنه يريد أن يزور مدحت في سجنه بعد أن تجنب خالد تمامًا الحديث عن هذا الموقف الذي عكر عليه صفو أيامه لفترة حتى تناسى الأمر تمامًا، وانطلق فريد مستقلا سيارته الفضية إلى شقة أخيه ليبيت بها حتى الصباح لكنه لم ينم إلا نومًا متقطعًا فلم يعتاد منذ فترة المبيت خارج بيته وبعيدًا عن زوجته وأولاده.

وعندما حانت العاشرة صباحًا توجه فريد إلى حلوان، ليقوم بزيارة مدحت بعد الحصول تصريح خاص من المحكمة يسمح له بذلك، وفي تلك المرة تحديدًا لم يبتسم فريد الذي كان مرحًا طوال علاقته الممتدة مع مدحت وخالد ومجدي رفاق الصبا الذين عصفت بهم الأقدار وتطورات الأيام حتى أوصلت مدحت إلى ما هو فيه الآن.

جاء مدحت في خطى بطيئة جدًا يحرك ساقيه كأنما هي سلحفاة أصابها مرض وتحاول أن تتعافى، كان مدحت كلما اقترب تراوده نفسه وتهمس إليه أن يعود، لكنه تحامل حتى لامست أصابعه يد فريد الذي قال له في هدوء وهو يهز رأسه:

- إزيك يا أسطى؟ ثم ابتسم فريد ابتسامة باهتة قبل أن ينظر إلى الأرض، مدحت يتظاهر بالصلابة والقوة:

- أنا الحمد لله كده الأحوال.. فل أوي بالصلاة عالنبي.

فريد: يعني نقدر نقول شيكوزال كمان؟ ثم تنهد وهو يبتسم وشفتاه لم تنفرجا قبل أن يهز رأسه قائلا: كنت أتمنى أشوفك أفضل من كده، لكن ثم صمت قليلا وتمتم هامسًا: آهي بقى دي إرادة ربنا، ثم نظر إلى الخلف قائلا: ما تيجي نقعد شوية ولا إيه؟

مدحت:

- يا عم نقعد إيه بس ما أنا بقالي سنين طويييييلة قاعد شبعت من القعدة دي.. ثم تنهد في مرارة قبل أن يردف قائلا: خلينا واقفين أحسن آهو حتى الواحد يصلب طوله شوية، وبعدين إيه اللي فكرك بيا النهارده يعني؟ قلت أعدي أشوفك يا مدحت وآهو اتطمن عليك من باب أنه برضه كان فيه بيننا عشرة وعيش وملح ولا نسيت؟

وهنا ينظر مدحت صامتًا:

- لا مش ناسي يا فريد وقاري الأسئلة اللي في عينيك بس مش عارف أجاوب أقول لك إيه يعني؟

فريد:

- قول اللي يريحك يا مدحت زي ما تحب أتكلم أنا جاي أسمعك اتفضل إحكي، ثم بتر حديثه فجأة: صحيح قل لي الأول هو صحيح إنك حاولت تقتل مراتك لأنك بس شكيت في إنها سرقت منك مبلغ كان حد سايبه معاك توصله لزوجته تاني يوم؟

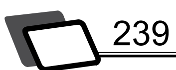
- سرقت؟ أمانة؟ اتسعت عينا مدحت دهشة وقال في غضب: يا عم سرقة إيه وهباب إيه؟ مافيش كلام من ده نهائي، أنا لاحظت بس أنه تصرفاتها بقت غريبة، تليفونات كتير والرقم مشغول على طول، وفجأة باكلمها في يوم لقيتها صوتها عالي بشكل مستفز وتجاوزت حدودها في الكلام معايا، لقيت نفسي من غير ما أشعر بحاول أخنقها، ولما قالت لفظ معين عقلي غاب، وطعنتها بسكينة وأنا مش مدرك باعمل إيه، ومن ساعتها لقيت نفسي هنا، ومن بعد ما هي اتطلقت ماعرفش أي حاجة عنها.

فجأة فريد يعلق على كلمة أخيرة وهو يحملق في وجه مدحت:

- بتقول قالت لك لفظ اللي هو إيه؟

- قالت لي كويس إني صابرة على قرفك ومستحملة إنك عايش على فلوسي.. ثم نظر مدحت إلى الأرض قبل أن يقول: مش عارف إيه اللي بيحصل ده كله؟

فريد:



- اللي بيحصل يا مدحت يا إما ابتلاء من ربنا بيغفر ذنوب، يا إما تكفير سيئات وخطايا في حق أي حد، كلنا مقصرين والحمد لله في السراء والضراء.

- خطأ في حق حد؟ أنا الحمد لله عمرى ما ظلمت حد، ولا جيت على حد في دنيتي.

فجأة يضحك فريد بقوة، رغم أنه يغلي من الداخل، ثم صفق بيديه متهكمًا:

- لا شاطر يا مدحت إنت هتمثل؟ يا ابني إنت غلطت غلطة عمرك لما خنت صاحبك علشان واحدة كان مصيرك معاها آهو إنك دخلت السجن.. تخيل أنا أكتر حاجة خلتني أزعل من نفسي إيه يا مدحت؟ إني كنت فاكرك بجد أخ مثالي لينا، أنا وخالد ومجدي، ثم صمت فريد قليلا قبل أن يكرر: فاكر مجدي؟

- طبعًا فاكره، هو فيه حد جابني هنا غيره الله يسامحه بقى.

- يا أخي الله يسامحك إنت، أنا نفسي أفهم إنت إزاي تجرأت إنك تعمل علاقة مع خطيبته، وتروح تخطبها من وراه، رغم إنها قالت لك بنفسها يوم موضوع وصل الأمانة، خليك جنب مجدي يا مدحت قرب منه اليومين دول لأنه بيمر بفترة صعبة وأنا خايفة عليه؟ وبعدها إنت بنفسك اتريقت عليها وقلت لها ما أنا قريب منه عالآخر آهو، ده أنا كل يوم باكلمه، ولا أروح أقعد على حجره؟ وساعتها بقى كنت إنت بدأت تظبط معاها وعامل مسرحية إنت وهي وأبوها مش كده؟

- لا مش كده يا فريد، إنت فاهم غلط؟

- طيب قل لي إيه هو الصح اللي ماحدش كلمني فيه.

- الصح إني حاولت أساعد مجدي لما تدخلت في مشاكله مع ريهام، لقيت نفسي باحبها من غير ما أشعر، وبعدها لقيت أن دي فرصة لو راحت مش هتتكرر تاني يا فريد.

- طبعًا صحيح، عروسة بوظيفة، وإن كانت العروسة مش نافعة كفاية المرتب وتروح تتجوز عليها مرتين تلاتة كمان، ولا تمشي مع غيرها من وراها مش كده؟ طيب ما كانت قدامك قبل مجدي ما يخطبها حليت في عينك دلوقتي؟ يا ابني ده أنا فكرت أروح أنا وانت ومجدي لأبوها علشان نحل مشكلة مجدي أتفاجئ بعدها بأقل من أسبوع مجدي داخل عليَّ الصيدلية منهار وهو بيقول لي تصور مدحت خطب ريهام؟ فجأة يحملق في وجه مدحت، ثم يقهقه ساخرًا وهو يصفق بيديه: لا شاطر يا وله، ممثل هايل الصراحة، فكرتني بمجدي واحنا في ثانوي لما كان بيقلد عادل أدهم في فيلم حافية على جسر الذهب.. ثم ضحك في مرارة: وهو يكرر فاكر يا مدحت؟ كانت أيام جميلة والله.. ثم نظر إلى الأرض خجلا وهو يقول استحالة ترجع تاني يا أخي.

- والله أنا مش بامثل ولا باهزر يا فريد أرجوك كفاية بقى أنا اللي فيَّ مكفيني.

- أرجوك انت قل لي بأي منطق تبقى إنت بنفسك قايل لمجدي ريهام بتحبك أوي وشايفه بيترمي في حضنك وهو بيبكي وتقبل على نفسك تعمل علاقة مع خطيبته من وراه؟ وتعمل لها غسيل مخ لدرجة إنها تكرهه مع إنك ساعدته كتير زي ما بتقول ولا كنت بتساعده علشان تفضل هي قريبة منك وإنت بعد كده تعمل اللي انت عايزه من سكات؟

نظر مدحت إلى الأرض ولم يتفوه بكلمة لكن فريد صرخ في وجهه:

- ما ترد يا عم؟ ثم واصل فريد إنت لو قاصد تساعده تقوم تعمل معاها علاقة فيس وتليفون من وراه؟ دي قلة أدب زي ما أنا قلت أول ما سمعت منه الخبر، وده ماكانش كلامي لوحدي ده كان كلام أي حد عنده... ولامؤاخذه يعني... عنده دم، لكن ساعدته دي تخليك تروح تكلمها من وراه وتعمل علاقة معاها من وراه وتقابلها كمان مرتين تلاته كده انت رسمي وقعت في مخالفه شرعية.

- حلوة مخالفة شرعية دي يا شيخ فريد.. قالها مدحت وهويبتسم في مرارة ويهز رأسه وعيناه تنظران إلى الأرض.

- والله يا عم أنا مش جاي أهزر معاك، أنا جاي أقول لك إني لما سمعت الخبر ده من مجدي قلت له دي قلة أدب، النهارده مش عارف مين فيكم اللي قليل أدب، إنت اللي طمعك وشهوتك خليتك تدوس على غيرك، مع الأفندي اللي جوزك بنته، ولا هو اللي قليل أدب أنه اعتبرك أخ وطلب منك تقف جنبه، فرحت إنت واقف على رقبته لحد ما دفنته بالحيا وسحقت كرامته تحت جزمتك، أنا كنت جاي وأنا ظالمك، لكن دلوقتي حسيت أنه هو اللي ظلمك وظلم نفسه.

- ظلمني وظلم نفسه؟!

ودعه فريد وانصرف مغادرًا دون أن يلقي إليه سلامًا، لكنه انصرف قائلا:

- مصيرك تفهم مع الأيام مين ظلم ومين اتظلم.

فجأة مدحت يقول في نبرات مريرة، وهو يقاوم ابتسامة مكسورة امتزجت بالدموع:

- حبيبي يا متدلع والنبي لتولع.. ثم تنهد في مرارة وهو يقول: كان لازم ألحق اللي باقي من أيامي بدل ما أموت ولما اندفن ألاقي نفسي برضه حاضن المخدة اللي... قبل أن ينظر إلى الأرض ويهمس قائلا: أبلغه إن الريح قد خطفت بنت من على المينا، كان يعشقها، ومعاشرها من ستة وتلاتين سنة كأنها مراتي، وبعدين كان لازم حد يكون ضحية علشان حد يعيش، إزاي أضحي بيها وانا بحبها في الوقت اللي كل الناس وقفت قدام صاحبي اللي ماقدرش يواجه ظروفه وعاش طول عمره متردد بين أيوة وبين لا؟ لغاية ما وصلها من جواها إنها تنهار وتتعذب بسببه، كان لازم ألحق فرصتي اللي كنت فاكر أنه مافيش حد هيقدر ينتزعها من إيدي مهما حصل لكن... ثم رفع رأسه إلى السماء قبل أن يتمتم: كفاية ولا لسة كمان؟ فجأة يتمتم بصوت لا يسمعه سواه: صباح العذاب.

ومضى في خطوات سريعة حين سمع نداء يقول:

- الزيارة انتهت.. كله عالعنابر ياللا.

فأسرع الخطى كما اعتاد منذ طفولته، ثم بصق على الأرض في عصبية وهو يلعن أيامه:

- ملعون أبو دي عيشة.. أيام شبه بعض بقت حاجة بيض عالآخر!

زفر سليمان في غضب، قبل أن يضغط آلة التنبيه في سيارة مجدي، لتصدر صوتًا مزعجًا كان سببًا في شكوى بعض المارة والسائقين، ليدفع مجدي إلى مغادرة شقته قسرًا وإجبارًا، ثم نظر عن يمينه فوجده يهرول وهو لا يزال يحاول أن يربط رباط العنق، ويحمل جاكيت بدلته بين أصابعه قبل أن يصرخ مازحًا:

- إيه يا عم؟ هي الدنيا طارت؟

- لا أنا اللي برج من نافوخي هيطير يا عم مجدي.. ثم يسأله في دهشة: إنت مش واخد بالك إننا اتأخرنا عالناس؟ يا عم قدر الظروف مش كفاية إنك لغيت فكرة المبنى اللي كنت داخل عليه وإنت كلك حماس؟

مجدي وهو يدير محرك السيارة:

- سليمان عشان خاطرى إهدا حبتين، بلا حماس بلا فتح، ثم يضحك ساخرًا: المهم المحل الجديد موقعه كويس في نظرك؟

- أيوه يا عم ممتاز، كفاية إنه على شارع الهرم الرئيسي، أنا بس خايف من فكرة تعدد الشركاء دي بيكون وراها أحيانًا مشاكل.

- ياعم ربنا ما يجيب مشاكل، المهم نلحق نتفق مع الناس علشان نحدد ميعاد الافتتاح ونبلغ أصحاب التوكيلات إننا هننفذ يوم كذا، ولازم نلحق النهارده نروح بنفسنا نمضي العقود.

- هنلحق النهارده نروح من الهرم للنزهة الجديدة يا مجدي؟ ده سفر لوحده يا ابن الناس.

- هو احنا هنروح مشي؟ ولا هنستني الأتوبيس؟ سيبها على الله وبلاش تعقد الأمور.

- وانا معاك لحد الفجر لو عايز، بس بالله عليك ارحمني من تدخين السجاير في العربية.

- حاضر يا سليمان، لك عليَّ لما أدخن سيجارة أنزل أقف أدام العربية لما أخلصها.

- قشطة عليك يا معلم ،سوق بينا يلا على الكورنيش.

ثم ضحك سليمان ساخرًا، مجدي يبتسم في دهشة:

- ليه احنا رايحين المعادي ولا شبرا؟

- باقول لك هنخلص في الهرم وبعدين نروح النزهة الجديدة، وبكره يحلها ربنا.

سليمان يتنهد في ارتياح قبل أن ينظر إلى مجدي قائلا:

- بإذن الله تعالى.

- تعمل إيه بس يا مدحت بأيامك السودا دي؟ سأل مدحت نفسه بلا إجابة، توارى خلف باب الحمام ليتبول، ألقى سيجارة احترقت حتى الخمس الأخير، ألقى بها في قاع الحمام، ثم أغلق الباب بعنف وهو يتحرك في بطء شديد على غير العادة حتى أفزعه صوت أجش، المعلم بيومي عبد الدايم من قدامى السجناء وأكثرهم غلظة:

- واد يا مدحت.. قرب هنا.

نظر مدحت في هدوء ثم تحرك بانكسار ولم تنفرج شفتاه إلا عندما رد:

- نعم.

- وزعنا الأعمال وعليك النضافة النهارده.

بدا الرجل يهيئته الضخمة ورائحته الكريهة وشاربه المنفوش كأنه من بقايا عصر أبو لهب أو من المتسربين من التعليم في مدرسة أبوجهل التجريبية الحديثة لغات، استسلم مدحت للأمر بلا نقاش ثم توارى عن العيون ليؤدي ما تم تكليفه به تفاديًا لأن يبطش به ذلك الحبشي متحشرج الصوت، ثم واصل مدحت في صمت تنفيذ المطلوب من نظافة ومسح، حتى يضمن قضاء يوم من الأيام البطيئة التي تشبه السلحفاة الكسيحة حين تلتقط أنفاسها بعد جهد مضنٍ في دورة علاج طبيعي لتستعيد قدرتها على الحركة.

ومضت ساعة تلو ساعة قبل أن يلقي مدحت جردل الخدمة والفتالة ويستسلم للتعب، وهو يهمس داخل نفسه: وحشني أوي درج المعالق، قبل أن يكتم ابتسامة لم تر النور بل خرجت مبتورة فلم تهتز لها شفتاه ولا خلايا وجهه، لكنه الآن لا يستطيع المقاومة: ساعة الراحة وجبت.

استلقى على ظهره متوسدًا يديه، وهو يحك جلد رقبته بأظافره ويتأفف غيظًا من رائحة عرقه، وشخير النائمين، وأصوات أخرى خارج العنبر، ولكنه لم يستطع النوم، يتذكر فريد ثم تتراقص أمام عينيه صورة خالد السابحة في فضاء الغرفة ذات الجدران الرمادية والأرضيه الإسفلتية، والأبواب الزرقاء كألوان الثياب الأميري، حشرات الأرض تعزف سيمفونية من الالم المكتوم، والذي لا بد أن يحتمله الرفاق، هدوء تام يسود المكان ويحل الظلام، البعض نائم والأكثر لا ينام:

- ليك زيارة يا مدحت.. إصحى ياواد ليك زيارة.. ثم ركلة بقدمه، نظرة في غضب مكتوم خشية عقاب شرس، مدحت يغادر العنبر وفي خطوات تدفع بعضها بعضًا يجد نفسه وجها لوجه مع مجدي، قبل أن يقول مجدي:

- بص يا مدحت أنا مش هاخد من وقتك كتير، أنا جاي أقول لك كلمتين صغيرين أوي، ثم يبتسم في هدوء: مش هاقول لك بقى ليه خليت ريهام تكرهني؟ ولا ليه عملت علاقة معاها من ورايا؟ ولا ليه قبلت الحرام وقبلت على نفسك إنك تكسرني قدام نفسي؟ لا لا لا، ولا ده كله في دماغي، أنا بس عندي سؤال واحد ومستعد أجاوبك على أي سؤال، هل إنت راضي عن نفسك؟ ثم نظر إليه واقترب هامسًا: لما أخويا مات كنت إنت أول حد عرف، مع إنك كنت برة مصر، ولما أنا كنت برة مصر، ولأول مرة في عمرى أول واحد غدر بيًا كان إنت... صح؟ يا ترى ليه يا ابن الناس؟ على رأي مراتك اللي

كانت خطيبتي قبلك يعني.. ثم يبتسم في مرارة، أصلها كانت دايمًا تقول لي يا ابن الناس دي؟ كانت كلمة مشهورة أوي عندها زي كلمة فعلا؟ إنت أكيد حافظها أكتر مني طبعًا.. مدحت يتنهد دون حديث وهو يرمقه في دهشة، فيكمل: يا أخي ده أنا كل الناس قالت لي حمد الله على السلامة لما رجعت من سفرى برة مصر في الرحلة إياها إلا إنت، مع إنك عرضت نفسك للخطر بسببي في يوم مش ناسيه ليك، اليوم ده لما نزلت من عربية فؤاد وعديت الدائرى وإنت نعسان، وفي عز البرد، وكنت نايم في العربية عشان تسأل سواق عن الطريق، ونعرف كنا ساعتها ماشيين صح ولا غلط، يعني ساعتها كنت ممكن تموت.

- إنت جاي تديني مواعظ يا مجدي؟

- لا والله أنا بس جاي أقول لك حاجةٍ واحدة بس، كان فين ضميرك لما خليت الإنسانة الوحيدة اللي أخلصت ليَّ في الدنيا تكرهني؟ كنت طمعان في إيه شوية فلوس؟ طيب ما كان أدامك مليون بنت موظفة، إشمعنى ريهام يعني؟

مدحت:

- لأني حبيتها يا مجدي.

- نعم يا حبيبي؟! حبيتها ده اللي هو إزاي يعني؟ ممكن ترجمة؟ وازاي تحبها وهي خطيبة حد إنت تعرفه كويس؟ بلاش نقول صاحبك وعارف عنه الصغيرة قبل الكبيرة، إنت ناسي إن لما أمي ماتت ماكنش معايا حد بعد ربنا غيرك يا مدحت؟ ولما أبويا مات كان أول اتصال مني ليك؟ وساعتها إنت عرضت عليَّ فلوس وقلت لك مستورة ولما أمك رفعت قضية طلاق إنت بنفسك طلبت مني أتعاب المحامي، اللي كان زميلنا ودفعتنا، أكيد فاكره طبعًا أستاذ بهاء رضوان.

- أيوه فاكره، إنت عايز إيه دلوقتي؟

ونظر مدحت إلى الأرض وهو يشعل سيجارة:

- عايز أسألك عن حاجة واحدة بس، تفتكر مرتب ست ممكن ينفع تمن تبيع بيه راجل؟

ولا أقول لك بلاش السؤال ده، كنت بتبقى سعيد وإنت نايم معاها لما عرفت بعد كده إنها كانت بتبرمي في حضني قبلك؟وبعدين إنت لما حاولت تتدخل وتساعدني في حل مشكلتي اللي كسرت ضهرى دي، إنت كان مفروض تتعامل مع الناس دي من خلالي مش تروح تعمل علاقة فيس، وتقابلها، وتكلمها، وبعدين تخلي الموضوع سرى وتنفذ من سكات؟

مدحت ينظر في ذهول بلا تعليق، ثم يهمس:

- إنت اللي اديتني فرصة اعمل كده يا مجدي، لأنك دخلتني حياة الناس دي من الأول،

إوعي تلوم إلا نفسك، لأن اللي حصل إنت السبب فيه، لأنك دخلت حياة الناس دي وإنت ضعيف قدام مشاكلك ومش قادر تحل ولا تربط، وأنا لما تدخلت لقيتهم ضاغطين عليَّ، وكل يوم يكلموني وقلت لك الكلام ده إنه في كلام بيني وبين ريهام.

- إنت قلت لي بعد ما كان أبوها مظبط معاك كل التفاصيل، وبعدين فرق كبير أوي بين انك تحاول تخدم صاحبك وتساعده، وبين إنك تنام مع خطيبته.. ثم يبتسم في سخرية قائلا: إيه يا عم؟ كنت بتجربها ولا إيه؟

مدحت:

- إمسك لسانك واعرف حدودك.. كانت لحظة ضعف وكان جوازي منها بعد اللحظة دي حتمي.

- والله ؟ فعلا؟ الكلام ده حقيقي ولا بجد؟ بص يا مدحت هاسألك سؤال أخير وأمشي ومش تشوفني تاني، إنت مرتاح ؟ قبل أن يفوه مدحت بكلمة واحدة أعرض عنه مجدي، واتجه إلى الباب ولم ينظر خلفه، ثم تمتم بكلمات قلائل خرجت من شفتيه بصوت هامس، فلم يتضح منها إلا جملة واحدة: لله الأمر من قبل ومن بعد، ثم توقف لحظة عندما نادي مدحت في صوت يائس:

- مجدي ممكن تسامحني؟

مجدي ينظر إلى الخلف ويتسمر دقيقة قبل أن يسأله:

- بذمتك؟ ينفع أنا بالتحديد أسامح؟ بعد ما كسرتني قدام نفسي وحرقت قلبي وعمرى.. ثم واجه مجدي مدحت في ثبات: أنت حرمتني من ريهام وربنا هيحرمك من السعادة لأني واثق في عدل ربنا أوي، تعرف يا مدحت لو أبواب السما مفتوحة نفسي اطلع عمره في رمضان وفي أرض الحرم أطلب من ربنا في دعاء خاشع، رجاء وحيد باتمناه من دنيتي.

ابتسم مدحت ابتسامة شاحبة ثم قال:

- عارف.. هتقول له يا رب خد مدحت.

- لا سيدي، أنا بس نفسي ربنا يقبلها مني وتصعد للسما، إن ربنا يكتب عليك إنك تموت وانت على غير دين ويوعدك بسوء الخاتمة، علشان مايبقاش ليك حسنة واحدة تشفع لك قدام ربنا- فيغفر لك بها ذنبك في حقي، ويا ريت ربنا يقبلها مني سواء هنا ولا هناك، دلوقتي أو في ليلة القدر، كده وقتك معايا انتهى، استأذنك لأني رايح أشوف دنيا تانية لا فيها خيانة ولا فيها أنانية ولا فيها طمع، يكون فيها حد يعرف يعني إيه أخ ويبقى جواه يقين إن الإنسان أصله تراب، ومش هيملى عينه غير التراب، مهما جمع ومهما حارب،

يا ترى فهمت ولا لسة برضه حاسس إنك مظلوم؟ يا مدحت؟ ثم نظر

إليه قائلا في دهشة وهو لا يخفي غضبًا ينبعث من ثنايا وقسمات وجهه: طيب لو أنت مظلوم وأنا كمان مظلوم والبنت اللي رحت اتجوزتها اتظلمت معاك ومعايا يبقي مين اللي ظالم يا عم الأستاذ؟ جاوب واعتبر نفسك في امتحان مين الظالم فينا؟ أنا؟ ولا أنت؟ ولا مراتك؟ ولا الأهل؟ ولا الظروف؟ لو عرفت الظالم هابقى أجيب لك علبة سجاير مستوردة علشان تدعي لي وإنت بتخمس فيها مع الرجالة جوة، سلام يا ريس.

اتجه مجدي إلى الباب قبل أن يغلقه الحراس منطلقًا بسيارة سليمان قبل أن يقول: حسبي الله ونعم الوكيل.

وينظر إليه سليمان مندهشًا:

- فيه إيه يا مجدي؟ مالك؟

مجدي وهو يتنهد بعمق:

- ولا حاجه يا سليمان.. ثم يكرر في ارتياح: والله ولا حاجة.

استيقظ مدحت على صوت المعلم بيومي وهو يركله بقدمه قبل أن يصرخ قائلا:

- انتباه يا أفندية، حصة الغدا وجبت.

مسح مدحت وجهه بكلتا يديه قبل أن يتمتم في همس:

- أيام أمكم هباب، يلعن أبو اليوم اللي لمني على أشكالكم.. ثم نهض واقفًا وهو يتمتم في مرارة: لما نشوف آخرتها إيه معاكم!

تمت

الفهرس


نور
للثقافة والفنون
Nour Culture and Arts